أهل السياسة وأهل القلم

(١٩٢٩ - ١٩٥١)

نجيب الريّس

الأعمال المختارة ٩



مئوية نجيب الريّس (١٨٩٨-١٩٥٢)



رياض الريّس للكتب والنشر



الصلب

■ لم يكن نجيب الريّس يعمل في الصحافة متكسّباً، ولا كان يصدر جريدته مرتزقاً، وإنما كانت له رسالة يريد أداءها، وكانت نفسيته نفسية الزعيم أكثر منها نفسية الصحافي. ومن هنا كان العنف طابعاً لمقالاته، والصلابة صفة لآرائه، والعناد ركيزة لجهاده في قلمه ولسانه.□

عبدالرحمن أبو قوس

صحافي من سورية وصاحب جريدة «الوطن» الحلبية
حلب - ١٩٥٢

الجسر

■ كان نجيب الريّس فتى وطنياً، جريء القلب، ذكي الفؤاد، وهب وطنه قصارى جهده وصحته وراحته، وأطيب أيام شبابه، وجعل من جسمه جسراً تعبر عليه البلاد إلى أمانيها، فعبر عليه من هم أقل منه تضحية واخلاصاً إلى المناصب والوزارات والثروات.□

حسين الشعباني

صحافي من سورية وصاحب جريدة «الحوادث» الحلبية
حلب - ١٩٥٥

المرادف

■ فإذا سجل التاريخ ذكريات الثورة السورية في جبل الدروز خاصة، والثورات العربية عامة، من بدايتها، فليس هنالك أثر من آثارها الكتابية في الصحف أحق بالذكر من نجيب الريّس صاحب «القبس». تلك المقالات التي كان يعبر فيها عن شعور الأمة وعقيدتها في طلب الحياة الحرة المستقلة. حتى أصبح اسم نجيب الريّس مرادفاً لكل حركة وطنية تستهدف التحرر من قيود الاستعمار.

نعمان حرب

صحافي - صاحب جريدة «الجبل» السورية
السويداء - ١٩٨٧

صورة الغلاف: نجيب الريّس
بغداد ـ ١٩٣٣

نجيب الريس

أهل السياسة وأهل القلم

(١٩٢٩ - ١٩٥١)

نجيب الريّس

الأعمال المختارة ٩

أهل السياسة وأهل القلم

(١٩٢٩ - ١٩٥١)

مئوية نجيب الريّس

(١٨٩٨-١٩٥٢)



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS - BEIRUT
لندن - قبرص - بيروت

NAJIB EL-RAYYES
SELLECTED WORKS

Volume 9
Politicians and
Writers
1929-1951

First Published in the United Kingdom in 1994

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol
LEBANON: P.O.Box: 113-5796 - Beirut

British Library Cataloguing in Publication data
El-Rayyes, Najib
Sellected Works
Politicians and Writers
I. Title
892' . 78' 0508

ISBN for the complete collection of 10 volumes
1-86984-467-X

ISBN for this volume 1-85513-191-9

Vol 1- ISBN 1-85513-151-X
Vol 2- ISBN 1-85513-156-0
Vol 3- ISBN 1-85513-166-8
Vol 4- ISBN 1-85513-161-7
Vol 5- ISBN 1-85513-171-4
Vol 6- ISBN 1-85513-176-5
Vol 7- ISBN 1-85513-181-1
Vol 8- ISBN 1-85513-186-2
Vol 10- ISBN 1-85513-196-X

الطبعة الاولى: كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤

اختارها وأعدّها:

زكريا تامر

قدّم لها وعلّق حواشيها:

جوزيف الياس

محتويات

مقدمة

الوفاء للصحب والرفاق

هـذا جـزء آخر من أعمال نجيب الـريّس، وهو جـزء لا يقلّ غنىً أو أهميّة تاريخية، ولا رهافة وشفافيـة عمّا عـداه من أجزاء. وأغنى مـا فيه أنه تناول عدداً غـير قليل من القـادة ورجالات السيـاسة، الـذين بـاتوا جميعـاً في ذمّة اللـه وفي ذاكرة التـاريخ، كمـا تناول نفـراً من الأدباء والصحافيـين والعسكريـين والمجاهـدين القدامى، فضـلاً عن أشخاص لم يكن لهم شأن يُذكر في السيـاسة أو حتى في النفـع العامّ. ومعظم هؤلاء الأعلام من السوريين، وأقلّهم من العرب، وأنـدرهم من الأجانب، أمّا السـوريوّن فمنهم أركـان الكتلة الـوطنية أوّلاً، وبعض الوطنيّين والسياسيّين المستقلّين ثانياً.

وكـلام نجيـب الـريّس في مقـالاته عـلى هؤلاء الأعـلام جميعـاً ليس تعـريفاً مـوجزاً، وليس من نـوع السِـيَر أو التـراجم، بـل هـو كـلام مستفيض مسهب، قد يقتصر على مقالة واحدة، وقد يتعدّاها إلى أكثر. وفي كلتـا الحالـين، يجمع الكـاتب بين المـادّة التاريخيـة والتشـويق الصحفي واللفتة الوجـدانيّة الحميمـة. ولا تعجب إذا رأيت الريّس يخصّ بعض الأجانب بمقالة أو أكثر، فبعضها في ذكرى وفاء كمقالاته في «لـورانس العـرب» والجنـرال سبـيرس، وبعضهـا الآخـر يعكس ذكريات مُرّة وأليمة كمقالته في الجنرال غورو. ولا تدهش إذا ما رأيت نجيب الـريّس يخصّ الملك عبـد العزيـز آل سعود بستٍ من مقـالاته، وهو ما لم ينله سياسيّ أو زعيم سوريّ أيّاً كـان. فقد رأى الكـاتب في

الملك عبد العزيز مؤسّس مملكة، وباني نهضة، وحلماً عربياً كبيراً، وأملاً مرتجى لبناء مملكة شاسعة تقف في وجه الغزاة والطامعين. ولهذا الموقف ما يسوّغه لدى الكاتب، فالعربية السعودية أول دولة عربية مستقلّة في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك يوم كانت الأقطار العربية الأخرى أسيرة احتلال ولو في صورة انتداب، ونهباً بين الفرنسيين والإنكليز.

ويدهشك أن ترى نجيب الريّس يمنح الملك عبد العزيز الكثير الكثير على حساب الشريف حسين، فيبارك سقوط الحجاز سنة ١٩٢٤، ويكاد يبارك اجتياح اليمن لإسقاط الإمام يحيى، معلّلاً ذلك بقيام المملكة العربية القويّة، التي تعدّ في حينه ما يقرب من عشرة ملايين نسمة أو أكثر، والتي تصلح لأن تكون نواة الدولة العربية الواحدة. وحين يأتي دور الكتابة عن الشريف حسين، ولا سيّما وقت مماته (سنة ١٩٣١)، ترى نجيب الريّس يحتفل كثيراً بالسدرة الهاشمية، ويمتدح صاحب الصوت الأول في الثورة العربية الكبرى، ويدعوه «سيّد العرب»، كما يثني على ملك أبنائه من بعده. وهذا يقودك تلقائياً إلى اكتشاف بعض التناقض في الموقف من الأسرتين السعودية والهاشمية؛ فأنّى للعاطفة أن تخفى والقلب سيّد المواقف؟ فها إنّ مرور الملك فيصل بعمّان (حزيران ١٩٣٣)، ولقاءه نفراً من رفاق الدرب القدامى من المناضلين السوريين، يهزّ مشاعر نجيب الريّس ويغمره بحنين إلى الماضي؛ وها هو نعي فيصل (تشرين الأول ١٩٣٣) في دمشق التي لم تنم خمس ليال، ويُتم «الفياصل» الذين حملوا اسم فيصل تيمّناً بفيصل الأوّل، يجعل قلب نجيب الريّس يقطر دماً، وقلمه يستقي من مداد هذا القلب. وكذا قل في مرور الفتى فيصل الثاني بدمشق وهو في الطريق إلى أوروبا، وفي ذكرى بطل ميسلون الشهيد يوسف العظمة، ولهذه الذكرى قدسيّتها المميّزة وشميمها الطيّب، وليوسف العظمة إكبار خاصّ ومنزلة لا يُنازَع عليها في قلب نجيب الريّس. فحسبُ هذا أنّه كان أوّل من طالب بتشييد ضريح الشهيد العظمة في ميسلون مفتتحاً حملة التبرع لذلك (١٩٣٢/٧/٢٥)، وكان من أوائل المطالبين في عهد الاستقلال بإقامة تمثال له في دمشق (١٩٥١/٧/٢٦).

ومن المحطّات الحيّة في مقالات نجيب الريّس، ذكريات أرواد ومن كان معه في أرواد، ولهذه الجزيرة ذكريات حلوة ومرّة، وأحاديث وجدانية حميمة، فنزلاؤها أسود وراء القضبان، ينتظرون كلّ يوم بريد الشام، فبعض يبكي (فوزي الغزّي)، وبعض يؤاسي ويبلسم

(نجيب الريّس)، وبعض آخر (خالد الخطيب) يضرب على العود مردّداً قول أبي فراس:

وقال أصيحابي: الفرار أو الردى فقلت: هما أمران أحلاهما مرُّ

وما أمضّ الذكرى وأكثر الغصص في نفس نجيب الريّس، حين كان يرى صحبه في أرواد يهوون واحداً بعد الآخر، وفي مقدّمهم الغزّي والخطيب.

ربّما كنت تنتظر من نجيب الريّس مقالات في شخصيات أخرى، كهاشم الأتاسي وشكري القوّتلي مثلاً. فالأوّل ركن من أركان الكتلة الوطنية والأب الروحيّ لحزب الشعب المنشقّ عن الكتلة سنة ١٩٤٧، والثاني عضو بارز في الكتلة الوطنية والأب الروحيّ للحزب الوطني وريث الكتلة سنة ١٩٤٧، وإن كان لم يلتزم نظامه ولم ينخرط رسمياً في صفوفه بحكم موقعه في سدّة الرئاسة. لكنْ، متى درسنا الظروف المحيطة بأعلام نجيب الريّس وأسباب كتابة كلّ مقالة، عذرنا الرجل لأنّ الأتاسي والقوّتلي كانا في موقع القيادة والمسؤوليّة، ولا سيّما الثاني منهما، فضلاً عن أنّهما كانا في عداد الأحياء حتى آخر أيام نجيب الريّس، وحتى آخر مقالة كتب.

أنت تقع في هذا الجزء على أربع وثمانين مقالة افتتاحية، كتبها نجيب الريّس بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٥١، وتناول فيها ستّين شخصيّة جُعِلت الصدارة بينها لشخصيّة الرسول محمّد. وهي مقالات غنيّة بمادّتها ومعلوماتها التاريخية، شائقة بأسلوبها الصحفي الرشيق. وكما هي عادة الريّس في معظم مقالاته، تراه يستشهد بالشعر أحياناً كثيرة، ويختم العديد من افتتاحياته ببيت شعري غالباً ما كان لأمير الشعراء أحمد شوقي.

قد لا تكون مع نجيب الريّس في كلّ ما كتب وقال في شخصياته هذه، لكنْ ليس لك إلاّ أن تعجب بما قال وكتب، وإذا كانت مقالاته لم تخلُ أحياناً من مبالغة أو مجاملة، فالطابع الغالب عليها يبقى الصدق والأصالة والوفاء للصحب ورفقاء درب النضال.

١

محمد رسول الله
عظمة الاشخاص

لا يحتفل المسلمون بيوم النبوة فقط، ولا يحتفلون بيوم الإسلام وحده، ولكنهم يحتفلون قبل كل شيء بمولد الرجل الذي صار نبياً وجاء بالإسلام، ويعظمون الشخصية الفذة التي نبتت من قلب الصحراء فخلعت عليها نوراً من الإيمان، وعظمة من النبوة، وقوة من الإسلام.

فشخصية «محمد» هي التي يمجدها المسلمون في هذه الدنيا الواسعة لأنها أوجدت ديناً أزال الظلم، وحطّم الاستعباد، وساوى بين الناس.

لقد كان العرب في الجاهلية محتاجين إلى دين، وإلى قانون، وإلى سيد. أما الدين فقد ردّهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله. وأما القانون فقد أزال الظلم من بينهم، فأخذ للضعيف حقّه من القوي. وأما السيّد فقد كان صاحب هذا الدين وهذا القانون، فلولا شخصية «محمد»، ولولا الصفات التي كان يتمتع بها لما استطاع أن يضطلع بعبء النبوة، ولولا قوة هذه الشخصية لما وجد الإسلام، ولما عاش في وسط محافظ مثل وسط قريش كله تقاليد وزعامات ومراتب.

إن شخصية النبي هي التي أوجدت الإسلام، وهي التي غذته طوال

حياتها حتى نما وحتى صار عقيدة وإيماناً، ولكن المسلمين ما كانوا يتوقعون أن تموت هذه الشخصية، فلما ماتت صعقوا وتزعزع إيمانهم، فبرزت من بينهم شخصية أخرى وهبها الله من قوة الإيمان وصلابة العقيدة، وعظمة النفس، ما جعل صاحبها قادراً على حمل العبء الذي تركه صاحب الدين الأول، وأهلاً لتسلم هذا الميراث الضخم الذي ألقي بين يديه، فوقف «أبو بكر» وقفته المشهورة وردّ الناس إلى دينهم وأعادهم إلى صوابهم، فكان الخليفة للنبي، وكان السيد من بعده، وكان الحاكم الوازع للمسلمين. ولكن الردة انتشرت في أطراف الجزيرة، فأُعلنت الثورة على الدين، وادّعى النبوة فريق من زعماء القبائل، وأرسلوا يساومون أبا بكر على إلغاء بعض أركان من الدين، فقالوا: نصلي ولا نصوم، ونشرب الخمر ولا ندفع الزكاة، فقال أبو بكر كلمته الخالدة: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه رسول الله لحاربتهم عليه»، ثم ضرب الردة في وجهها حتى قضى عليها، وسيّر الجيش إلى زعمائها حتى أفناهم، فإذا بالإسلام يعود أقوى مما كان، وإذا بالمسلمين يدركون أن الردة وراءها القتل.

هذه هي الشخصية الثانية في الإسلام من بعد النبي، فمحمد أوجد الإسلام بشخصه وغذّاه طوال حياته، وأبو بكر حمى هذا الدين، وزاد في ميراث النبي وفي ثروة الدولة الإسلامية حتى سلمها إلى عمر ابن الخطاب منيعة الجانب، قوية الأنصار، تخفق راياتها على أقاصي بلاد العرب.

يقال إن الناس يكرمون المبادىء لا الأشخاص، فإذا استقبلوا قائداً أو زعيماً أو إذا احتفلوا بموت رجل عظيم فإنما هم يكرمون المبادىء،التي يحملها هؤلاء في حياتهم لا أشخاصهم وحدها، ولكن الحقيقة أن المبادىء جزء من الأشخاص، ولولا الأشخاص لما كانت المبادىء لأن الأشخاص هم الذين يوجدون المبادىء، ولن يعيش مبدأ في الدنيا إذا كان لا يوجد وراءه شخص يؤمن به ويحميه ويستميت دونه. ولولا شخصية النبي ولولا إيمانه برسالته لما استطاع أن يتحمل إرهاق قريش، ولما استطاع أن يصبر على أذاهم له وعلى سخريتهم به وعلى ظلمهم أصحابه. ولولا أبو بكر ولولا هذه الشخصية القوية لما عاش الإسلام يوماً واحداً من بعد النبي، ولكن شخص أبي بكر وحده وإيمانه القوي بعظمة المبدأ الذي تركه له

النبي، حمى الإسلام وصانه من الردة وقواه من الضعف.

هذه هي عظمة الأشخاص التي تتجلى في الساعات الحاسمة، هذه هي قوة الرجال الذين يوجدون المبادىء ويحمونها ويسوقون الناس إلى الإيمان طوعاً أو كرهاً. فالأنبياء في رسالاتهم الدينية والزعماء في رسالاتهم الوطنية، والقادة في ثوراتهم التحريرية كلهم سواء في قوة الشخصية وفي عظمتها.

فإذا احتفل المسلمون بمولد النبي فإنما يحتفلون بمولد الشخص الذي أوجد لهم هذا الدين والذي دعا الناس إليه طوعاً ثم حاربهم من أجل الدخول فيه كرهاً، فاستتبّ الإسلام، ونمت مبادئه بفضل قوة الشخص وعظمته، فالذين يقولون إن الأمم تكرِّم المبادىء لا الأشخاص يظلمون الأشخاص والمبادىء معاً لأننا إذا لم نعترف بفضل الأشخاص الذين أوجدوا لنا هذه المبادىء، نكون بعيدين جداً عن الوفاء.

فإلى اليوم الذي ولد فيه الرجل العظيم والنبي الكريم، وإلى الشخص الذي أوجد في هذه الدنيا، ديناً وقانوناً ودولة وعدلاً، إلى الشخص وإلى المبدأ، إلى النبي والنبوة معاً، يرفع المسلمون إجلالهم وينحنون أمام هذه الذكرى وأمام صاحبها.

١٩٣٧/٥/٢٣

٢

فوزي الغزي
سورية الخاسرة

ماذا نكتب وماذا تكتبون؟

هاتان الكلمتان كانتا وحدهما أمس وأول أمس سؤالاً وجواباً، فالكتّاب الذين أوقف هول النكبة أقلامهم حتى عن كتابة ورقة النعي كانوا يتساءلون ماذا نكتب؟ والسامعون يجيبون: ماذا تكتبون؟

اللهم لقد عجز السائل والمجيب وغدونا لا نملك من السؤال والجواب غير الدمع، فنحن في هذا الموقف كما يقول الشاعر:

فاسألنْها واجعل بكاك جواباً   تجد الدمع سائلاً ومجيبا

ليت الصحف لم توجد فتنعى اليوم إلى قرائها من كانت بالأمس تفيض عليهم من آيات علمه وذكائه وإخلاصه نوراً لا ينطفىء وشعاعاً لا ينقطع وقبساً كانوا يجدون عليه الهدى، بل ليت نعي فوزي الغزي لم يكن على الورق إذن لكانت الدموع وحدها الناعي، ولكانت كل عين تحمل قسطها من هذا النبأ المريع، ولكن واأسفاه فالصحف الصادرة اليوم هي نذير الفاجعة ومنعي السعادة، ونحن بين هذا وذاك المفجوعون المصابون.

مات فوزي الغزي بل مات القائد العام الذي قاد هذه الأمة وقاد قضيتها إلى حيث تركهما معاً: حقوقاً مصونة لم يعبث بها عابث، ولم

ينتقص من أطرافها منتقص، فالحق ظل على ضعف أهله لم يتنازلوا عنه لقوي.

قال واحد من الناس لزميل من زملائه: لقد خسرت الكتلة الوطنية رجلها الأوحد وحركتها الدائمة، فأجابه قائلاً: الكتلة الوطنية لم تخسر ودمشق لم تفجع، ولكن سورية التاعسة هي التي خسرت وهي التي فجعت وهي التي نكبت. ففوزي الغزي ما كان رجل الكتلة وفخرها وحدها، ولكنه كان رجل سورية الذي لا يعوض وفخرها الذي رفعت به رأسها تباهي به الشرق العربي من القنال إلى الخليج.

ولكن القدر الذي لا يرحم أبى أن يعفّ عن هذه الأمة، فسلبها منال آمالها ومحط رجالها، وانتزع منها فوزي بين سمعها وبصرها، تنظر إليه في موكب الموت، فلا تستطيع أن تعود به إلى مواكب الحياة والمجد التي عقدت له ألويتها فسار تحتها إلى الأمام، لم يلق بها مرة واحدة بل حماها من السقوط، فما كان يخرج من ظفر حتى يمشي إلى ظفر. وما استطاعت كهوف أرواد المظلمة وصحاري الحسجة المحرقة وثلوج لبنان المدنقة، ما استطاعت هذه المنافي والسجون أن تحمله ساعة واحدة على أن يسمي الحقّ بغير اسمه أو أن يقبل هوادة في مطالب وطنه، بل ما استطاع جميع ما نزل به من تغريب وسجن وفراق وطن واهل أن يلين من تلك القناة الصلبة أو يضعف من هاتيك العزيمة القوية. ولكن شيئاً واحداً فقط استطاع أن يظفر على فوزي وعلى عزيمته وقوته وعلمه: هو الموت.

١٩٢٩/٧/٨

هوامش

■ **فوزي الغزّي** (؟ ـ ١٩٢٩): حقوقي وسياسي سوريّ، وأحد زعماء الكتلة الوطنية. ولد في دمشق وتخرّج من المعهد الإداري في الآستانة. علّم في معهد الحقوق بدمشق، ثم انتخب نائباً فرئيساً للجمعية التأسيسية. توفّي في دمشق.

■ **الكتلة الوطنية**: يعني بها الكتلة الوطنية في سورية، وقد أنشأتها سنة ١٩٢٨ نخبة من الوطنيين ورجالات السياسة كهاشم الأتاسي وسعد الله الجابري وفارس الخوري وابراهيم هنانو وشكري القوتلي. أبرز إنجازاتها توقيع المعاهدة سنة ١٩٣٦. استمرت حتى الاستقلال، وانقسمت سنة ١٩٤٧ إلى حزبين هما «الحزب الوطني» و«حزب الشعب».

■ **أرواد**: جزيرة في المياه الاقليمية السورية قبالة طرطوس. كانت معتقلاً لبعض السياسيين السوريين إبّان عهد الانتداب الفرنسي.

■ **الحسجة**: أو الحسكة، مدينة في شمال شرق سورية، نُفي إليها بعض الوطنيين في عهد الانتداب الفرنسي.

٣

فوزي الغزي
موكب الوطنية الأكبر

إذا كانت المناسبات التي تعرض للشعوب طبيعية في بعض الأحيان ليتخذوا منها وسيلة ذات مغزى يعلنون فيها مبدأ من المبادىء أو يؤيدون فكرة من الفِكر، فإن بعض الجماعات الحية تخلق المناسبات خلقاً وتبتكر الحوادث ابتكاراً للإعراب عن مبادئها والمطالبة بحقوقها. وإذا كانت تختلف ظروف هذه المناسبات بالنسبة لأسبابها ودواعيها، فلا ريب في أن الموت أعظم سبب يجمع في رهبته وعظمته بين شعور الجماعات، فيوحدها على كلمة الحق مهما كان دون الحق من قوى غلّابة تحول بينه وبين أهله.

فليسمع إذن هؤلاء الذين أبطرتهم نشوة الظفر على الشعوب الضعيفة والذين ملأت القوة نفوسهم غروراً، ليسمعوا نشيج الصدور وليشهدوا سيول الدموع تنهمر من عيون هذا الشعب حزناً على رمز من رموز الحق المغصوب وتأييداً لضحية من ضحايا الوطن المفجوع بحريته والمصاب باستقلاله ثم بالذين كانوا يقودونه إلى مواطن السيادة.

لِمَ احتشدت دمشق يوم السبت في طريق واحد من المدينة؟ ولِمَ ألّفت هذا الموكب الذي لم يسبق لها أن ألفت مثله منذ وجدت فكرة الاستقلال وبعثت وطنية الشعوب المحكومة؟ ولِمَ جاءت وفود البلاد

تنضم إلى ذلك الموكب الهائج كالبحر؟ ولِمَ كان نعش الفقيد أمنية كل عين أن تنظر إليه وبغية كل يد أن تمس أطرافه؟ ألأن من يضمه النعش كان سليلي بيت من بيوتات المجد أم لأن فوزي الغزي كان عالماً وخطيباً فقط؟

لقد رأينا سليلي بيوتات المجد يموتون، وشهدنا العلماء يحملون في النعوش إلى القبور، ولكننا لم نشهد ما شهدناه في موكب فوزي الغزي.

ليس هناك سوى شيء واحد ينطق به يوم السبت: هو إجماع سورية على تأييد المبدأ الذي مات فقيدها عليه.

مات واضع الدستور، فليحيَ الدستور.

هذه الكلمات وحدها كانت أروع ما في الموكب من عظمة وجلال، وهذه وحدها كانت هدف الأبصار، فالشعب ما كان يبكي في فقيده العلم، ولكنه كان يبكي ما أنتجه هذا العلم. وكان يحزن على ما في ذلك العالم من مبدأ، فكان فوزي الغزي وعلمه وثمرة علمه ومبدأه، كانت هذه كلها عبارة عن شيء واحد اسمه «الاستقلال». فالاستقلال هو الذي احتفل به الشعب، والسيادة هي التي جاءت الجماهير تكرمها، والدستور هو الذي كان يطالب به في ظل ذلك العلم الذي خفق على نعش بطل الدستور.

قال زميل من الصحفيين اللبنانيين: ليست هذه جنازة بل هذه «ثورة شعب». وقال إفرنسي: هذا «استفتاء شعبي». فالشعب إذن كان يوم السبت يقول كلمته، لا بل جاء يؤيد الكلمة التي قالها في ٢٤ نيسان ١٩٢٨ يوم رفع فوزي الغزي وإخوانه إلى مقاعد النيابة، وأتى يطوف حول الراية التي جللت النعش ليؤيد كلمة الوطن التي سجلت في قاعة الجمعية التأسيسية يوم ١١ آب ١٩٢٨، وهذا الشعب قد اجتمع أصيل يوم ٦ تموز ١٩٢٩ يصوّت مرة ثانية للدستور كما وضع، فهل يسمع أولئك الذين زعموا أن الشعب السوري اعتور نفسه الفتور عن المطالبة بالدستور، أن يوم فوزي الغزي كان استفتاءً شعبياً مباشراً؟

لتعطل القوة الدستور، ولتتخطّف المنايا الذين وضعوا الدستور واحداً بعد واحد كما تخطّفت الثورة إخوانهم سيداً بعد سيد وشاباً

بعـد كهل، وليعتقـد رجال فـرنسا مـا شاؤوا أن يعتقـدوا من عـدم الكفاءة وفقر الثورة، لكن الشيء الذي لا يستطيعـون نكرانـه هو أن مأتم فوزي الغـزي كان استفتـاءً طبيعياً في سبيـل الاستقلال، وأن يوم الموت هو أعظم أيام الشعوب صراحة وأصدقها بياناً.

١٩٢٩/٧/٩

هوامش

■ **الدستور**: وضعت مسوّدة الدستور السوري في صيف عام ١٩٢٨.

■ **٢٤ نيسان/ ابريل ١٩٢٨**: إشارة الى موعد انتخابات الجمعية التأسيسية.

■ **١١ آب/ أغسطس ١٩٢٨**: ردّ المفوّض السامي مشروع الدستور الى الجمعية التأسيسية طالباً حذف ستّ من موادّه، فرفضت الجمعية ذلك في ١١ آب/ أغسطس ١٩٢٨.

■ **٦ تموز/ يوليو ١٩٢٩**: يوم دفن فوزي الغزّي.

٤

فوزي الغزي
يوم في أرواد
ويوم في داريا الصغرى!

أحاول أن أتناسى في هذا اليوم الذي يطلع صباحه على دمشق وسكانها وهم يتطلعون إلى محكمة الجنايات حيث يحاكم قتلة الفقيد الشهيد فوزي الغزي ـ هذا الصباح الذي تستيقظ فيه الجماهير المحزونة، على وقع خطى الجناية الفاجعة وجناتها القساة، ويهبّون على أمضّ ذكرى وأوجع مأساة ـ على ذكرى الدم الزكي المسفوح ـ دم فوزي الغزي، وعلى نبرات صوت فوزي التي ألفتها آذانهم، فاستهوت قلوبهم شوقاً وإعجاباً به وحسرات عليه.. أحاول أن أنسى في هذا الصباح أن فوزي مات، وأنه مات قتيلاً بالسم، تجرّعه من يد المرأة التي أحبها ووثق بها، فوفى لها وفاء الزوج الذي يرى السعادة والهناء وجميع ما في الحياة من ملذات ونعيم، في حب زوجة، وفي البرّ بها والوفاء لها! نعم أحاول أن أنسى فوزي قتيلاً بعد أن رأته عيناي بعد أن فارق الحياة بتسعين دقيقة يغمض الموت عينيه اللتين كانتا تبعثان في هذه الدنيا نور العبقرية والكفاح والقوة، وهيهات لهذه العين أن تنسى ذلك المشهد، وما تعودت أن تقع من فوزي إلاّ على وجه مشرق وابتسامة عذبة كانت عزاء المحزونين وسلوى الحائرين، ولكنها وقعت ـ وا لوعتاه ـ عليه مسجى في الثياب التي أرادوها له كفناً وفي البيت الذي أراده هو للصحة والحياة، فأبوا عليه إلا أن يكون قبراً سحيقاً، بعيداً عن كل

وسيلة من وسائل الإسعاف! ولنتكلم عن ذكرى من ذكريات فوزي. وما أردت مجرد الذكرى، ولكنني أردت أن أقصّ ما شهدته بعيني رأسي، لأقابله بمشهد آخر كان من سوء حظي أن شهدته أيضاً، ولأقول لهؤلاء الذين لم يتورعوا عن اتهامي بالتهويش على الزوجة القاتلة، إنني لست من الذين يقدمون على الطعن بالقضاة والحط من كرامتهم والشك في شرف ضمائرهم، فأعتقد أن مقالة تكتب أو رأياً يلقى حول هذه الجناية الفاجعة يؤثر في أعضاء محكمة الجناية، فيحولهم عن التبرئة إلى التجريم أو بالعكس لأن مجرد هذا الادعاء إنما هو طعن في القضاة وامتهان لعقولهم وشك في صفاء سرائرهم وصحة وجداناتهم، فلا مقالات «القبس» في وصف الجريمة والتعليق عليها والاعتقاد بأن الزوجة قد ناولت السم لفوزي هادئة مطمئنة وهي تعرف أنه سمّ يقتل كما تعرف أن الماء يروي من الظمأ، ولا دفاع أولئك الذين يسمون أنفسهم «الأنصار» الصادقين... ولا مقالاتهم في شتم «القبس» ومحرري «القبس»، ودفاعهم عن الجريمة والخيانة وعن الذين ارتكبوهما عمداً وقولهم: إن القاتلة بريئة من القتل لأنها لم تتآمر مع عشيقها على قتل زوجها بالسم وإنما على قتله بواسطة مادة لا تميت في ثلاثين دقيقة، بل تزيد في الإسهال... أي أن زوجته تقول أمام المحكمة إنَّ زوجها مصاب بالإسهال الشديد وتعرف أنه ضعيف الأمعاء، سيىء المعدة، تناوله مادة تقوي فيه هذا المرض المنهك بينما تعلم أنه يتداوى بمادة تقطع الإسهال. إن هذه بريئة لأنها لم ترد قتله خلال ثلاثين دقيقة بل خلال ثلاثة أيام على الأقل، لأن المصابين بالإسهال من نوع «الدرنتريا» إذا أعطوا مادة مسهّلة هيهات أن يظلوا ثلاثة أيام في قيد الحياة. إن اعتراف الزوجة بإعطائها هذه المادة لزوجها المريض بالإسهال لتضاعف في مرضه وإعلاله وهي ليست من النساء الجاهلات، بل هي بنعمة الله من الذكيات الفهيمات.. إن هذا الاعتراف في رأي «الأنصار» دليل البراءة.. وعندهم دليل آخر على براءتها نسي المحامي عنها أن يقوله في دفاعه، وهذا الدليل يقدمونه للمحكمة ويأمرون قضاتها أن يحلّوه محله وأن يعملوا به!! ثم تعالوا واسمعوا يا قضاة ويا محامون ويا أصحاب الضمائر ويا أصدقاء الفقيد الشهيد.. اسمعوا هذا الدليل وأبعدوا أيديكم عن أعناقكم خشية أن تشدوا عليها. هذا الدليل هو: «إن فوزي كان يحبها، وإنه يعفو عنها لأنه يحبها فيجب أن يفتح لها باب السجن!».

فلا مقالاتنا إذن في الاعتقاد بأن الزوجة قاتلة عمداً وعن سابق تصور وتصميم ومؤامرة ودرس وتفكير، ولا مقالات «الأنصار» في التبرئة وفي الدفاع عن خيانتها وجريمتها، ليس شيء من هذا ليؤثر في ضمائر القضاة، فهم والحمد لله مفخرة من مفاخر القضاة في كفاءتهم وقوة عقولهم وشرف ضمائرهم، ولكننا نكتب لنطلع الناس على إخلاص فوزي الغزي لمن لم تخلص له.

في أوائل شهر أيلول من عام ١٩٢٥، ونحن معتقلون في أرواد، وفي غرف قلعتها، ودرجة الحرارة حوالي الأربعين وكل واحد منا مسجون في غرفة منفردة، محظور علينا أن يكلم أحدنا الآخر. وكان من حسن طالعي أن كانت غرفتي ملاصقة لغرفة الفقيد الشهيد، وكان لكل غرفة شباك بجانب الآخر أيضاً. بحيث إذا أطل كلانا من شباك غرفته يرى وجه الآخر ويسمع كلامه.

وكنت أنا والفقيد نقضي أكثر النهار وبعض الليل في سمر دائم وأحاديث غير مملولة وأنّى لحديث فوزي أن يكون مملولاً. فإذا انتصف النهار وأخذت الشمس تميل نحو الغروب جلس كل واحد منا في أرض شباك غرفته وأخرج رأسه من خلال الحديد حيث يلتقي الوجهان متقابلين.

وجاءنا أول بريد وردنا من دمشق جواباً على أول بريد أرسلناه إليها من أرواد، فكان طبيعياً جداً أن يتلقى السجين البعيد عن أهله رسائلهم إليه بكثير من الاهتمام والشوق. ووزع مدير السجن الحاج خليل أفندي بريدنا علينا، وهو رجل حجازي قذفت به الوظيفة من المدينة المنورة أيام الأتراك، فما برح يتنقل من دوائر الشرطة فالدرك فالنفوس فالجمرك في عمان والكرك ودمشق وطرابلس واللاذقية حتى ألقت به ليس في اليم بل على شاطىء اليم... ألقت به في أرواد مديراً لسجن قلعتها، فكان كثير الفخر والتيه بهذه الوظيفة. وكيف لا يكون الحاج خليل أفندي فخوراً بمديرية سجن أرواد ومن جملة «رعاياه» رؤساء وزارات ووزراء سابقون ومحامون وأطباء وصحفيون ونواب؟ أليس أصحاب الدولة والمعالي والسعادة هاشم بك الأتاسي ومظهر باشا رسلان من رؤساء الوزارات، والدكتور عبد الرحمن بك شهبندر وفارس بك الخوري من الوزراء السابقين والفقيد فوزي الغزي وسعد الله بك الجابري والدكتور احسان بك الشريف

وشكري بك الجندي والربيع أفندي المنقاري من النواب، وجميل بك مردم وسعيد بك الحكيم، والدكتور خالد بك الخطيب وغيرهم من خيرة سورية وعيون رجالها ـ أليس كذلك للحاج خليل أفندي على هؤلاء «الرعايا» سلطة الأمر والنهي بإغلاق الغرف عليهم أو فتحها على الأقل؟!

وهل يهمّ السجين أكثر من فتح الباب وإغلاقه؛ وشيء من الشمس والهواء؟

وزع «حضرة المدير» ـ كما كان يدعوه أحياناً مداعبة الأستاذ فارس بك الخوري ـ علينا البريد، ودفع للفقيد فوزي بك كتاباً لم يكد يتبين خط غلافه حتى أشرق وجهه وأبرقت عيناه، فسحب رأسه من بين قضبان الحديد، وغادر الشباك، وانزوى في ناحية من نواحي الغرفة. وكانت الساعة إذ ذاك الثانية بعد الظهر، وقمت أنا الآخر من مكاني إلى داخل الغرفة، واستغرقت في النوم، فلم أستيقظ إلا بعد الساعة الخامسة. وكانت عادة الفقيد برّد الله ثراه أن يوقظني بواسطة أحد السجناء كل يوم حوالي العصر. وهذا السجين عيّنه لنا مدير السجن ليقوم ببعض حاجاتنا من جلب الماء والطعام، فكان يقف أمام النافذة ويناديني بصوته الجهوري العريض قائلاً: «كلم فوزي بك. إنه في شباكه يدعوك». ولكن فوزي بك رغماً عن مرور ثلاث ساعات ويقظتي من النوم وجلوسي في الشباك كعادتي كل يوم لم أسمع صوته ولم يناديني، فأخرجت رأسي من بين ثنايا قضبان الحديد، وناديت: فوزي بك، مثنى وثلاثَ ورباعَ، فلم يرد عليّ، فناديت أحمد سعيد ـ اسم الخادم السجين ـ قائلاً:

ـ أنائم فوزي بك يا أحمد سعيد؟ أيقظه إذا كان نائماً فقد غابت الشمس.

وذهب أحمد سعيد ينظر إلى فوزي من النافذة. ثم ما لبث أن تراجع وقد اربد وجهه وتدلت شفتاه.

ـ ما بك يا أحمد سعيد؟ وأين فوزي بك؟ هل هو نائم؟

ـ لا. ليس نائماً ولكن..

ـ ماذا؟!

ـ إنه يبكي... وقد كلمته فلم يرد عليّ ولم ينقطع عن البكاء.

ألقى أحمد سعيد هذه الكلمات بلهجة ساذجة، وأقسم أن ذلك الخادم الأمين كاد ينفجر الدمع من عينيه حزناً على بكاء فوزي فوجمت وأنا أسائل نفسي: أترى جاء خبر من دمشق كدّر عليه صفْوه؟! أترى هل مرض أحد من أولاده؟ إن فوزي بك يحب أولاده محبة تقرب من العبادة. كنت أقول هذا في نفسي وأنا متردد في أن أناديه مرة ثانية، فكان احترامي لبكائه وحزنه يمنعني. وفجأة امتد وجه فوزي من خلال حديد الشباك. نعم أشرق ذلك الوجه وقد صيّره البكاء بلون الورد القاني، وأخذ يمرّ يده على عينيه يكفكف من دموعهما الجارية، ثم يمسح على شعره المتدلي على تلك الجبهة المنيرة ويطرق بنظرات ساجية وديعة إلى الأرض، وأنا أنظر إليه لا أجرؤ على سؤاله عن سبب بكائه. وأخيراً وضع طرف عنقه على أحد قضبان الشباك ونظر إليّ نظرة أقسم أنني ما رأيت شباباً ناضجاً أجمل مما رأيت فوزي في تلك الساعة. وقد شجعتني تلك النظرة التي حرمتنا إياها الأيدي الجانية على سؤاله:

– خير إن شاء الله! لِمَ بكاؤك يا فوزي بك؟ هل أحد من الأولاد مريض لا سمح الله؟

– لا.. ليس هناك مرض. الحمد لله ولكن..

وهنا صمت الفقيد صمتة طويلة؛ وأطرق بنظراته إلى الأرض. ومرت دقيقة ثم رفع رأسه وقد فاضت عيناه من الدمع، ولكن ابتسامته العذبة ظلت على حالها، وقال:

– لقد جاءني كتاب من البيت فأثر في نفسي أن زوجتي وحدها، وقد بعدت عنها وعن أولادي. ولقد قرأت هذا الكتاب أكثر من عشرين مرة، فكنت أبكي كلما أعدت قراءته لأنني أتذكر الآن كيف حيل بيني وبينها.

وهنا أفاض رحمه الله واسترسل في شرح حبه وإخلاصه لهذه الزوجة، وكيف أنه منذ أن تزوج بها لم تمل عينه إلى امرأة، ولم تستهوه امرأة، وأقسم – وإنه لصادق في قسمه – أنه سافر إلى باريس عام ١٩٢٢. وكان في نزوة شبابه وعنفوان نفسه وجودة صحته، ومكث فيها ما مكث وعاد إلى دمشق فلم يخن زوجته ولا حاول ولا فكر أن يأتي أمراً لا ترضى به الرابطة الزوجية. ثم قال: إن من يطلب إلى امرأته أن لا تخونه يجب عليه هو أن يكون

كالعذراء. وختم حديثه بتأكيد حبه لزوجته وسعادته بها وهنائه بهذا الحب، ثم سقطت بعد ذلك دمعة من عينه هي أصدق وأنقى وأشرف برهان على صدقه وإخلاصه للحياة الزوجية.

هذا يوم في أرواد، من أيام فوزي. بل هذا مشهد حي من إخلاصه في حب زوجته لن أنساه ما حييت، ولن أنسى هاتيك الدموع التي كانت كل واحدة منها كاللؤلؤة في صفائها ونقاوتها.

ثم كان يوم شهدته في داريا الصغرى في تلك المزرعة النائية، وذلك البيت القائم في وسط الحقول كان يوم شهدت فيه فوزي ممدداً على فراش الموت، قتيلاً بالسم، تدسه إليه من بكى ثلاث ساعات في سجنه لكتاب ورده منها. قتلته بعد أن خانته في الناحية التي أقسم أنه لم يخنها بها.

أين دموعك يا أبا خلدون في أرواد من دموعها في داريا الصغرى؟ أو أين بكاؤك بين قضبان الحديد في تلك الجزيرة النائية وبكاؤها في المحكمة بين حراب الجند ومنصة القضاء؟

سيقول لي الذين يدافعون عنها والذين لا يخجلون من ذكراك الغالية: إنني أهوش عليها وأحرض على قتلها، وإنه من واجبي، إن كنت أميناً لذكراك حافظاً لعهدك، أن أطلب لها البراءة لأنك كنت تحبها، وإنَّ من واجب إخوانك جميعهم برّاً بك بعد موتك أن يمدوا لها يد العناية لتخرج من السجن ولتعود إلى الحرية وتنعم بالحياة، وأنت قتيل سمّها وشهيد خيانتها. ولولا الخيانة لما كانت هناك جناية. ولولا أنها خانتك لما دست لك السم راضية مقتنعة.

لقد طلبت الخلاص منك ففتشتْ عنه في الهرب أولاً، ولكن الهرب تعقبه الفضيحة، ويعقبه حرمانها من مالك لتنفقه على نفسها وعلى عشيقها بسخاء وتبذير. هذا المال الذي كنت تجنيه من أشرف الطرق، من درسك في المعهد الحقوقي، ومن وقوفك في المحاكم مدافعاً عن المتهمين، ومن أملاكك الموروثة. وهي تريد الخلاص منك بموتك أولاً، وباستيلائها على واردات أملاكك ثانياً، ومن غير أن تتعرض لفضيحة تحول بينها وبين عشيقها ثالثاً، ثم طلبت هذا الخلاص بتدبير مؤامرة لاغتيالك بالرصاص أو بالخنجر ـ كما اعترف أحد القتلة بذلك ـ ولكنها خافت ـ وما الذي خافته. خافت أن لا تكون الطعنة قاتلة والرصاصة مميتة فتنجو من الموت فيكشف التحقيق

عن أسرار المؤامـرة. إذن، فأيـة طريقـة هذه التي تؤمن لهـا موتـك وثروتك ومعهمـا بقاء العشيق؟ هي بـالسم! نعم وبالاستـركنين، وفي مكـان بعيد عن الإسعـاف الطبي.. في داريا الصغـرى. وبعد ذلـك يتهموننا إذا بكينـاك يوم المحـاكمة واتخـذنا من منـاسبتها فـرصة لإقامة مناحة عليك هي أقل ما يجب على رفيقـك في الشقاء والهنـاء، وعلى عشيرك في أيام الحريـة وأيام الاضطهـاد أن يفعله.. يتهمـوننا بأننا غير بارين بعهدك وذكراك!

كيف لا يجب على كل بيت أن يكون به مأتم يقام لك في كل منـاسبة، وعلى كل صديق أن ينوح عليك وأنت الرجل الذي لا يعوض والفقيد الذي لا يقبل فيه العزاء؟!

لقد كان فوزي الطرف الذي يؤلف الضحية في هـذه الجنايـة، فغيّبه القبر في ثناياه وطواه في ترابه، فيجب أن يطوي القبر الطرف الثاني، ولكن هؤلاء الوقحين الذين يرقصون على قبر فوزي يـريدون منـا أن نضـع عقولنـا في جيوبهم، وأن نشـاركهم الرقص عـلى قبر ليس من البـرّ بصاحبـه وليس من البرّ بـالأمة التي فقـدته أن تـراق ثمالات الكؤوس على ثراه بل يجب أن يكون محجاً للعلم والوطنية والتضحية ومكارم الأخلاق.

أيها «الأنصار»... الوقحون! يا أنصار الخيـانة والإجـرام، وأنتم في قلّتكم وضآلة عددكم لا تتجاوزون أصابع الرجل الـواحدة ـ إننـا لو كنا خونة لذكرى فوزي، عقـوقين لعهـده لكنا طلبنـا للقاتلـة البراءة لتظل عنواناً حياً للخيانة والإجرام، وليقال دائمـاً: هذه امـرأة فوزي الغزي، وليعيش هؤلاء الأطفال الأبرياء منكسي الـرؤوس، مذلـولين، مقهورين، ينظرون إلى رأس الجريمة والخيانة.. إلى التي فجعتهم في سبيل نزوة نفسها بأب ترتفع به الرؤوس، وتبيض بـاسمه الـوجوه، وتركتهم مهيضي الأجنحة ـ ينظـرون إليها كـأم خانت الأب فقتلتـه، وأية عاطفة هذه ستكون في نفوس الأطفال إذا كبروا ـ ولينظر أعداء فوزي وأنتم من رؤوسهم إلى ذلك العنـوان المخجل، والشبـح المفزع لـيرددوا اسم فوزي كلمـا ذكـرت هـذه القـاتلـة التي حملت اسمـه واحتمت به تسع سنين، ثم تريـدون أن تحمله بعـد ذلك أربعـين أو خمسين عاماً آخرين؟!

يميناً بالله وبذكرى فوزي إن كل محـاولة للإبقاء على واحد من القتلة

وخصوصاً على الزوجة، لا يراد بهـا وجه اللـه ولا العطف على أولاد الفقيد وإنما يراد شيء آخر هو تخليد الخيـانة والجـريمة والإسـاءة إلى ضحيتهما والى نسله من بعده.

لقد شهدنـا يومـين من أيام فـوزي: يومـاً في أرواد ويومـاً في داريا الصغرى، فنريـد يومـاً ثالثـاً يذهب بمـرارة هذين اليـومين.. يـوماً نسميه يوم محكمة الجنايات بل يوم القضاء والضمائر.

١٩٢٩/١٢/١١

هوامش

■ **هاشم الأتاسي (١٨٧٥ ـ ١٩٦٠)**: سياسي سوري من رجالات الاستقلال. رئيس المؤتمر السوري سنة ١٩٢٠، ثم رئيس الجمهورية السورية من سنة ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩، ومن ١٩٥٠ حتى ١٩٥١، وسنة ١٩٥٤. مات في حمص ودفن فيها.

■ **مظهر رسلان**: سياسي سوري من حمص. تعاون مع الحكم العربيّ، وتقلّب في بعض الوظائف. رحل إلى شرق الأردن بعد دخول الفرنسيين، حيث تعاطى السياسة وأصبح رئيساً للحكومة. عاد إلى دمشق وشارك في تأسيس الكتلة الوطنية، ثم انتخب نائباً، وعيّن وزيراً للعدل والمعارف في حكومة حقي العظم.

■ **عبد الرحمن بن صالح الشهبندر (١٨٨٢ ـ ١٩٤٠)**: طبيب وسياسي ومناضل سوري. ولد بدمشق، ودرس في الجامعة الأميركية ببيروت. وزير خارجية سورية في عهد الملك فيصل سنة ١٩٢٠. فرّ إلى مصر حين دخل الفرنسيون سورية، ثم عاد فاعتقل في جزيرة أرواد. شارك في إنشاء حزب الشعب، ثم غادر إلى عمان فالقاهرة. عاد إلى دمشق سنة ١٩٣٧، واغتيل في عيادته بدمشق.

■ **فارس الخوري (١٨٧٧ ـ ١٩٦٢)**: سياسيّ وأديب وحقوقي سوريّ. ولد في الكفير قضاء حاصبيّا، وتعلّم في «المدرسة السورية الكلية الانجيلية» ببيروت. محام ونائب في مجلس «المبعوثان» العثماني، ووزير في العهد الفيصلي. تقلّب في مناصب إداريّة، وانتخب نائباً فرئيساً للمجلس غير مرّة. رأس الحكومة السورية سنة ١٩٤٤، ثم مثّل سورية في الأمم المتحدة. توفّي في دمشق.

■ **سعد الله بن عبد القادر الجابري (١٨٩٢ ـ ١٩٤٧)**: مناضل وسياسي سوري. ولد في حلب وتعلّم بالآستانة، فتخرّج ضابطاً في الجيش التركي. قاوم الانتداب الفرنسي فاعتقل أكثر من مرّة. انتخب نائباً عن حلب، وتولّى رئاسة الوزارة سنة ١٩٤٣، ثم رئاسة المجلس النيابي سنة ١٩٤٥، توفي في حلب ودفن قرب ابراهيم هنانو.

■ **احسان الشريف**: سياسي سوري، ولد في دمشق سنة ١٨٩٥، وتلقّى علومه الثانوية في مدارسها، ثم درس الحقوق في باريس. ضابط في الجيش العثماني، ومحام بعد عودته إلى سورية، ثم سكرتير حزب الشعب الذي أنشىء سنة ١٩٢٤. نفاه الفرنسيون إلى أرواد. انتخب نائباً عن دمشق غير مرّة، ثم عيّن محافظاً فسفيراً. مؤسس الحزب الجمهوري ورئيسه.

■ **شكري الجندي**: سياسي سوري من حمص. شارك في الثورة على الفرنسيين، فاعتُقل وسُجن في أرواد. انتُخب نائباً عن حمص في الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨.

■ **الربيع المنقاري**: سياسي سوري من حلب. شارك في الثورة على الفرنسيين، فاعتُقل وسُجن في أرواد. انتُخب نائباً عن حلب في الجمعية التأسيسيّة سنة ١٩٢٨.

■ **جميل مردم**: ولد في دمشق سنة ١٨٩٤م، وتلقى علومه العالية في فرنسا وسويسرا. قاوم الانتداب واشترك في الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥. نائب في المجلس النيابي السوري، فوزير، فرئيس حكومة أكثر من مرّة. كان من مؤسّسي الكتلة الوطنية سنة ١٩٢٨ والحزب الوطني سنة ١٩٤٧.

■ **خالد بن محمد الخطيب (١٩٠٠ ـ ١٩٣٣)**: طبيب من رجال الثورة الاستقلالية في سورية. ولد في حماه، ودرس الطب في دمشق. ناوأ الاحتلال الفرنسي، فاعتقل في =

هوامش

= سجن أرواد ١٨ شهراً. التحق بالثورة السورية سنة ١٩٢٥، وحكم عليه بالإعدام، ففرّ الى مصر والحجاز وفلسطين، ثم شرق الأردن حيث وافاه الأجل. له ديوان شعر.

■ **داريا الصغرى**: هي مزرعة قرب داريا، وهذه بلدة في غوطة دمشق الجنوبية.

٥

فوزي الغزي
الرجل الذي كافح
ولم يظفر؟

إذا كنا نريد أن يمتاز العهد الوطني الجديد بكفاياته ونزاهته، فإننا نريد أيضاً أن يمتاز بـوفائـه للذين كـافحوا من أجلـه وجاهـدوا في سبيله، ثم ماتوا قبل أن يظفـر الوطن بحـريته ووحـدته. وإذا كـان الوفاء واجباً للأحياء من المجاهدين في سبيل هذا الدور فـإنه أوجب للموتى الذين كانوا روح هذا الدور ومؤسسيه وأبطاله.

لقد رأينا صوراً جميلة من هذا الوفاء تمر أمامنا في مجلس النـواب. وفي الـوزارة معاً، فكـانت تحية المجلس لـروح زعيم العهد الـوطني إبراهيم هنانـو وتحية رئيســه ساعـة انتخابـه لذكـرى هذا الـزعيم أيضاً، وتخصيص الوزارة الدستوريـة في ميزانيـة الدولـة مبلغاً من المال لتشييد ضريحه وتشييد قبة للشهداء في العـاصمة، كـانت هذه كلها عنوان الوفاء الوطني الذي يمتـاز به هـذا الدور الكـريم، ولكن هناك رجلاً كان من أبرز الذين بنوا في أساس حرية الوطن، وكان في مقـدمة الصف الأول بـين الرجـال المختارين، بـل كـان في وقت من الأوقات روح الحركة الوطنية في هذه البلاد وقائداً من ألمع قـوادها، وزعيماً من أبرز زعمائها، هو فوزي الغزي الذي كان رجل الجمعيـة التأسيسية وواضــع دستورهـا، ذلك الـدستور الـذي رفض النواب مرتين أن يقسموا اليمين على غيره؟

هذا هو الرجل الذي كافح ولم يظفر، وجاهد، ولم ينتصر، ولكنه مات في قلب المعركة. وفي وسط الساحة، لم يتخلف ساعة واحدة عن مكانه، حتى لقي وجه ربه في اليوم الذي كانت البلاد في أشد الحاجة إلى حياته.

هذا هو فوزي الغزي الذي مرّ المجلس النيابي بنسيانه بدلاً من ذكراه، وبتجاهله بدلاً من تحيته، وليس من الوفاء للعهد الوطني ومؤسسيه أن ينسى رجل مثل فوزي كان علماً في تاريخ المجالس النيابية، والحياة الدستورية.

لقد مات فوزي الغزي، فكان موته أكبر كارثة وطنية، وكان البكاء عليه يهزّ جبال الوطن وسهوله، والحزن على فقده يغمر النفوس ويملأ القلوب، فما لفوزي اليوم لا تذكره شفة، ولا تذرف عليه دمعة، وقد كان إلى عهد قريب ينادونه بواضع الدستور وفقيد الوطن الغالي؟ مالهذا الميت النائي في «الدحداح» منسي مهمل، وما لقبره في العراء مهجور متهدم؟ لا يزوره صديق ولا يقف عليه رفيق!

رجل وفيّ للوطن، ثم مات، فهل يعقه رجال الوطن إذا مات على غير رأيهم؟! إنه مات وكفى، فهل نكون عليه نحن والموت معاً؟! تخطفه المنية من جهة ويؤلمه الإهمال من جهة ثانية.

لنذكر فوزي الغزي إذن في الأيام التي ظفر بها جهاده وانتصرت فكرته وعلا دستوره على كل ما أرادوه لهذا الدستور من ملاحق وذيول.. لنذكره في الساعات التي كان يريد الحياة من أجلها، ليرى بعينيه أن للجهاد في سبيل الوطن ثمرة الفوز وأن لمرارة الكفاح حلاوة الظفر.

نحن لا نريد أن نتهم النواب الذين نسوا فوزي الغزي بأنهم تعمدوا هذا النسيان، ففيهم أصدقاؤه ومحبوه ورفاق جهاده في الجمعية التأسيسية ولجنة الدستور، ولكنهم نسوه رغماً عنهم وانتهت دورة المجلس النيابي من غير أن يسجلوا له تحية، ويحفظوا له ذكرى، فهل ينساه إخوانه في الوزارة وهم رفاقه في سجن أرواد وفي منفى الحسجة ومعاقل دوما وأميون!

هذا قبره بعيد عن العيون، وها هم أطفاله في حاجة إلى عطف المخلصين لأبيهم، وها هو ابنه خلدون في أزقة دوما وداريا، يدفعون

جميعهم ثمن جناية الأم، ويرزحون تحت ذكرى الفاجعة المزدوجة، فهلا تنقذهم الوزارة من هذه الآلام وتنسيهم بعطفها ما جناه غيرهم عليهم؟

لست أريد أن ألوم الوزراء، ولكني أردت أن أذكِّرهم لأن حبهم لفوزي الغزي وحرقتهم عليه لا تحتاج إلى أكثر من هذا الدور الوطني بالوفاء للذين كانوا أوفياء بعهد الوطن فماتوا قبل أن تحين ساعة الظفر.

١٩٣٧/٧/١

هوامش

■ **ابراهيم هنانو (١٨٦٩ ـ ١٩٣٥)**: أحد كبار المجاهدين السوريين في عهد الانتداب. ولد في كفرحارم، وتعلّم في المدرسة الكلية بالآستانة. اشتغل بالسياسة وكان من مؤسسي الكتلة الوطنية. قاد الثورة في جبل الزاوية سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢. توفّي في حلب.

■ **الدحداح**: مقبرة في وسط دمشق.

■ **دوما وأميون**: بلدتان في جبل لبنان، الأولى في قضاء البترون، والثانية مركز قضاء الكورة.

٦

الملك عبد العزيز بن السعود بداوة مستقلة خير من مدنية مستعبدة

«وإن من نعم الله على هذه البلاد المقدسة ان رفع فيها منار الدعوة إليه وحفظها وصانها من أي تدخل أجنبي بحيث أصبحت حرة مستقلة في داخليتها وخارجيتها وليس لأجنبي فيها أي امتياز على غيره، فكل من دخل هذه البلاد فهو خاضع لا لجبروتنا وقوتنا وإنما هو خاضع لجبروت الشريعة وحدها، أما التجدد الذي يحاول البعض إغراء الناس به بدعوى أنه ينجينا من آلامنا فهو لا يوصلنا إلى الغاية القصوى، إننا لا نبغي هذا التجدد الذي يفقدنا عقيدتنا وديننا.

لقد كنت لا شيء وأصبحت اليوم وقد استوليت على بلاد شاسعة واسعة. إن سبب بلايانا من أنفسنا لا من الأجانب، والله إنني لا أخشى الأجانب بقدر ما أخشى المسلمين».

«من خطاب الملك إبن السعود»

ليسمح لنا دعاة المدنية والتجدد أن نفاجئهم بهذه الفكرة الجديدة، وأن نعلق على هذه الكلمات الكبيرة التي قالها أكبر ملك عربي مستقل، خبر الحوادث، وخاض غمار الانقلابات، ومارس سياسة العرب والأجانب معاً، فخرج من غمارها جميعها بهذا الدرس الذي يلقيه على العرب والمسلمين، بل على هذا الشرق المستعبد.

ويظهر أن هذا الشرق بعد الدرس والتجارب طبعاً لا يستطيع أن ينجو من مطامع الغرب إلا إذا استمسك بماضيه وحافظ على تراثه القديم، وأنه كلما دنا من المدنية والتجدد الكاذبين وخدع بمواعيد الأجانب بعد عن حريته واستقلاله، وحيل بينه وبين نوال حقوقه. وإني لأرجو أن لا يأخذ عليّ إخواني هذا الرأي «الرجعي»، فأنا لا أقصد به أن يبعد الشرق عن التمسك بكل ما هو نافع من علوم واختراعات وجميع وسائل القوة والحضارة. وأحسب ان الملك إبن السعود لا يطلب إلى المسلمين أن يظلوا في جهلهم وخمولهم، ولكنه يريدهم أن يتمسكوا بماضيهم، وأن يتحدوا، وأن لا يكونوا عبيداً وجواسيس للأجانب يعملون لحسابهم ويعاونونهم على إذلال أوطانهم واستعباد أهلها.

لقد أساء بعض الناس فهم المدنية، فراحوا يطلبونها من هذه المظاهر البراقة، وحسبوا أن الدين الإسلامي يحول بينهم وبين الأخذ بهذه الحضارة، في حين أن الإسلام هو الذي ظل يفيض وحده على العالم نيفاً وأحد عشر قرناً قوة وفتحاً ومدنية وعلماً، فما وجد خلفاؤه وملوكه ودوله المختلفة الأسماء والجنسيات ما وجدوا في كتاب الله وسنّة نبيه من عهد الخليفة الثالث إلى آخر ملك من ملوكهم، مانعاً دينياً يمنعهم من اتخاذ الأساطيل وركوب البحر وترجمة علوم اليونان والرومان والفرس ودراسة الرياضيات والطبيعيات والصيدلة وتعلم لغات الأوروبيين. بل إن التاريخ الزاهر في العصور الماضية قبل نهضة أوروبا الحديثة إنما هو التاريخ الإسلامي الذي كان له من القرآن والأحاديث الصحيحة أكبر نصير على ازدهاره وعظمته، فإذا دعا ملك الحجاز ونجد إلى التمسك بكتاب الله وسنّة رسوله فإنما يدعو قبل كل شيء إلى الاتحاد وإلى القوة وإلى العلم، ولكن جلالته لا يريد ولا نريد له نحن أن يكون التجدد الذي يتشدق به بعض الضعفاء المستعبَدين سبباً في بسط نفوذ الأجانب على تلك البقية الباقية من بلاد العرب المستقلة باسم التجدد أو باسم التمدين.

لا يحترم الأجنبي شيئاً مهما ادعى الإنسانية والرحمة سوى القوة. فلتكن جاهلاً جميع العلوم واللغات، تلبس الخيش، وتجلس على الحصير، وتأكل بيدك لا بالشوكة والسكين، وترتدي العباءة والخف بدل «السموكن» و«الصباط»، وتستر رأسك بطربوش أو عقال أو

لتمش حافياً مكشوف الرأس إذا أردت؛ لتكن فيك هذه الصفات جميعها ثم لتكن بعد ذلك قوياً، فإن الأجنبي يحترمك ولا يأنف أن يجالسك بل لا يخطر له يوماً أن يقول لك إنك سوري قذر أو بدوي جاهل لأنه لا يحترم فيك سوى القوة.

وماذا نفع السوريين رقيّهم وعلمهم ودراستهم الحقوق والطب والهندسة واللغات الأجنبية وإلمام أكثر شبابهم ورجالهم بأصول اللبس والأكل وحتى الرقص... ماذا نفعهم هذا كله يوم اصطدم ضعفهم بقوة فرنسا في بعض مواد الدستور التي لا تنص في كل حال على خروج فرنسا أو عدم الاعتراف بها؟ لم ينفعهم العلم والرقي إذن، ولم يوصلهم حقهم المشروع في السيادة القومية إلى التمتع ولو بدستور فيه بعض الحرية وفيه بعض السيادة الداخلية، بل ماذا نفع أنصار التجدد دعوتهم إلى التجدد ولا سيما أصحاب السفور و«البرنيطة»؟

أجل لم ينفع السوريين ولا اللبنانيين ولا المصريين رقيهم وعلمهم وتجددهم بقدر ما نفع النجديين بأسهم وقوتهم، بل ان الحياة البدوية وذلك النظام الشرعي الذي يقول عنه جلالة الملك في خطابه وتمسك القوم بواجبات دينهم هذه وحدها صانت بلادهم من أي تدخل أجنبي بحيث أصبحت حرة مستقلة في داخليتها وخارجيتها ليس لأجنبي فيها امتياز على غيره وإنما هو خاضع للشريعة.

لقد أبى جلالة الملك أن يسمع دعوة أنصار التجدد، لئلا يتخذ هذا التجدد نفسه سلاحاً لإقامة الفتن في بلاد تعيش على الفطرة والشريعة كبلاد نجد والحجاز، كما اتخذ هذا التجدد وحده وسيلة للثورة في بلاد الأفغان ووسيلة لتحطيم عرش ذلك الملك الذي حرر الأفغان من نير بريطانيا بحد سيفه، فانقلب ذلك التجدد على الأفغان المستقلة فوضى وثورة واستعماراً، فقطع إبن السعود الطريق على أوروبا، وأعلن في خطابه سياسته الصريحة أنه لا يريد تجدداً ولا يبغي إصلاحاً إلا مما في القرآن والسنة، وان فيهما كل الإصلاح وكل القوة وجميع العلوم. بل ليس فيهما ما يمنع إبن السعود أن يكون له أسطول ومدافع وجيش ومدارس تعلم كل العلوم الحديثة.

لا تتعب أوروبا نفسها بالدعوة إلى التجدد في الشرق، فهي غير مخلصة في هذه الدعوة، فإنها تدعو إليه ثم تتخذه آلة لإذلاله وإذلال

أهله، وقد ثبت للشرقيين أن القوة هي التي تحترم وحدهـا قبل العلم والفن والأدب، لأن أوروبـا هي نفسها علمت الشرقيـين أن البـداوة القوية هي المحترمة، وأن مـا سوى ذلـك من مدنيـة وحضارة وعلم وفن لا يـوصل الشعب الضعيف إلى حقـه ولو مـلأ العالم فـلاسفـة وحقوقيين ومهندسين ومخترعين. فقد ملك إبن السعـود هذه البـلاد الواسعة المحدودة من العراق والشام واليمن والبحر الأحمـر وخليج فارس بقوته وقوة جيشه لا بقوة العلم والفن والتجدد. وبهذه القـوة وحدها وضع اسمه إلى جانب إسم ملك بريطانيا وامبراطور الهند في معاهدة الندّ للندّ. وها هو هذا الإسم القوي يوضع قبل خمسة عشر يوماً إلى جانب إسم رئيس جمهورية ألمانيا في معاهدة النظير للنظير.

أما بعض المسلمين الذين قال عنهم جلالة الملك إنه يخشاهم أكثر ما يخشى الأجانب، وإنهم هم عيون الأجنبي ومعاوله في جسم الإسـلام والعـرب فإن بـلادنا تـزدحم بهم، ويظهر أننـا سنضطر بعـد الذي رأيناه من حوادث الأفغان ومصر وسورية أن نؤمن حتماً بأن الشرق ولا سيما العرب لا يستطيعون أن يعيشوا مستقلين إلا إذا استردوا ما فقدوه في غمـار هذه المـدنية الأوروبيـة. أما أن يقـال عنهم إنهم همج، وإنهم متأخرون فإن هـذه الهمجية المستقلـة خير لهم وأشرف من هذه المدنية المحتلة الذليلة.

١٩٢٩/٥/٢٩

هوامش

- **عبد العزيز بن سعود (١٨٨٠ ـ ١٩٥٣)**: مؤسس المملكة العربية السعودية. ولد في الرياض. استعاد الرياض من ابن رشيد سنة ١٩٠٢، وانتزع مكة من الشريف حسين سنة ١٩٢٤. استتبّ له الأمر فأسس المملكة سنة ١٩٣٢.

- **الملك الذي حرّر الأفغان من نير بريطانيا**...: لعله يشير الى اعتلاء الملك نادر شاه عرش بلاد الأفغان سنة ١٩٢٩.

الملك عبد العزيز بن السعود
الاحتفال بالدولة العربية المستقلة

شهدت مكة المكرمة أمس يوماً من أيام المجد القديم، وأشرقت عليها شمس اليوم الثامن من شعبان، فاستقبل نورها أعلاماً ورايات أركزت فوق القباب التي انبثق من تحتها ذلك الملك العربي العريض، فضرب بجرانه على بلاد ما كانت لتتذوق طعم الاستقلال القومي لولا تلك العزيمة الصادقة التي أنبتتها صحراء الجزيرة، فمشت إلى النصر كتائب العرب تقودها إليه قلوب ما حسبت إلا لله حساباً ولا عرفت لغيره خشية. وهكذا يأبى الله إلا أن يجعل من هذه الصحراء العربية حيث لا زهر ولا ورد، ولا جنات تجري من تحتها الأنهار، البطولة والأنفة ومقت الاستعباد مهما أحيط بزخارف الترف والرفاه، ومهما أغدق عليه من ألقاب التعظيم المصطنع والاحترام الزائف.

في مثل هذا اليوم ومنذ ست سنين دخل عبد العزيز بن السعود مكة بعد أشهر انقضت في حرب قومية كان وقودها العرب وحدهم، وصفت جدة وبقية السواحل الحجازية لهذا الرجل العربي، وغادرها آخر ملك من الهاشميين، فانطوت بذلك أعلام دولة لم يقدر لها أن تعيش، ولم يكتب للذين تولوا زمام أمورها أن يضطلعوا بأعباء هذا الملك الذي تخلت عنه الدولة العثمانية بعد أن نشرت

أعلامها على أرجاء الحجاز نيفاً وأربعة قرون. وإذا كـان في انطواء صحيفة الهاشميين من الحجاز مأساة قـومية محضـة، فسرعان مـا تـلاشى في نفوس العـرب هذا المضض الـذي تـركـه زوال دولـة آل الحسين، ذلك لأن الذين أنزلوا أعلام هاتيك الدولة لم يكونوا أعـداء العرب، وما كانوا صنائع الأجانب، وإنما كـانوا من صميم العـرب، وإذا كان في زوال التاج عن مفرق الملك الهاشمي نكبة في الشام، فلم تكن هذه النكبة في الحجاز يوم زال التـاج عن مفرق أبيـه، ذلك لأن الذي وضع التاج على رأسه إنما هـو الرجـل العربي الـذي نبت في قلب صحراء نجد، بعـد أن سادهـا وحكم أمراءهـا وشيوخهـا بقوة عـزيمته، وسـاسهم بقوة الشريعـة التي يفهمها من هـذا القـانـون الأبدي الخالد، والذي يأبى على العرب وعلى المسلمـين أن يستكينوا لذل الأجنبي أو يستسلموا لعـار الفاتحـين، ذلك القـانون، بـل ذلك الدستور إنما هو القرآن.

فالنكبة إذن التي كانت في زوال دولة الهاشميين من الحجاز قد حال دون نزولها بالعرب قيام دولة السعوديين. وإذا فقـدت مكة شيخهـا الجليل الذي حمل تلك الشيخوخة أعباء الثورة العـربية عـلى الترك، فقد استقبلت على أثره سيد نجد ومحررهـا، ودّعت عربيـاً ناءت بـه السنون وناء بها، لتستقبل مكانه رجـلاً مشى فوق السنـين، وامتطى غـارب الأيام، لا يحس وهنـاً ولا ضعفاً، ولا يعـرف للتردد اسمـاً.. ذهب الحسين الأول، فجاء من بعده عبد العـزيز الأول. ونحمـد الله أن بـدّل العرب ملـوكاً بملـوك، وأشرافاً بـأشراف، ولم يبدلهم عـرباً بعجم أو أسيـاداً بعبيد. فـإذا احتفلت الحجاز ونجـد والشام بيـوم تتويج عبد العزيز ملكاً على الحجاز ونجد وملحقاتهمـا فإنمـا تحتفل بيوم أعلن فيه استقلال العرب إعلاناً تؤيده قوة رجاله، وتحمل أكبر دول الأرض على الاعتراف به. وإذا احتفلنا نحن السوريين في هـذا اليوم فإنما نحتفل بقوميتنا الأصلية، نحتفل بالعربية مستقلة عزيزة الجانب، متمثلة في شخص رجلهـا الأبر عبـد العزيـز السعود. وإذا بالغنا في هذا الاحتفال واغتبطنا به، فإنما نحن نكرم الدولة العربيـة المستقلة الوحيدة في شبه جزيرة العرب، ونكرم الملك الوحيد المستقل الـذي لم يكن تاجـه من صنع بـاريس ولندن وإنمـا هـو من صنـع الرياض ومكة، فقد لبس عبد العزيـز تاج الملـك بيده وبنفسـه، ولم تلبسه إياه أكفّ طالما ألبست التيجان بعض الرؤوس ثم ما لبثت أن

انتزعتها ساعة أرادت وهي تنتزعها ساعة تريد!

بل نحن إذا كرمنا اليوم الثامن من شعبان، فإنما نكرم فيه يوماً أبت علينا سياسة الأقوياء أن يكون لنا يوم مثله. وإذا لم يقدر لك في وطنك وفي بيت أبيك أن تحتفل بعرس الإستقلال والحرية، فلا بأس أن تحتفل بهما في بيت بني عمك وعند قومك الأقربين.

اليوم يرفع العرب رؤوسهم ويقولون إن لنا وطناً مستقلاً وملكاً سيداً، واليوم يستطيع السوريون أن ينظروا إلى ذلك الوطن المستقل، فيقولون إذا ادلهمّت بهم الخطوب: إن لنا وطناً ثانياً في مقدور ملكه أن يظللنا براياته يوم نفقد الكرامة والحرية في وطننا.

أيتها الحرية الغالية التي تخفق أعلامها في جبال مكة وسهول الرياض..

ويا أيها الاستقلال المقدس الذي تملي إرادتك على المستقلين والمستعبدين على السواء..

ويا أيها الملك الذي كتب له أن يمتع وطن العرب الأول بهما، إننا نحييك جميعاً ونهتف بيومكم الأغر.

١٩٣٠/١/٩

هوامش

■ **الحسين بن علي (١٨٥٦ ـ ١٩٣١)**: شريف مكة والحجاز سنة ١٩٠٨، نشأ في الآستانة. أعلن الثورة العربية سنة ١٩١٦، فطرد الأتراك وأصبح ملك الحجاز. هزمه عبد العزيز بن سعود سنة ١٩٢٤، فترك الحجاز وأقام في نيقوسيا (قبرص). خلفه ابنه علي الذي تنازل عن العرش سنة ١٩٢٥، توفي في عمان ودفن في الحرم الشريف.

■ **نكبة الشام**: الإشارة هنا الى هزيمة فيصل ورحيله عن سوريا سنة ١٩٢٠.

■ **يوم زال التاج عن مفرق أبيه**: كان ذلك سنة ١٩٢٤.

٨

الملك عبد العزيز بن السعود من الرياض الى صنعاء

إذا كـان في ملوك العـرب وأمرائهم رجـل مؤمن باللــه حقّ الإيمان، معتقد بأن الظفـر والإنكسار مشيئـة من مشيئات اللــه ـ فضلاً عن الاستعداد الشخصي ـ فذلك المؤمن هو عبد العزيز بن السعود.

وإذا كان مسلم في بلاد العرب يتخذ القـرآن قانـوناً، وآيـات الكتاب وما فيها برنامجاً سياسياً وحربياً واجتماعياً، له ولجمـاعته وللشعب الذي يحكمه أيضاً فهو ابن السعود وحده، ذلك المؤمن الذي عنـدما فتح أول فتح في نجد، وسار إلى استرداد حق آبائه المضيّع مـع نفر من أهله وخلص أصحابـه لا يتجاوزون العشرين، وقيـل له: إلى أين أنت تقصد مع هؤلاء النفر؟ قال متمثـلاً بقولـه تعالى: «وكم من فئـة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

وإذا كان في هذه الدنيا العريضة ملك أو رئيس دولة يمثل العصامية حق التمثيـل، ويخلق ملكاً ودولـة وشعباً، تقـوم على أســاس العـدل والحق فهمـا اثنان: عبـد العـزيـز بن السعـود، ومـازاريـك رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية. هذا عصامي في قلب أوروبـا وفي قلب الجامعات العلميـة ودروس التاريـخ والفلسفة، وذاك عـربي في قلب الصحـراء وبين رمـال الدهنـاء والنفود. أمـا أولئك الملـوك ورؤساء الجمهـوريات فهم أحـد رجلين: ملـك ورث العرش عن أبيـه وجـده،

وآخر رفعه إلى الرئاسة شعب ظافر منتصر في ميادين العلم والثـروة والقوة.

أما عبد العزيز فقد خلق شعباً، وأنشـأ دولة، وفتـح بلاداً، فـإذا به بـعـد عشرين سنــة مـن حلمــه الضخم يمشي في طـريـق إنشــاء الامبراطورية العربية، وإذا بهذا اللاجىء إلى الكويت ينسل في ظلام الليل إلى الرياض، يحاول ملكاً أو يموت فيعذر، يحقق المحاولة الأولى باسترداد سلطـان آل السعود ثم يخطـو الخطوة الثـانية إلى مكـة، فيطلع عليها من وراء الطائف، يحمل في اليد الأولى سلطنة نجد، وفي الثانية عرش الحجاز، ثم يستقر به القدر ويقول لـه الإيمان: «يؤجر المرء رغماً عن أنفه»، فتراه في طريق صنعاء وقد ركز علمـه الأخضر فوق أعلى صخرة في ساحل البحر الأحمـر، فيرى المسـافر في طـريق الهند المشرف على الحديدة علم «الإخوان» وقد زانـه شعار التـوحيد وكتبت عليه بأحرف بارزة ضخمة تلك الكلمة التي حملها الفـاتحون منذ أربعة عشر قرناً زاداً لهم من مكـة إلى الصين وهي: «لا إلـه إلا الله محمد رسول الله». وإذا بعدن «العربيـة البريطـانية الهنـدية» تتلفت إلى جارة جديدة ناشئة في قلب البحر الأحمر وفي طريق الهند، هي الحديدة العـربية السعـودية اليمـانية، فيصيـح فيلبي في وجوه الإنكليـز وفي جريـدة «التـايمس»: ان ابن السعـود لن يتـرك لؤلؤة البحر الأحمر. ونحن نقول إنه لن يتـرك غوطـة الجزيرة، فهو يـردد أبداً قول الشاعر:

لا بد من صنعا ولـو طال السفـر

وإن بقاء الأنسب لم تكن سنّة ابن السعود وحده بل هي سنة اللـه تعالى القائل في كتابه الكريم و«الأرض يرثها عبادي الصالحون». فلا طريقة ابن ادريس وأوراده وأذكـاره تحمي وحدهـا عسير وميناءها الحـديدة، ولا رزم «القـات» و«طار الهـواء» عافـاكم الله... تصلـح وحدها للاحتفاظ بأربعة ملايين عـربي من أذكى عباد اللـه يعيشون في اليمن عـلى دهن رؤوسهم بالـزيت والسمن وأجسـامهم بـالنيلـة، وأقـدامهم بـدمـاء الحـرادين! فـلا بـد من المـدرسـة والمستشفى والاتوموبيل والتلفـون وبعد ذلك «طار الهواء»!

من الرياض إلى صنعاء الآن!

هكذا كان ينادي النجديون يوم نفروا للحرب في اليمن بقيـادة الأمير

سعود، وقد تنادوا مثل هـذا التنادي يـوم ساروا بقيـادة سلطان بن بجاد إلى الطائف، فعصفت في رؤوسهم نخـوة التوحيـد والشجاعـة، فصـاحوا صيحتهم المشهـورة أو رغبتهم الحربيـة الوحيـدة «خيال التوحيد أخو من طاع اللـه». من الريـاض إلى مكة، فـإذا بالطليعـة وحدها تكفي الجيش الزاحف وراءها مؤونة الحرب فتستقـر في مكة، وإذا بشيخ قريش الأجلّ المرحوم الملك حسين يقف على ظهر الباخرة «طويل» في طريقه إلى العقبـة، يردد قـول الشاعـر: «مشيناها خطى كتبت علينا..». فيقول لهأعز الناس عليه وأحبهم إليه: «والأرض يرثها عبادي الصالحون». وإذا بابن السعود يقول في حديثه «والله ما كنـا نبغي فتح الحجاز ولكنـا كنا نطلب الإنصـاف في جوارنـا وحدودنـا ومعاملة أهلنا والكفّ عن احتقارهم ولكن، اسمـع أنا أعلمـك: يؤجر المرء رغماً عن أنفه». وهكذا يعيـد ابن السعود مـا قالـه منذ تسـع سنين، وينقله الحاج عبد الله فيلبي إلى قومه في «التايمس»: مـا كنا نبغي فتـح اليمن ولا حرب الإمـام، ولكن الإمـام أراد أن يحتكم إلى السيف فاضطرني إلى حشد ٤٥ ألف مقاتل فحشدتها على كره مني. واليـوم أنا في نهـاية عسـير وآخر سـاحل في اليمن وفي طـريقي إلى صنعاء و: «يؤجر المرء رغماً عن أنفه»!

إيمـان وعصاميـة وحظّ، ثم طاعـة في قومـه تفوق حـد الطـاعـة إلى الاستماتة في سبيل كلمة تخرج من فمه.

هذا هو عبد العزيـز بن السعود، وهؤلاء هم الـوهابيـون الذين قـال عنهم الريحاني في «ملوك العرب» إنهم رسل التوحيد والرعب والموت في وقت واحد.

لنسمـع قليلاً أمـين الريحـاني يقول لابن السعـود في العقير، وتحت مضرب من الشعـر منذ اثني عشر عـاماً وفي أول مقـابلـة رأى بهـا سلطان نجد يومئذ:

– يا طويل العمر، إن أمـراء العرب وملـوكهم في حاجـة إلى الاتحاد والاتفاق، وإن العرب...

– أمراء العرب؟! العرب؟؟! حنا العرب «أي نحن العرب».

هكذا قاطع ابن السعود الريحاني، ولم يترك له أن يبحث في اتحـاد أمراء العرب، ولا أن يذكر أمامه العـرب، فقد نفى وجـود العرب إلا

في نجد. وقد لا يكون ابن السعود مبالغاً، فأين العرب الذين سلمت دماؤهم وأنسابهم من خليط الأمم والشعوب؟

في سورية، وقد كانت طريق الفاتحين من شتى الأمم والشعوب أم في العراق والعنصران التركي والإيراني في الجنوب وخصوصاً في العواصم قد ألقيا بالدم جزافاً وبلا حساب، وفي الشمال وقد سادت الكردية لحماً ودماً ولغة وقومية، أم في الحجاز، والجاوي والهندي والبخاري والعربي ألفوا بفضل الزواج وما ملكت الإيمان مزيجاً من شتى الأمم أم في تهامة وعسير، والحبشيات السودانيات الدنقليات قد احتللن بيوت العرب من قصور السادة أبناء ادريس إلى أكواخ الزرانيق قرصان البحر الأحمر؟

أجل! حنا العرب! اللهم نعم. إن العرب في نجد وفي البقية الباقية من تهامة.

ان تتهمي فتهامة وطني   أو تنجدي إن الهوى نجد

هكذا يجمع ابن السعود إلى الإيمان والعصامية والحظ والاستعداد والكرم شعباً عربياً لم تفسد أخلاقه العواصم والحواضر، ولا غيّرت دمه التركيات والشركسيات والسودانيات، ولا زلزلت عقيدته تلك البدع التي أدخلها الأعاجم على الإسلام، ولا فلّت من عزيمته هاتيك الطرق الصوفية التي قتلت في نفوس الشعوب الإسلامية في الهند والعجم وجاوى وحتى سورية والمغرب الأقصى - الإرادة والشعور بالوجود والالتجاء إلى الأولياء، ثم الفناء في المشائخ توصلاً إلى الفناء بالروح، وتمهيداً إلى الفناء بالذات الإلهية، وتحبيب الفقر والاستسلام وقتل روح السعي والكسب وحتى الدفاع عن النفس والوطن. بل سلم النجدي من كل هذه البدع والخرافات في الدين وتلك الاختلاطات في الدم، فبقي عربياً قحاً في قوميته ولسانه، مسلماً بسيطاً في إيمانه وعقيدته، لا يعترف إلا بالله، ولا يتوسل بغير رسول الله، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، ويطيع الله والرسول وأولي الأمر منه.. يطيع ابن السعود لأنه مؤمن وعربي وشجاع وعادل.

من الرياض إلى صنعاء! لا بل من الرياض إلى الحديدة وفي طريق صنعاء! ومن دمشق إلى مكة، بل في الطريق إلى مكة يتجه السوريون

وقد راحت بعثتهم الوطنية الأولى وعلى رأسها وفد الكتلة الوطنية برئاسة جميل مردم بك يحملون إلى عبد العزيز عاطفة الوطن السوري المهشم وأمنية أبنائه المحطمين.

وكل ديار قُرِّبَتْ منك منزلي وكل مكان أنت فيه مكاني

١٩٣٤/٥/٢١

هوامش

- **تــومــاس مــازاريــك Masaryk (١٨٥٠ ـ ١٩٣٧)**: أوّل رئيس للجمــهــوريــة التشيكوسلوفاكية من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٥.

- **الطائف**: مدينة ومصيف سعوديّ. تقع على جبل غزوان في الحجاز جنوب شرق مكة.

- **الحُدَيْدة**: مـرفأ في اليمن عـلى البحر الأحمـر. قاعـدة محافظـة وسوق بنّ مشهـورة. سكانها ١٠٠ ألف نسمة.

- **ســانت جــوني فيلبي Philby (١٨٨٥ ـ ١٩٦٠)**: مستشرق إنكليـزي، أسلم وسمّى نفسه عبد الله، اكتشف كتابات ثمود الحجرية القديمة. أول من توغّل في رمال الربــع الخالي. له «قلب البلاد العربية» و«الربع الخالي».

- **ابن إدريس، أحمــد بن إدريس الحسني (١٧٥٨ ـ ١٨٣٧)**: صــاحب الطــريقــة الأحمدية المعروفة في المغرب. من ذرية الإمام إدريس بن عبد اللــه المحض. ولد قــرب فاس وتعلّم بفاس. ارتحل إلى مكة ثم إلى اليمن. هو جد الأدارســة، وكانت لهم إمــارة في تهامة عسير واليمن.

- **عسير**: مقاطعة في غرب السعودية بين الحجاز واليمن، تمتـدّ بموازاة البحـر الأحمر، وتشمل سهل تهامة. عاصمتها أبها ومن مدنها بيشة.

- **القات**: نبات من فصيلة القاتيّات، يزرع في اليمن حيث تُمضغ أوراقه المخدِّرة.

- **سلطان بن بجاد بن حُمَيْد (٠٠٠ ـ ١٩٣٢)**: قائد شجاع من عتيبة في بادية ما بــين الحجاز ونجد. صحب عبد العزيز آل سعود في غـزواته وحـروبه، فـأبلى بـلاءً حسناً. رفض الإصلاحات التي أدخلها الملك عبد العزيز، والأسس التي استنّها لـلانتقال من البداوة إلى الدولة، فقبض عليه وسجن حتى وفاته.

- **الإمــام يحيى حميــد الــدين (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨)**: إمــام اليمن سنــة ١٩٠٤. حــارب الأتراك في أواخر العهد العثماني، وقضى غيلة.

- **الوهّابيّون**: اتباع المذهب الوهّابي نسبةً إلى صاحب الدعوة محمد بن عبـد الوهّــاب، والوهّابية مذهب إسلامي ذو نزعـة سلفية يـرمي إلى تخليص الشريعة من الشـوائب، ويستند إلى تعاليم ابن حنبل وابن تيميّة. ســاعد محمـد بن سعود عـلى انتشار هـذا المذهب في الجزيرة العربية.

- **أمين بن فارس الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠)**: أديب ومفكّـر ورحّالـة. ولد في الفـريكة بلبنان. تلقّى علومه الأولية في لبنان. وهاجر إلى نيويـورك، ثم راح يتردّد عـلى موطنـه ويطوف في بلاد العرب. له مؤلفات بالعربية والانكليزية أشهرها «الريحانيات» و«ملوك العرب». توفّي في مسقط رأسه «الفريكة».

- **الجاوي**: نسبة الى جزيرة جاوا، وهي كبرى الجزر الأندونيسيّة.

- **البخــاري**: نسبة الى بخــارى، وهي مدينـة في جمهوريـة أوزبكستان، مـركز ثقـافـة إسلاميّ اشتهر منذ العصر العباسي.

٩

الملك عبد العزيز بن السعود لماذا يتمنى السوريون فوزه؟

يتساءل بعض الناس وخصوصاً في لبنان: لماذا يعطف السوريون على ابن السعود ويتمنون له الظفر على خصمه الإمام؟ فهل بين السوريين والإمام يحيى عداوة قديمة، وبينهم وبين ابن السعود صداقة ومحبة؟

هذا سؤال سمعته في بيروت، وألقي عليّ أكثر من مرة بمناسبة سفر وفد الكتلة الوطنية إلى الحجاز برئاسة جميل بك مردم بك، والعناية بأخبار الظفر السعودي التي تبدو في أحاديث السوريين الوطنيين، وعلى ألسنة كتّابهم في الصحف. والحقيقة أن عواطف السوريين تتجه اليوم إلى الحجاز لا سيما بعد أن جرحت وأهينت في العراق، وبعد أن نسف رجال السياسة في بغداد ذلك الماضي السوري العراقي الفيصلي من أساسه، ولما يمر حول كامل على وفاة الرجل الذي أوجد ذلك الماضي وأنشأ تلك الرابطة القومية العاطفية التي حياها أبناء سورية وجالياتهم الوطنية في أوروبا وأميركا ومصر، فماتت بموته وبعدت الهوة بين الطرفين في سبيل بضع وظائف زاحم السوريون فيها إخوانهم في العراق، فنفض أبناء سورية أيديهم من بغداد ومدوها إلى مكة. وهم في ذلك معذورون لأنهم يطلبون إنقاذاً، وينشدون رجلاً عربياً قوياً يجعل وحدة العرب فوق الأقاليم والوظائف. وقد وجدوا ذلك أو أملوه في عبد العزيز بن السعود،

فراحوا يتمنون له الظفر على الإمام ويعلقون آمالاً قومية ضخمة على احتلال اليمن وضمها إلى المملكة العربية السعودية الناشئة حيث تتألف دولة عربية واحدة من خليج فارس - أو من جوار الخليج - إلى أواسط البحر الأحمر من أمة لا تخجل إذا عدت الأمم، ولا تطرق برأسها حياءً وذلاً إذا قيل إن إيران تعد حوالي العشرين مليوناً، ومصر تربو على الخمسة عشر، وتركيا على أكثر من هذا العدد، بل يكون عدد هذه الدولة العربية السعودية إذا ضمت اليمن العليا وعسير وتهامة مع الحجاز ونجد عشرة ملايين على أقل تقدير.

هذه هي أمنية السوريين الوطنيين في انتصار ابن السعود على خصمه، وهذا هو جواب المتسائلين عن سر هذا الاتجاه البادي اليوم نحو الحجاز، والذي تمثل أخيراً بسفر أبرز رجل في الكتلة الوطنية.

أما اليمانيون فليس لهم في نفوس السوريين غير ما لإخوانهم النجديين من عاطفة الرحم والقومية واللغة. وأما الإمام يحيى فلا يضمر له أحد العداء والبغضاء فهو من ملوك العرب وأسيادهم، ولكن ليس من الإنصاف أن يطلب إلى السوريين في سبيل توحيد الأمة العربية أن يضحوا بهذه الوحدة القومية إكراماً لبقاء كل بقعة من الجزيرة في حوزة أمير أو ملك، وكلهم عرب ويحكمون شعوباً عربية.

ولو أن العاطفة وحدها تجوز أن تتخذ مقياساً في ولاء العرب بعضهم لبعض أو في بغضائهم لكان أولى بهذه العاطفة أن تسيطر على نفس المغفور له جلالة الملك فيصل ساعة صافح ابن السعود خصم الهاشميين ومزيل دولتهم في الحجاز، ولكن فيصل تجرد عن عاطفته كهاشمي، وتقدم من ابن السعود كعربي يعمل في سبيل العرب. وفيصل من المؤمنين بقوله تعالى «والأرض يرثها عبادي الصالحون» بل إن فيصل نفسه يوم فاجعة ميسلون قال لفريق من الوطنيين الذين رافقوه إلى حيفا: إذا لم تنصفنا أوروبا وتعيد إلينا حقنا المغتصب وفاءً بعهدها الذي قطعته لنا في الحرب من استقلال بلادنا، فسنلجأ إلى ابن السعود.

لماذا لم تقبل الوطنية الإيطالية أن تكون في وطنها أكثر من دولة إيطالية واحدة؟ ولماذا وضع الألمان جميع ثمرات انتصارهم منذ نيف وستين سنة في سبيل الوحدة الألمانية؟ ولماذا لا يكون في فرنسا

ملكان أو دولتان بل في بلغاريا أو صربيا ورومانيا، مع العلم بأن هذه الدول خصوصاً في أوروبا الشرقية تتألف من عناصر مختلفة في اللغة والعنصر والدين؟

لماذا ترفض الأمم المتمدنة القوية في أوروبا تجزئة شعوبها وتحارب في سبيل وحدتها، ولا يرسل الله للعرب رسولاً يوحدهم حرباً وقوة بعد أن رفضوا هذه الوحدة سلماً واتفاقاً؟!

نحسب أنه لا يوجد من يقول إن وحدة الأمة المتجزئة تتم بغير الوسائل التي تمت بها وحدة الطليان والألمان، أي بالقوة، وبنهوض زعيم يجمع الأمة كرهاً في دولة واحدة، فالقلة ذل، والتجزئة ضعف، والقوة وحدها هي دواؤهما.

إن تجزئة الأمة الواحدة إلى دويلات وعروش مرض من الأمراض الاجتماعية العامة، لا فرق في ذلك بين شرقي وغربي، لأن إقامة دول متعددة مظهر طبيعي للأنانية وحب الذات شأن الأحزاب السياسية التي تتعدد في بلد واحد أو قرية واحدة. وإذا كان زعماء هذه الأحزاب السياسية يرفضون الانضواء تحت لواء حزب واحد احتفاظاً بزعامتهم، فإن الملوك والأمراء وحتى الموظفين في تلك الدويلات يرفضون الانضواء تحت راية دولة واحدة احتفاظاً بعروشهم ومنافعهم ووظائفهم. وها نحن في سورية التي لم يمض على تجزئتها وتقسيمها إلى دويلات بضعة عشر عاماً، وقد كانت قبل ذلك ولاية واحدة خاضعة لسلطة عثمانية غريبة. ها نحن نسمع أن الذين يرفضون الوحدة إنما هم الموظفون، والذين تزدهر زعاماتهم المحلية في تلك التجزئة القاتلة، والذين تمتلئ جيوبهم من ذلك التقطيع الذي يحزّ في رقاب الشعب ليدفع لهم نفقات الوظائف من دمه ودمعه. فإذا تمت الوحدة انهارت أحلامهم، وفقدوا زعاماتهم الإقطاعية أو الدينية أو السياسية.

وهكذا الحال في جزيرة العرب، فإن احتفاظ ملوكها وأمرائها بدولهم الصغيرة وشعوبهم الفقيرة، إنما هو مظهر من مظاهر الأنانية في نفوس الملوك والأمراء والموظفين. فإذا لم ينهض منهم زعيم مخلص يوحد هذه الدول، ويجعل شمل هذا الشعب العربي واحداً، فهيهات أن يتحدوا على مبايعة واحد منهم، ويتنازلوا عن عروشهم مهما كانت خاوية، بل ان بعضهم في سبيل الاحتفاظ بهذا العرش وما

يتبعه من قصور وجوار وعبيد قد ألقى بنفسه في أحضان الحماية الأجنبية، وهو وملكه وعرشه وشعبه لا يؤلفون مائة وخمسين ألف نسمة. وهذه الكويت والبحرين ومسقط وعمان وحضرموت ولحج وبقية الأمارات، بل النواحي، خاضعة للنفوذ البريطاني في طول خليج فارس وبعض البحر الأحمر في سبيل أنانية شيوخها وسلاطينها وأمرائها. وأضخم سلطان فيها لا تتجاوز إعانته السنوية من الإنكليز خمسة آلاف روبية!

فهل من مصلحة العرب إذن أن تظل بلاد العرب مقسمة إلى قسمين: إمارة وسلطنة وناحية، ونحن في عصر تشكو الأمم الكبرى ذوات السبعين والثمانين مليوناً قلة العدد وتحض على الإكثار من النسل؟! وهل مفروض في أوروبا ودولها أن تتحد شعوبها ويكثر عددها وهي منيعة الجانب، ولا يفرض على العرب ـ وهم مغزوون في ديارهم، مهاجمون من البر والبحر والجو ـ أن يتحدوا وأن ينهض واحد فيهم يقوض هذه العروش الخاوية ويدحرج تلك التيجان المغموسة بذلّ الحماية الأجنبية؟

لقد نهض واحد من العرب، فبدأ ببلاده، وقد كانت نجد من قبل مقسمة بين آل السعود والرشيد وعايض، فقضى على تلك التجزئة، وأنشأ سلطنة نجدية واحدة، ثم سار إلى الحجاز فضمها إلى هذه الوحدة ولم يكد يلبث في الحجاز حتى جاءت عسير تطلب إدماجها في هذه المملكة. وها هوذا اليوم يحتل أكثر البلاد اليمانية، ولم يبق عليه سوى احتلال اليمن العليا فإذا تمّ ذلك تألفت عندئذ دولة عربية واحدة من عشرة ملايين.

نحن لا نتمنى لابن السعود احتلال اليمن بغضاً بالإمام يحيى، ولكننا نتمني توحيد الجزيرة على يد أيّ رجل كان، على شرط أن يكون جديراً بأن يضطلع بأعباء هذه الزعامة ويحمي وحدة العرب من المطامع الأجنبية. وقد أثبت ابن السعود بأنه وحده الجدير بهذه الرسالة القومية السامية، وهو الذي يستطيع أن يؤديها بأمانة، وأن يحكم بين الناس بالحق، ويؤمن الأمن، وينشر العدل. ونحسب أن كل شيء في الحجاز ونجد يتطلب الإصلاح والكمال، إلا العدل والأمن، فهما بشهادة الأجانب في الذروة من الكمال.

لقد عرف ابن السعود نفسه بأنه كفوء لهذه الزعامة قبل أن يعرفه

الناس، والزعيم إذا لم يأخذ الزعامة أخذاً فلن يقدمها أحد إليه، واسمعوا الريحاني يحدثكم عن معرفة ابن السعود قبل أن يعرفه أحد. اسمعوا فيلسوف الفريكة الذي كان له الفضل الأول بتعريف ابن السعود إلى العالمين الشرقي والغربي، يحدثكم ليلة زاره في نجد في غرفة السلطان عبد العزيز. وكان لقبه يومئذ سلطاناً فقط. وقد دوّن الريحاني في مذكراته أن عبد العزيز بن السعود مستعد للاتفاق مع ملوك العرب وأمرائهم على إنشاء اتحاد عربي، أو على توحيد الجزيرة تحت لواء رجل واحد، وأنه يتنازل لهذا الرجل عن زعامة العرب ويبايعه. وقد عرض الأستاذ الريحاني على زائره الكبير ما كتب عنه، فتناول قضيباً بيده، وضرب على الأرض، وقال:

– اسمع يا أستاذ. أنا أعلمك... اشطب القسم الثاني اشطب... نحن لا نريد أن تكتب عنا ما ليس فينا... الرياسة فينا وزعامة العرب لنا ولا نقبلها في غيرنا... ترى الصحيح...

بمثل هذه الصراحة يعلن عبد العزيز منذ أحد عشر عاماً أنه لا يرى غيره أهلاً لزعامة العرب، ولن يقبل الرياسة في أحد إلا في نفسه. وها هي الأيام لا تكذب ابن السعود في معرفته نفسه ولا تكذب الذين تنبأوا له بهذا المستقبل.

ونحن السوريين المجزئين، والعرب المضطهدين المذلولين الذين خابت آمالهم في الحلفاء، وفي جميع ملوك العرب وأمرائها، نتوجه إلى الله بقلوبنا وعواطفنا أن يكتب خاتمة ذل العرب على يد ابن السعود، ويوحدهم تحت لوائه، وليبارك الله بهذه المدنية والتهذيب والسعادة لمن يطلبها في أوروبا وأميركا وتركيا.

كرروا معي أيها العرب في سورية وفلسطين والعراق وخليج فارس هذه الدعوة إلى الله، وأعيدوا معي مرة أخرى ومن غير أنخاب ولا كؤوس قول الشاعر:

ان تتهمي فتهامة وطني أو تنجدي إن الهوى نجد

١٩٣٤/٥/٢٣

هوامش

■ **الماضي السوري العراقي الفيصلي. ولما يمر حول كامل على وفاة الرجل الذي أوجد ذلك الماضي**: يشير بذلك الى انتقال مملكة فيصل من سورية الى العراق. وكانت وفاة الملك فيصل سنة ١٩٣٣.

■ **تهامة**: سهل ساحلي ضيّق غربيّ الجزيرة العربية، يقع بين جبال السراة والبحر الأحمر، وتتخلّله تضاريس بركانية. من موانئه جدّة وينبع.

■ **أبرز رجل في الكتلة الوطنية**: هو جميل مردم.

■ **ميسلون**: هي معركة فاصلة وقعت يوم ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠ بين الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال غورو والجيش الوطني الناشىء بقيادة وزير الدفاع يوسف العظمة، فهزم الجيش السوري واستشهد العظمة. وميسلون اسم مكان في وادي بردى إلى الغرب من دمشق.

■ **فيصل بن الحسين بن علي أو فيصل الأوّل (١٨٨٣ - ١٩٣٣)**: ولد بالطائف ودرس في الآستانة. انتخب نائباً في مجلس «المبعوثان» العثماني سنة ١٩١٣، وانتسب إلى جمعية «العربية الفتاة» السرية. قاد الجيش العربي في الثورة على الأتراك سنة ١٩١٦. ملك سورية في ١٩٢٠/٣/٨ حتى دخول الفرنسيين إثر معركة ميسلون في ١٩٢٠/٧/٢٤. ملك العراق من سنة ١٩٢١ حتى وفاته في برن بسويسرا.

■ **الكويت والبحرين ومسقط وعمان وحضرموت ولحج...**: هي الامارات أو المحميات السبع التي كانت خاضعة للنفوذ البريطاني.

■ **الرشيد أو ابن رشيد**: أسرة عربية من قبيلة شمَّر، أسّست، في نجد سنة ١٨٣٥، إمارة عاصمتها حائل. أنهى حكمها عبد العزيز بن سعود سنة ١٩٢١.

١٠

الامام يحيى
هل ينفع الدعاء
بميادين الحرب

عرضت في المقالين السابقين صورتين واضحتين من صور هذه الحرب القائمة في جنوب الجزيرة العربية: الأولى للرجل العصامي المنشىء عبد العزيز بن السعود، وللشعب المؤمن المخلص الذي يقاتل بين يديه طائعاً مختاراً، والثانية لموقف الوطنيين في سورية ورأيهم في الحرب بين الإمامين، والنتائج القريبة والبعيدة التي تسفر عنها بانتصار ابن السعود على خصمه.

وأرجو أن أكون وفقت إلى قول الحقيقة من غير أن أسيء إلى دعاة الإمام يحيى الذين أريد أن أسميهم مكرهاً دعاة التجزئة الكبرى، وأنصار تعدد الدول والإمارات والعروش التي يحميها الأجنبي ليضرب العرب بالعرب، وليتخذ منها عوناً على تثبيت قدمه في احتلال بلادهم.

وإني أصارح هؤلاء الدعاة الذين يشنعون على ابن السعود بأن موقفهم في بقاء كل أمير عربي في حدود بلاده لا يختلف في شيء عن موقف دعاة التجزئة في سورية الذين يريدون تقطيع أوصال هذا الوطن الصغير وبقاء «هذه الدول» تعيش في ظل سياسة الأجنبي عدوة بعضها لبعض، فهم إما أن يكونوا من طلاب الوحدة السورية والعربية معاً، وإما أن يكونوا من طلاب التجزئة والانفصال، فإن

كانوا من أنصـار بقاء كـل قطر عـربي منفصلاً عن الآخـر، فلماذا مـلأوا الدنيـا حماسـة وضجيجاً في «مـوسم» تـوحيـد التـاجـين أو القطرين السوري والعراقي؟

فهـل يجوز في سـورية والعـراق من وجوب التـوحيد مـا لا يجوز في اليمن والحجاز ونجد؟! وإن كـانوا من أنصـار جمع العـرب في دولة واحدة وإدغام هذه العروش المتعددة القائمة في جزيرة العرب لإذلال العرب وإضعافهم، فعليهم أن يجهروا برأيهم. وإن كانوا يجـدون في الإمام يحيى رجلاً كفوءاً للاضطلاع بأعباء زعامة العرب وتوحيدهم، فعليهم أن يعـاونـوه وأن يبعثـوا بـأطبـائهم وضبـاطهم إلى اليمن، ويؤيدوه في اكتساح المملكـة العربيـة السعوديـة وضمها إلى بـلاده وإنشاء دولة عربية واحـدة، وعندئـذ نلتقي وإياهم في فكـرة واحدة شريفة، هي وجوب توحيد الـدول العربيـة في دولة واحـدة، ونختلف على الشخص الذي يجب أن يكون سيد الجزيرة.

أما أن يقولوا إنهم دعاة وحدة سورية وعربية معاً، ومن أنصار بقاء كـل أمير عـربي مستقلاً في بـلاده أو جبله، فهـذا قول نـرجوهم أن يقـولوه في غـير هذه البـلاد التي إذا فقدت كـل شيء، فهي لم تفقد المنطق والعقل على الأقل.

لنترك الآن أنصار الإمام يحيى يفكرون في تحـديد مـوقفهم، ولنتكلم مع أنصار توحيد البلاد العربية، ومؤيدي الدولة الكبرى في شخص ابن السعود. لنسألهم ماذا أعدوا ثمنـاً لاشتراكهم في هـذا الإنشاء الوطني القومي؟ هـل يريـدون أن يكون نصيبهم في كـل هذا المجـد الدعاء فقط؟! إن الـدعاء ينفـع، ولكن الإشتراك المـادي مع الـدعاء أنفع. والحرب هي وحـدها الثمن الحقيقي لتـأسيس الدول وحمـاية الحريات، ولو أن ابن السعود قبـل من النجديـين الدعـاء فقط لظل قابعاً في الرياض يسمع في كل صبـاح ومساء أصـوات الضراعة إلى الله تشق أجواء السماء.

ولـو أن الدعـاء وحده ينفـع في حمايـة الدول، لكـان أولى بالسـادة الأدارسـة أن يحموا ملكهم في عسـير، وهم أسياد الأذكـار والأوراد والأدعيـة وشيوخ التصـوف في آسيا وأفـريقيا.. ولكن الـرشـاشـة والدبابة والطيارة، محـاطة بـالدعـاء والصلوات، هى وحـدها اليـوم

سلاح الأمم، وعدّتها في تأسيس دولها وحفظ استقلالها. فليفكر السوريون الوطنيون في مصيرهم ومصير بلادهم، وليدفعوا ثمن الاشتراك في إنشاء الدولة العربية المستقلة كما دفعوه في الثورة الأولى في صفوف الحلفاء، وفي ظل الملك حسين ونجله الملك فيصل، فقد خولهم ذلك الاشتراك أن يطالبوا باستقلال بلادهم وجعلهم يرفعون رؤوسهم. ولا يزال ذلك النصيب في الحرب العامة وثيقتهم الوحيدة في حق الحرية والإستقلال.

لقد نفر السوريون والعراقيون وأبناء فلسطين والأردن في تلك الأيام إلى بادية الحجاز ليشتركوا في حرب الترك وليساهموا في حملة الإنقاذ فراراً من الظلم وهرباً من الذل الاتحادي التركي، فهل استطابوا اليوم الذل الأوروبي والصهيوني هنا وهنالك، مع الفقر واضمحلال الثروة وشح موارد الرزق؟

وهل لا يريدون بلاداً عربية أخرى يعيشون فيها أحراراً مستقلين يعملون على إنشائها واستثمار مواردها الزراعية والصناعية؟ فماذا ينتظرون في بلادهم أو ماذا ينتظرهم فيها غير الموت البطيء والذل الدائم؟

ها هي الدول المستقلة في أوروبا تستعمر بلاد العرب في آسيا وأفريقيا لتجد لشعوبها أسواقاً ومزارع، ولعمالها العاطلين أعمالاً تخفف عن وطنهم الأصلي كابوس الفاقة. بل إن هذه الدول تحارب أصحاب المستعمرات الأصلية، وتجعلهم طعمة للنار والحديد في سبيل التوسيع، أفلا يجدر بكم أيها العرب في سورية وفلسطين والأردن والفرات أن تأنفوا من ذل الاستعباد وذل الفقر معاً، وتفتحوا بلاد العرب بأيديكم ولأنفسكم وأولادكم قبل أن يفتحها الأجنبي القوي كما فتح بلادكم؟

ها هي الدولة العربية الكبرى في طريق التأسيس، وها هي الأراضي الواسعة والمرافئ البحرية على طول ساحل البحر الأحمر، خاوية خالية، تستطيعون أن تزاحموا بها لو عمرتموها السويس وعدن، وأن تجعلوا فيها شعباً عربياً جديداً، فتؤسسوا المدارس والمستشفيات والأسواق، وتحولوا تلك الصحراء إلى جنان ورياض، بدلاً من أن يؤسس فيها الإيطالي والإنكليزي والأميركاني معاهد تبشيرية دينية وسياسية، ويجعل من العرب شعباً حائراً نصف

إفرنجي ونصف عربي ينكره الإفرنج ولا يعترف بـه العرب كمـا هي الحال في بعض البلاد العربية القريبة.

ليست تـربة اليمن والحجـاز أقلّ خيـراً من تـربـة العـراق ومصر، وليست سواحل الحجاز واليمن أبعد عن العالم من سواحل أفريقيـا والهند وطرابلس الغرب. أترى عجز المستعمرون أن يجعلـوا من تلك التـربة وقـوداً من بترولهـا لبواخـرهم وسياراتهم وطيـاراتهم، ومن قطنها وصوفها غذاءً لا ينقطع لمعامل صناعاتهم، ومن موانئها مراكز حربية وتجارية تتحكم في أسواق العالم وفي أسواق سورية قبل كـل سوق؟

إن الدول تنشد الاستقلال لمثل هذه الأمور، وتضحي بأنضر شبابهـا لإيجـاد مستعمرات وأسـواق ومزارع للـذين يفيضون عن الحـرب، حتى لا يظلوا عالة في بلادهم على دولهم، أفلا يجدر بالذين أضاعوا استقلالهم في أوطانهم أن يفتشوا عن استقلال جديد في بلاد عربيـة مثل بلادهم؟

إن لهذا الاستقلال الجـديد ثمنـاً، فالـذين لا يدفعـون نصيبهم من تكاليفه لا يستحقون أن يطلبوا التفيؤ في ظلاله، فـابن السعود ليس مكلفاً وحده أن يدفع جميع تكاليف هذا الاستقلال الضخم في هـذه الدولة الناشئة، وليس النجـديون وحـدهم حطباً تطبـخ عليهم وحدة العـرب، فلا أقـل من أن يساهم أبنـاء سـوريـة وفلسطـين والأردن وغيرهم من الذين عافت نفوسهم الذل، وشكت أعناقهم من حزّ النير في هـذا الشرف القومي، وفي هؤلاء الضبـاط والأطبـاء والمحـاربـين القـدماء ورجـال السياسـة والعلم والمهندسـين والميكانيكيـين وحتى الطيارين...

إننا نربأ بأبنـاء سوريـة والعراق والأردن وفلسطـين أن يكونـوا من أهل الغنم على حساب غيرهم، فلا يشتركوا بالغرم، ونخجل أن تُمـلأ شـوارع دمشق والقدس بـأغـاني الحـريـة وأنـاشيـد الاستقـلال والوحدة، وها هو ذا الاستقـلال والوحـدة والحريـة والشرف والمجد على مقربة منا، بـل هي الامبراطـورية العـربية المستقلـة وقد رفعت جناحها الأول في العقير وفي جوار خليج فارس وحطت جناحها الثاني في الحـديدة وعـلى أفضل سـاحل في البحـر الأحمر وفي جـوار عدن وقبالة جيبوتي والأريتره.

أيها الشباب الوطني في دمشق والقدس وعمان وبغداد.

أيها الضباط والأطباء وأبطال الثورة العربية!

لم يعد في بلادكم من الكرامة والثـروة ما يستحق البقـاء فيها. فـإن كنتم تريدون المجد والحرية فاطلبوهما من جـزيرة العـرب واتركـوا الـدعاء بـالنصر للشيوخ والنساء. وإلا فـاقبعـوا في بيـوتكم منكسي الرؤوس ورددوا قول الحطيئة:

«دع المكـارم لا تـرحـل لبغيتهـا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي»

١٩٣٤/٥/٢٥

هوامش

■ **العقير**: أطلال مدينة قديمة في العراق جنوبيّ الصُوَيرة.

■ **جيبوتي**: دولة في أفريقيا الشرقية بين اثيوبيا والصومال على خليج عدن عند مدخل البحر الأحمر. هي الصومال الفرنسي أو عفار وعيسى سابقاً. استقلت سنة ١٩٧٧، وانضمت إلى جامعة الدول العربية.

■ **أريترا أو أريتيريا**: مقاطعة في شمال اثيوبيا على البحر الأحمر، وعاصمتها أسمرة. مستعمرة إيطالية سنة ١٨٩٠. اتحدت مع اثيوبيا سنة ١٩٥٢، ثم ضُمّت إليها نهائياً سنة ١٩٦٢. فيها حركات تحرّر استقلالية.

■ **الحطيئة (ت نحو ٦٧٨م)**: شاعر مخضرم من بني عبس، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام. امتاز بهجائه العابث المتهكّم. له ديوان.

الملك عبد العزيز بن السعود الرجل الذي أسس مملكة واستقلالا

إذا ذكرت ملوك العرب وذكرت دولهم المستقلة أو المحتلة، فإن رجلاً واحداً من بين هؤلاء يذكر على طراز خاص من الحديث، ويكتب عنه بأسلوب لا يكتب عن غيره بمثله، ذلك هو عبد العزيز بن السعود الرجل الذي أسس دولة واستقلالاً ومملكة، ثم أنشأ عرشاً بويع بالجلوس عليه.

لقد وجدت في بلاد العرب دول ثم وجد بعدها الملوك، وكانت محتلة فاستقلت، أما المملكة العربية السعودية فقد وجد فيها رجل أنشأ وحده وبنفسه مملكة من مجموعة إمارات ومقاطعات موزعة بين أمراء وشيوخ، يتبع بعضها نفوذ دولة، ويخضع البعض الآخر لنفوذ دولة أخرى، فأسس منها وحدة كاملة، ثم جعلها مملكة كبرى، جلس على عرشها سيداً مستقلاً غير مدين بهذا الاستقلال، وبهذا العرش، إلا لله ولسيفه ورجولته وحزمه.

ذلك هو ابن السعود الذي يملأ ذكره سمع العرب وتاريخهم في العصر الحديث.

لقد احتل عبد العزيز بلاد نجد والحجاز وما يتبعها من إمارات صغيرة كانت تدار إدارات خاصة من قبل أمرائها وشيوخها، فوحّدها وجعل منها هذه القوى العربية التي تدين له بالطاعة

والـولاء، والتي يحكمها عـلى كتاب اللـه وسنّة رسـوله، ويقيم فيهـا حدود الشريعة السمحاء، بحيث أصبحت مصدر أعظم ثـروة روحية ومادية في الدنيا، فكانت وما برحت المثل الأعـلى للأمـان والطمأنينـة والهـدوء، فلا طـوائف ولا أحزاب، ولا نفـوذ ولا مراكـز ممتـازة ولا امتيازات سياسيـة لأية دولـة أجنبية، لأن الـرجل الـذي جلس على عرش هذه المملكة وحّدها وحررها قبل أن يصبح ملكاً عليها.

هذا هو الرجل الذي يحتفل شعبه بذكرى جلوسه غداً، والـذي له في قلوب السوريين مكانة خاصة من الاحترام والإجـلال والحب، والذي كان عطوفاً على الجامعة العربية، وتأييده لها من أعظم الدعائم التي زادت في نفوذ الجامعة ومكانتها.

إن بـلاد الشام التي عملت في سبيـل الوحـدة العـربيـة نحـواً من خمسين سنة، وكان ابن السعود يطمح إلى الملك الذي أسسه، تتلفت إليه اليوم فتحيي فيه طموح الرجال وشجاعتهم وصبرهم.

١٩٤٦/١/٨

١٢

يوسف العظمة
خلدوا ذكراه

لا يصدر هذا العدد من «القبس» إلا ووفود دمشق وبقية البلاد السورية في الطريق إلى ميسلون تسير لتحيي في ذلك المكان النائي ذكرى البطولة في عامها الثاني عشر، ولتحتفل باليوم الذي اكتسحت فيه القوة القاهرة هذه الأمة الضعيفة، التي تتشرف بأنها لم تسلم قبل أن سقط قائدها ومال علمها وخضبت الأرض بدماء شهدائها؛ بل إن في ميسلون لذة من لذائذ الجهاد رغماً عن أن ذكراها مرّة موجعة هي ذكرى الانكسار، ولكن في هذا شرفاً للسوريين لأنهم سجلوا لهم في تاريخ اعتداء الأقوياء على الضعفاء يوماً يحتفلون بذكرى شهدائه في كل عام، وليس عاراً على الضعيف أن يجاهد فينكسر وإنما العار أن يستسلم من غير جهاد، والغلب في المعركة هو دائماً أشرف من الهزيمة.

لقد مضت اثنتا عشرة سنة ونحن نحتفل بذكرى ميسلون ونحيي فيها مثال التضحية التي تجسمت في شخص الشهيد الكبير يوسف العظمة، ولكن احتفالنا طوال هذه السنين ما برح محصوراً ضمن نطاق معين هو نطاق إلقاء الخطب ونثر الزهور. ونحسب أنه قد آن لنا أن نخرج هذا التكريم عن حدود الكلام إلى ما هو أكثر أثراً من الكلام، ونعني به إقامة ضريح يتناسب مع مكانة يوسف العظمة وعظيم تضحيته، وإذا كانت سورية لا تستطيع إقامة مثل هذا

الضريح لأول شهدائها وكبير أبطالها، فكيف تريد أن تمجد التضحية وتكرم البطولة في رفات الذين يموتون في سبيل أوطانهم ويسقطون صرعى في ساحات الشرف؟

يمر السائحون الأجانب بميسلون كل يوم فلا يجدون سوى قبر صغير يقوم في العراء فيتساءلون: «أهذه هي الأمة التي وقفت في وجه فرنسا وحاربتها في هذا المكان ثم لم تستطع أن تقيم لمثل هذه الذكرى المشرفة أثراً يدل عليها ويتفق مع عظمتها»؟

وهذه جرائد لبنان يكاد لا يمر كاتب من أمثالها بميسلون إلا ويكتب في جريدته مستغرباً كيف لم تقم سورية حتى الآن ضريحاً لبطل المعركة الذي كتب وثيقة اعتداء القوة بدمه وروحه بينما استطاع اللبنانيون أن يقيموا أثراً لشهداء الحرب وتماثيل لبعض كبار رجالهم.

لقد فكر فريق من الوطنيين منذ عامين بأن تؤلف لجنة موثوقة لقبول الاكتتاب في سبيل إقامة الضريح وانتقل هذا الخبر إلى السوريين في أميركا الجنوبية فقامت لجنة منهم ودعت إلى الاكتتاب. وقد نشرت صحف السوريين هناك أسماء المتبرعين والمبالغ التي اكتتب بها، ولكن عدم نجاح الفكرة في دمشق قضى على العمل في أميركا، فتلاشت المساعي، ونسينا هذا الواجب الذي لا ينسى، فهل يوجد في دمشق من يفكر الآن في تأليف لجنة مؤتمنة تعمل على جمع الاكتتابات وتسعى إلى إيجاد موارد من حفلات وغيرها بحيث لا تأتي الذكرى الثالثة عشرة إلا ويكون الاحتفال أروع وأكثر أثراً منه الآن؟

إن «القبس» تتشرف بأن تكون أول المتبرعين لإقامة الضريح. وها نحن نفتتح الاكتتاب بعشر ليرات سورية، وندعو إلى تأليف لجنة لهذا العمل الجليل، ونحسب أن سورية لا تعجز عن جمع مبلغ يكفي لإقامة الضريح مهما كانت قيمة التبرعات قليلة، ولكن كثرة المتبرعين كفيلة بتأمين هذا المبلغ. والتبرع القليل من العدد الكثير أفضل من التبرع الكثير من العدد القليل. فإذا دفع خمسون ألف شخص في دمشق كل واحد فرنكاً واحداً، ودفعت حلب وحماه وحمص مثل هذا المبلغ مع ما تبرع به السوريون في أميركا وما

يمكن أن يرد على اللجنة من فلسطين والعـراق ومصر ـ استطعنا أن نقيم في دمشق أعظم ضريح لأعظم بطل.

هـذه هي الفكرة التي نعـرض لها في هـذا اليوم بمنـاسبة الـذكرى الثانية عشرة وإنها لأفضل من إلقاء الخطب ونظم القصائد.

١٩٣٢/٧/٢٥

هوامش

■ **يوسف بن ابراهيم العظمة**: شهيد ميسلـون، ولد في دمشق سنـة ١٨٨٤، وتعلّم في مدارسها، ثم اكمل دروسه في المدرسة الحـربية بـالآستانـة، فتخرج بـرتبة يـوزباشي أركان حرب. تنقّل في خدمته العسكرية بين مواقع كثيرة، واشترك في الحـرب العالميـة الأولى، فكـان رئيساً لأركـان حرب الجيش العثمـاني في قفقاسيـة، فـرئيسـاً لأركـان الجيش الأول في الآستانة. عاد إلى دمشق بعد انتهـاء الحرب ورحيـل الأتراك، فعُـيِّن رئيساً لأركان حرب الجيش العربي، ثم وزيـراً للحربيـة سنة ١٩٢٠. تصـدّى لجيش الاحتلال الفرنسي، فاستشهد في ميسلون في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠ ودفن هناك.

يوسف العظمة
الضابط الأول
والشهيد الأول

شكراً للجالية السورية في البرازيل التي أهدت وطنها تمثالاً لشهيد الاستقلال الأول وبطل «ميسلون» الخالد يوسف العظمة، فقد أتاحت لهذه البلاد أن تحتفل بإقامة التمثال في يوم الذكرى الواحدة والثلاثين، وأن تسمع عن ماضي هذا البطل وعن سيرته وتاريخه ما يرفع الرأس ويبيض الوجه ويملأ النفس اعتزازاً وفخراً.

وإنه لمن الوفاء للبطولة والتضحية، ومن التكريم للعسكرية السورية أن يطلق رئيس أركان الجيش السوري في خطابه أمس على يوسف العظمة لقب «الضابط الأول والشهيد الأول»، وأن يعد بنقل تمثاله من مكانه الموقت في زاوية نادي الضباط إلى مكانه المقبل الدائم في ساحة وزارة الدفاع الجديدة التي ستبنى في المستقبل، ليكون قدوة لكل ضابط.

على أن الذي يمكن أن يقال في يوسف العظمة بعد إحدى وثلاثين سنة من مصرعه المشرف، إن التمثال الذي أهدته الجالية السورية له، لا يكفي أن يكون وحده في سوريا رمزاً للبطولة وذكرى للشهادة في سبيل الاستقلال. ولقد سجلت هذه الجالية في هديتها كرماً ووفاءً وتعلقاً بوطنها الأول، ولكن على المواطنين الآخرين، وخصوصاً الأغنياء منهم في داخل البلاد، أن يبرهنوا بدورهم أيضاً على مدى

تقديرهم للرجل الذي كان أول شهيد في معركة الشرف والكرامة فجاد بدمه في سبيل استقلال وطنهم، وذلك بأن يقيموا له تماثيل أخرى في كل مدينة ليكون كل تمثال تذكيراً لأولادهم وأحفادهم من بعدهم بعظمة البطولة وبروعة الشهادة في سبيل الله والوطن.

وإني لأعجب للذين جربوا في مجلس النواب أن يحولوا دون إقامة التمثال في دمشق، فاعترضوا عليه باسم الدين كأنهم هم وحدهم «حماة الدين» أو الأوصياء على الإسلام في هذه البلاد، وان كل أمر يتعلق بالدين يجب أن يؤخذ فيه رأيهم، وأن يفتى فيه على مذهبهم مع أن الدولة تعرف كيف تحافظ على الدين وعلى الإسلام، حين تسمح بإقامة تمثال لأول بطل شجاع جاهد بدمه ونفسه في سبيل ربه وفي سبيل وطنه. وإذا كانت إقامة التماثيل لعظماء الرجال حراماً، أو مخالفة للدين، فقد كان على أعظم دولة إسلامية أن تمنع إقامة التماثيل في بلادها، وهي مصر الأزهر ودار الشريعة الإسلامية التي تزخر بأكابر العلماء وفحول الفقهاء، ولكن مصر أقامت في أكبر ميادينها وساحاتها في القاهرة والإسكندرية عشرات التماثيل لمحمد علي وابراهيم باشا والخديوي إسماعيل وسعد زغلول ومصطفى كامل، فلم يقف أحد في مجلس النواب يعترض على إقامتها لا باسم الدين ولا باسم الدنيا. كما أنه لم يقم أحد في الأزهر «يكفِّر» الذين أفتوا أو أمروا بإقامتها خصوصاً وقد أقيم في مصر تمثال جديد لأحمد ماهر باشا، وسيقام تمثال آخر قريباً للنقراشي باشا. فكيف وسع مصر وعلماؤها ووسع الأزهر ومجلس النواب ومجلس الشيوخ، ما لم يسع الشيخ مصطفى السباعي مثلاً فقام يعترض على إقامة تمثال يوسف العظمة في المجلس؟!

ولماذا يعترضون في سوريا فقط على كل شيء باسم الدين، ويحاولون منع إقامة تمثال لأول شهيد وأشجع مجاهد في سبيل استقلال بلاده كأنه لا يوجد دين أو إسلام أو علماء إلا في سوريا. وهذا العراق البلد الإسلامي الكبير، قد أقيم في عاصمته تمثال فخم لمؤسس دولته وباني مجده، فيصل الأول، فلم يعترض أحد من علماء الدين في الطائفتين الكبيرتين المسلمتين: السنة والشيعة، رغم ما لعلماء الشيعة وأئمتها ومجتهديها من النفوذ والتأثير في أوساط الشعب وأوساط الحكومة. ولكن الفرق بين سوريا من جهة، وبين مصر والعراق من جهة أخرى، هو أن رجال الدين فيهما لا يشتغلون في

أمور الدنيا ولا يتدخلـون في السياسـة. أما هنـا، فقد أصبـح الدين وسيلة جديدة للنيابة والوزارة والثراء والطموح. وليرحم الله يـوسف العظمة فقد ضنوا عليه بأن يكون له في سوريـا ما لسعـد زغلول أو مصطفى كامل في مصر من رمز يسجّل الوفاء ويخلد الذكـرى. ولكن الذين أقاموا التمثال في دمشق عرفوا كيف يرفعون من قدر البطولـة ويعلون من شأن الشهادة.

١٩٥١/٧/٢٦

هوامش

■ **رئيس أركان الجيش السوري**: هو يومئذ العقيد أديب الشيشكلي.

■ **محمد علي باشا (١٧٦٩ ـ ١٨٤٩)**: مؤسّس السلالة الخديوية في مصر. ولد في قوله باليونان، وتخرج ضابطاً في الجيش العثماني. والي مصر سنة ١٨٠٥، قضى على المماليك ووجّه حملة إلى الجزيرة العربية سنة ١٨١١. فتح السودان سنة ١٨٢١. وجه حملة جديدة، بقيادة ابنه إبراهيم باشا، الى سورية سنة ١٨٣١، فهزم العثمانيين في قونيه وفي نصيبين، فتدخلت دول أوروبا وردّته بعد أن ضمنت له ولسلالته حكم مصر. حقق لمصر نهضة علمية وثقافية وزراعية.

■ **ابراهيم باشا (١٧٨٩ ـ ١٨٤٨)**: قائد مصري، ونجل محمد علي باشا والي مصر. انتصر على الوهابيين في الجزيرة العربية سنة ١٨١٨. احتل فلسطين وسورية وهزم الجيش العثماني في قونيه سنة ١٨٣٢، وفي نصيبين سنة ١٨٣٩، لكنه تراجع بضغط من الدول الأوروبية. توفي في القاهرة.

■ **اسماعيل باشا (١٨٣٠ ـ ١٨٩٥)**: ابن ابراهيم باشا، وحاكم مصر سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩. منحه السلطان عبد العزيز لقب خديوي. دشّن قناة السويس سنة ١٨٦٩. اشتهر بمشاريعه العمرانية والثقافية. تراكمت عليه الديون، فتدخلت الدول الأوروبية، وفرضت عليه التنازل عن العرش لصالح ابنه توفيق. توفي في الآستانة.

■ **سعد زغلول (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧)**: حقوقي مصري من كبار المجاهدين في سبيل الاستقلال. درس في الأزهر وتعاطى المحاماة والسياسة، فأسّس الحزب «السعدي» أو حزب «الوفد». رئيس الحكومة المصرية سنة ١٩٢٤. له خطب مطبوعة.

■ **مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨)**: صحافي وسياسيّ مصري من روّاد النهضة الوطنية. أصدر جريدة «اللواء» سنة ١٩٠٠، ودعا فيها الى الاستقلال التام. أسّس الحزب الوطني سنة ١٩٠٧. من آثاره «المسألة الشرقية».

■ **احمد ماهر باشا (١٨٨٨ ـ ١٩٤٥)**: حقوقي وسياسي مصري. مجاز في الحقوق سنة ١٩٠٨، ودكتور في الاقتصاد السياسي من فرنسا سنة ١٩١٢. انضم إلى حزب الوفد، فاعتقل وحوكم. نائب، ووزير، ورئيس مجلس غير مرّة. رئيس الحكومة سنة ١٩٤٤. انشق عن «الوفد» وأسّس حزب «الهيئة السعدية». اغتيل في القاهرة.

■ **النقراشي باشا، محمود فهمي بن علي النقراشي (١٨٨٨ ـ ١٩٤٨)**: سياسي مصري عرف بالنقراشي باشا، ولد في الإسكندرية، وتعلّم في مدارسها ثم في إنكلترا. انضم إلى حزب «الوفد»، فاعتقل، وتقلّب في مناصب إدارية قبل أن يُعيّن وزيراً. انشق عن «الوفد» والتحق بحزب «السعديين»، ورأسه بعد مصرع أحمد ماهر. رئيس مجلس الوزراء سنة ١٩٤٥. قضى غيلة.

■ **مصطفى بن حسني السباعي (١٩١٥ ـ ١٩٦٧)**: ولد في حمص، وتعلّم في مدارسها ثم في الأزهر بمصر. اعتقله الإنكليز في فلسطين، ومنهم تسلّمه الفرنسيون، فسجنوه في لبنان ثلاثين شهراً. قاد كتيبة من «الإخوان المسلمين» في حرب الإنقاذ سنة ١٩٤٨. دكتور في التشريع الإسلامي سنة ١٩٤٩، ومراقب عامّ لجمعية الإخوان المسلمين في سورية، واستاذ في كلية الحقوق بجامعة دمشق سنة ١٩٥٠، ثم عميد كليّة الشريعة سنة ١٩٥٥. تعاطى الصحافة فأصدر مجلة «حضارة الاسلام» في دمشق سنة ١٩٦٠، وتعاطى السياسة فانتخب عضواً في الجمعيّة التأسيسيّة سنة ١٩٤٩. له مؤلفات كثيرة ما زال بعضها مخطوطاً.

١٤

علي العسلي
نهضة أمة
في رجل واحد

الآن وقد استراح الشيخ المثقل بالأسى في قبره، وأصبح الصباح على مقبرة باب الصغير، فبدت هاتيك القبور البيضاء تلوح تحت أشعة الشمس كأنها أشرعة السفن المحطمة في عرض البحر، لا تلمح العين منها أكثر ممّا تلمح من بقايا الأطلال والأنقاض! وفي كل مجموعة من هذه القبور رفات شهيد وجثمان بطل.

هناك! أجل هناك، في ضاحية المدينة المحترقة المتهدمة، وعلى جنبات حي الميدان المملوءة حجارته وترابه بالقتلى الذين ماتوا برصاص الجيش واحترقوا بنيران الطيارات والمدافع، يرقد علي العسلي إلى جانب ولديه: الشهيد الأول شكري العسلي، والقتيل الثاني لطفي العسلي ضحية الأفعى وشهيد العمل. وعلى مقربة منه تقوم قبور بقية الشهداء الأولين عبد الوهاب الإنكليزي ورفقائه. ولكن هذا القدر الظالم أبى على أبي الشهداء أن ينصفه حتى بعد موته. فأبعد عنه قبرين عزيزين عليه: قبر ابنه حكمة وقبر حفيده فائق فقد كانا في احدى هضبات القنيطرة حيث سقطا قتيلين مجاهدين إلى جانب الشهيد الكبير أحمد مريود. وهكذا يموت العسلي الكبير بعد أن فجع بأربعة شباب من ولده بينهم اثنان ودعهما يوم مشيا إلى ميدان الثورة فماتا هناك ثم لحق بهما أمس، ولكنه لم يظفر

وأسفاه حتى بأن يكون قبره بجانب قبريهما، فكأن الدهر ضنّ عليه حتى أن يكون جاراً لهما في الموت، فأية ذكرى هذه التي يطويها علي العسلي في موته؟! إنها ذكرى المجد والتضحية مجتمعة في ذلك التمثال الحزين الصامت الذي غيبه القبر بعد خمسة وتسعين عاماً.

لا يستطيع قلم كاتب أن يمرّ بموت علي العسلي كما يمرّ بموت شيخ في حوالي المئة من عمره، مات بعد أن استوفى نصيبه من كل ما في الحياة من نعيم وبؤس، بل إن موت العسلي يطوي معه ذكرى نهضة أمة كاملة في رجل واحد. ففي مقتل شكري العسلي ذكرى الوطنية الأولى التي أيقظت في نفوس هذه الأمة حب التضحية والشعور بالكرامة القومية، وفي ذكرى حكمة وفائق الإبن والحفيد ذكرى أمجد صفحة يسجلها تاريخ الجهاد القومي للأمم الصغيرة المجتاحة بلادها. وفي مقتل العم وابن الأخ أسمى معنى من معاني البطولة في هذه العائلة الكريمة، وفي أبناء ذلك الشيخ المائت الذين تسابقوا إلى الموت في العمر الذي تحبب فيه الحياة وما في الحياة من شباب وجمال!

عم وابن أخ، كلاهما شاب في أنضر أيام الصبا والمرح، يصمدان لمقاتلة حملة عسكرية مجهزة بالمدافع والرشاشات، فيقول العم لابن أخيه اتركني هنا وانج بنفسك فإنك أحوج إلى الحياة مني. فيأبى ابن الأخ، ذلك الشاب الناعم اللاهي الذي كنا نرميه بالأنوثة والنعومة إلا أن يموت إلى جانب عمه. وهكذا يسقط الإثنان معاً، يجمع الموت بينهما كما جمعت الحياة. وهكذا، فالشباب إذ يذكرون فائق العسلي يفجعون عندما يذكرون رفيقاً لهم انسل من بينهم صامتاً، فإذا بهم يسمعون صوت بندقيته في خمائل الغوطة وغابات الزور، ويقرأون بيانات الثورة موقعة بتوقيع ذلك الكاتب الأديب الذي كانوا إلى حين قريب يقرأون له بذلك التوقيع الجميل «رسائل غرام» يترجمها في «الميزان» جريدة صديقه المرحوم أحمد شاكر الكرمي.

إن في موت علي العسلي مثاراً لأشجان نفوس أمضّها الحزن فأذواها، بل أن في موت الجسد ذكرى مصرع الحفيد. هذا يموت في حوالي المائة من عمره، وذاك يموت في حوالي الثامنة والعشرين في سن الصبا والحب والجمال.

هذه هي الذكرى الضخمة التي شيعتها دمشق أمس إلى القبر،

وذاك هو علي العسلي أبو ثلاثة شهداء، رآهم بعينه يسقطون قتلى في سبيل هذا الوطن الذليل المستباح، فإذا مشت عاصمة البلاد العربية وراء نعش العسلي فإنما هي تمشي في نعش يحمل أقدس الذكريات وأفجعها.

أيها الشيخ المثقل بالثكل والفجيعة!

لقد أحسنت إلى هذا الوطن المدين لك ولأبنائك وأحفادك بأمجد ما تدان به الأوطان لرجالها. وإنك اليوم لتموت وأنت لا تنتظر غاية غير الموت الذي وجدت فيه إحساناً لك وطمأنينة لنفسك وراحة لجسمك.

١٩٣٠/١٠/٢٦

هوامش

- **حي الميدان**: أحد أحياء دمشق الجنوبية. اشتهر بالثورة على الفرنسيين.

- **شكري العسلي** (١٨٦٨ ـ ١٩١٦): مناضل وسياسي سوري من زعماء النهضة العربية. نائب في مجلس المبعوثان العثماني، وعضو في الجمعيات العربية السرّية. حوكم في الديوان العرفي بعاليه وأعدم شنقاً.

- **عبد الوهاب الإنكليزي** (١٨٧٨ ـ ١٩١٦): سياسي سوري شهيد، ولد في دمشق، وتعلّم في مدارسها، ثم درس الإدارة والحقوق في المدرسة الملكية بالآستانة. محام، وقائم مقام في ولاية حلب، ومفتش للإدارة الملكية في ولاية بيروت. اقتيد إلى الديوان العرفي في عاليه، فحوكم بتهمة الخيانة، وحكم عليه بالإعدام، فأعدم شنقاً مع صحبه الشهداء. له مقالات ومحاضرات.

- **القنيطرة**: مدينة في جنوب سورية، ومركز محافظة الجولان.

- **أحمد مريود** (١٨٨٧ ـ ١٩٢٦): مناضل وطني، ولد في إحدى قرى الجولان (سورية). ثار على الفرنسيين منذ دخولهم سورية، فحكم عليه بالإعدام، وفرّ إلى شرق الأردن. شارك في الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥، وسقط سنة ١٩٢٦، حين غدر به بعض الشراكسة فأردوه في منزله.

- **الميزان**: صحيفة أسبوعية أدبية اجتماعية أصدرها أحمد شاكر الكرمي في دمشق في ٢٠ كانون الثاني يناير ١٩٢٥.

- **أحمد شاكر بن سعيد الكرمي** (١٨٩٤ ـ ١٩٢٧): كاتب وصحافي فلسطيني، ولد في طولكرم، ودرس في الأزهر بالقاهرة، ثم استقرّ في دمشق حيث أصدر مجلّة «الميزان». ترجم بعض الكتب، وراسل عدداً من الصحف العربية. جُمعت مقالاته بعد وفاته في كتاب.

١٥

الشريف
الحسين بن علي
صاحب الصوت الأول

كان الناس يظنون أن الصفحة الضخمة التي قلبت المستقبل، وغيّرت وجه التاريخ في الامبراطورية العثمانية، وأحالت بلاد العرب إلى ما هي عليه الآن، قد طويت واندثر أثرها، وأن صاحب هذه الصفحة الأسير في قبرص والمنفي في قلب البحر لن يخرج من منفاه الأبدي إلا إلى قبره.. ذلك القبر الذي كنا نشك في مكانه: أفي تربة الأروام وبين أحراج نيقوسيا أم في تربة الحجاز، وعلى مقربة من الصفا والمروة؟! وربما كان بعض الناس يتساءل: أيخلي الإنكليز سبيل الحسين ميتاً ويسمحون لبني هاشم بحمل جثمان سيدهم إلى الحجاز، أم أنهم لا يعفون عنه ولا يحترمون رهبة الموت كما يقول أمير الشعراء:

أمن سرق الخليفة وهو حي   يعف عن الملوك مكفنينا؟!

وهل جلالة عبد العزيز السعود يسمح لسيد الحجاز بالأمس أن يكون دفين تربته إذا عدت عليه المنون، أم يأبى على شيخ قريش أن يستريح حتى بعد الموت في دار قريش الأولى؟!

هذا كان حديث الناس في الأسبوع الماضي الذي نعت فيه رويتر منفي قبرص بالأمس وضيف عمان اليوم، ولكن الله شاء أن لا يموت الحسين، وأن يظل حياً، وأن يحال بين الإنكليز وبين تمثيل مأساة

ثانية في التاريخ، وأن لا يبلغوا من العرب ما بلغوه من الإفـرنسيين، وأن لا يكون مصير الحســين مصير نـابليون الأول، وأن يقـدر لمليك العرب وأبي ملوكهم رؤية بلاد عربية قبـل أن يغمض الموت جفنيـه، وأن يكون مقامه في بلد من بلاد الشام تحيط به قلوب تخفق بحبـه، وتغمره نظرات تفيض حناناً وعطفاً وإجلالاً.

ها هو الحسين إذن في عمان. وهـا هي الأردن من شواطىء العقبـة إلى أزرع، وهذه فلسطين من العريش إلى اليرمـوك، ها هي جمـاهير العرب تفد على قصر رغدان لتحية الأسد المـريض الذي كـانت أولى كلماته أول ما استطاع الكلام: «الحمد لله الذي ردّني عليكم وأراني وجوهكم، وأحاطني بأبنائي العرب في قلب بلاد العرب»، والذي كانت أولى نصائحه: «عليكم بالاتحاد فـوالله مـا ذهب بعظمة العـرب غير تفرق كلمتهم»، ثم سؤاله عن سورية وما فعل الله بقضيتها.

ها هو صوت الحسين يدويّ في بلاد العـرب من جديـد بعد أن خفت خمس سنين طويلـة، وقد كـان ذلك الصـوت أول ما ارتفـع في وجه الظلم أيام كان العرب يحنون الرقاب أمام الجلادين، ويقبلون أقدام السفاحين، ويحمدون الله الذي أرسل إلى بـلاد الشام جمـال باشـا فطهرها من «الخونة» المارقين أعداء الله والـدين وخليفة رسـول رب العالمين!.. هـا هو صـوت أبي علي يـرتفع من بـين القبور، ويختـرق الصحراء والبحر، وينادي بالاتحاد، ويدعو إليه، وينصـح العرب أن يعتصمـوا بحبله. وهـا نحن نسمع في نبـرات ذلك الصـوت صـدى الثورة العربية الأولى، ونحس في كل كلمة من كلماته نذيراً يهيب بنا: أن اعتبـروا بالمصـير الذي صـارت إليه بـلادكم التي ينعم الحلفاء باحتلالها بسيوفكم ودمائكم.

أجـل إن التاريـخ لم يرو فـاجعة أشـد ألماً وأكثـر إساءة من فـاجعة العرب: أمة تحتل بلادها بأيديها وتنقذها من الترك بسيوفها ودمائها ثم تسلمهـا إلى الأجنبي باسم الحـرية والإنقـاذ؟! لا بل ان البـلاد التي لم يسفك في احتلالها من أيدي الترك والألمان دم افرنسي واحد قد صارت للإفرنسيـين وحدهم، وها هم ينعمون فيهـا حكماً ونفـوذاً واستعماراً! وها هم يضنون علينا أن نكون وإياهم شركـاء في حكمها وإدارتها ونحن الذين احتللناها لا هم، ونحن الـذين استخلصناهـا بدمائنا وسيوفنا لا بدمائهم ولا بسيوفهم!

اللهم إنها فاجعة ما شهد التاريخ أشد منها أسى، ولا عرف العرب أنفسهم لها مثيلاً حتى ولا في الأندلس، لأن فاجعة الأندلس مهما عظمت فهي لا تعدو أن اسبانيا النصرانية عادت إلى وطنها الأصلي وأبادت العرب الذين احتلوها. أما سورية فقد احتلها من لم يسفك في سبيلها قطرة دم.

لقد دوّى صوت الحسين من جديد، ولكنه لم يرتفع بالثورة فقد استنفدت الثورة الأولى قوى العرب، والثانية قوى سورية، وإنما هو يرتفع بالدعوة إلى الاتحاد. وإنها لدعوة إذا لم تجب فهيهات أن يقوم في العرب من يدعو إليها بعد الحسين.

والآن. فاسمعوا أيها السوريون! إن صاحب الصوت الأول الذي نعته برقيات رويتر إليكم قد قام من قبره يدعوكم إلى حفظ كرامتكم، ولن تحفظ كرامتكم حتى تتحرر بلادكم. وهيهات أن يتحرر لكم وطن وأنتم مختلفون.

١٩٣٠/١٢/٥

هوامش

■ **الصفا والمَرْوة**: من شعائر الله في الحجّ، وهما صخرتان أكمتان قرب الكعبة وزمـزم، يسعى الحاجّ بينهما سبعة أشواط. كانتا مقدّستين في الجاهلية.

■ **أمير الشعراء، احمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢)**: من أشهر شعراء العـرب في العصر الحديث. ولد في مصر، ودرس الحقوق في فرنسا. شاعـر البلاط حتى نفي إلى إسبـانيا سنـة ١٩١٤. عـاد من المنفى سنـة ١٩١٩ ليصبـح شـاعـر مصر والشرق. تـوفّي في القاهرة. له ديوان «الشوقيات» وعدد من المسرحيات.

■ **رويتـر**: وكالـة أنباء أسّسهـا جول رويتـر (١٨١٦ ـ ١٨٩٩)، وهو صحـافي إنلكيزي ألماني الأصل.

■ **نـابوليـون بونـابرت أو نـابوليـون الأول (١٧٦٩ ـ ١٨٢١)**: ولـد في أجـاكسيـو (كورسيكا). قاد حملة إيطاليا الأولى سنة ١٧٩٤ والثانية سنة ١٨٩٦، ثم حملة مصر سنة ١٧٩٨. قنصل أول سنة ١٧٩٩، وقنصل لمدى الحياة سنـة ١٨٠٠. أمبراطـور فـرنسا سنـة ١٨٠٤. عزل سنـة ١٨١٤ ونفي إلى جزيـرة ألبا. عـاد بعـد أشهـر إلى باريس، فتحالفت أوروبا ضده وهـزمته في معـركة واتـرلو سنـة ١٨١٥ بعد حكم دام مائة يوم. نفي مجدّداً إلى جزيرة القديسة هيلانة وفيها كانت وفاته.

■ **العقبة**: خليج يقع شمالي البحر الأحمر بين شبه جزيرة سيناء والسعوديـة والأردن، وعليه مدينة العقبة وهي المرفأ الأردني الوحيد.

■ **أزرع**: بلدة سورية، ومركز قضاء في محافظة درعا.

■ **العريش**: مرفأ مصري على المتـوسط، وعاصمـة محافظـة سيناء، ومـركز حـربي على طريق مصر فلسطين.

■ **الـيرموك**: من روافـد الأردن. ينبع من هضبـة حوران، ويجـري في حدود سـوريـة، ويصب في الأردن جنوب طبرية. عنده انتصر خـالد بن الـوليد عـلى البيزنطيـين سنة ٦٣٦ م (١٥هـ)، فانفتحت أمامه أبواب الأمبراطورية البيزنطية.

■ **جمال باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢)**: هو القائد الملقب بجمال باشـا السفاح. قـائد الجيش العثماني في سوريـة سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٧. اشتهـر بالـديوان العـرفي الذي أقـامه في عاليه (لبنان)، وبظلمه في إعدام نخبة من شبان سورية ولبنان سنـة ١٩١٥ و١٩١٦. اغتيل في تفليس.

■ **الثورة العربيـة الأولى**: هي الثورة التي أعلنهـا الشريف حسين عـلى الأتراك سنـة ١٩١٦.

١٦

الشريف
الحسين بن علي
كيف تجاهلوا موته!

مات المارشال فوش قائد جيوش الحلفاء فنكسوا الأعلام، وخنقوا الرايات، وأعلنوا الحداد على دوائر الحكومة والمصالح الرسمية، فتنكس الأعلام وتخنق الرايات إعلاناً للحداد على عظيم من عظماء فرنسا.

مات كليمنصو أبو النصر، وأعلنت عليه فرنسا الحداد، فيجب أن تعلن سورية حدادها، وتطفح جرائد بيروت ودمشق بذكر مناقبه وجلائل أعماله وكيف مرض وكيف مات وكيف كان يتكلم ويأكل وكيف كان يخاصم أصحابه ويصالحهم.

ومات الجنرال ساراي الذي أحرقت دمشق على عهده وضربت بالمدافع وتطايرت أشلاء أبنائها بين دخان القذائف ولهيب الحرائق، ومع ذلك، فإن الخصومة تتناسى أمام رهبة الموت فلا يعدم الجنرال ساراي في هذه البلاد بعد موته من يبرق إلى أهله معزياً آسفاً. أما رايات الحكومة السورية فتنكس، وأعلامها فتخنق، وينتهي الحداد في الدوائر الفرنسية بعد ثلاثة أيام، ولكنه يظل معلناً في سراي الحكومة السورية أسبوعاً.

وهكذا كلما مات قائد كبير أو صغير، وكلما حزن عليه المفوض أو

مندوبه أو مندوب مندوبه فإن دوائرنا الرسمية وأعلام حكومتنا وجرائدنا تعلن الحداد وتعزي وتحزن وتحوقل وتسترجع، ويموت الحسين ملك العرب وأبو ملوكهم وحليف الملك جورج وبوانكاريه وويلسون وصاحب الكرسي العالي في مؤتمر الصلح وأول من أعلن الثورة والحرب على الترك والألمان وقاد العرب إلى ساحات النصر بجانب الحلفاء. يموت الشيخ القرشي العظيم فتحزن عليه أفئدة أربعين مليوناً من العرب، وتهتز دمشق هزة الأسى وتروع سوريا حزناً على شهيد «وفاء» الحلفاء واعترافهم بالجميل... فيتجاهل الفرنسيون موته فلا ينكس علم ولا تخنق راية ولا ترسل تعزية، فيا لها من عواطف «متقابلة» تسديها فرنسا في سورية إلى هذا الشعب الذي يطلبون إليه أن يعيِّد في أعيادهم ويبكي في مآتمهم.

عيِّدوا يا سوريون يوم ١٤ تموز، وعطلي أعمالك يا حكومة، وأوقفي جلساتك يا محاكم فاليوم عيد الحرية! وتعالوا يا موظفون ويا وجهاء ويا علماء فإن المندوب يستقبلكم ويتقبل تهانيكم. أما الموظف الذي لا يشترك في التهنئة فإن صفحته سوداء، ويجب أن يستغنى عنه في أول فرصة.

وهذا عيد جان دارك تعطيل عام في الدوائر الرسمية وفي المدارس الحكومية، وليرجع الفلاحون الذين جاؤوا إلى دمشق من أقصى القرى في الغوطة والمرج ووادي العجم، ليرجعوا إلى قراهم فإن الدوائر معطلة والمحاكم مقفلة إكراماً لجان دارك.

أما هم بعينهم الفرنسيون في سورية فإن دوائرهم لا تقفل ساعة في عيد شهدائنا ولا في عيد مولد نبينا ولا في عيد نحرنا أو «انتحارنا...» ورايتهم العظيمة التي تخفق في سماء دمشق بحق الفتح والحرب والقوة واجتياح أوطان الضعفاء من أنصارهم وحلفائهم، هذه الراية تظل خفاقة يوم يموت الحسين حليفهم ونصيرهم وأبو أصدقائهم في عمان وفي بغداد.

أجل، يموت الحسين فتبكيه الثورة العربية والحرب والسلم والهدنة، وتروع الجزيرة من شواطىء عدن إلى خليج فارس، وتصمت دمشق صمت الرهبة والأسف، ولكن الفرنسويين يتجاهلون هذا الحادث الجلل، ويتجاهله معهم هؤلاء الذين أقاموهم حكاماً وجعلوهم رؤساء ووزراء، فلا يفكرون بأن ينكسوا هذه الراية المزيفة على سيد العرب

التي طالما نكسوها حداداً على موت جنرال أو مصرع قائد يموت في أقصى المعمورة.

لا ينس هؤلاء الذين يضنون برايتهم المزيفة أن تنكس حداداً على الحسين أنهم كانوا أول من بايعه بالخلافة، ولا ينسوا أنهم كانوا قبل توليهم الحكم فخورين بوسام النهضة العربية الذي منحهم إياه ذلك الملك الميت.

لقد ضنّ الفرنسويون بهذه العاطفة «المجانية» على العرب وعلى السوريين الذين يحتلون بلادهم، ولكن ما بال الحكومة تتجاهل هذا الواجب وقد كان رجالها إلى عهد قريب من الداعين إلى الله بضراعة وخشوع أن يطيل عمر جلالة المنقذ الأعظم ويحفظ صاحب عرش سورية فيصل الأول، أيريدون أن يكتب لهم المندوب بأن يخجلوا ويعاملوا الملك حسين سيدهم الأول كما يعاملون الجنرال ساراي بعد موته أو المارشال فوش أو كليمنصو! ان مثل هذا الجواب لا توضع في قضائه القرارات المصدقة من مفوض أو من مندوبه بل هو مروءة في رؤوس الرجال وعاطفة في صدورهم لا يمنعهم أحد أن يظهروها إذا أرادوا ولكنهم تبع في كل شيء حتى في العواطف!

والمجلس البلدي؟ ما شأنه في هذا العقوق وهو مؤسسة أهلية، فلماذا لم ينكس رايته وهو أول من رفعها يوم توج فيصل ملكاً على سورية، أخشي الحل أم خشي أن يغضب الأسياد؟

إننا نصارح الفرنسويين الذين لا نزال نطلب منهم التفاهم النزيه أن مظاهر الحزن والفرح لها قيمتها في النفوس، وأن هناك مجاملات لا يربحون من إهمالها وتجاهلها، فكلما زادونا إهمالاً زدناهم تجاهلاً وجفاءً ونفوراً، فإن رفضوا أن يشاركونا في عيد شهدائنا فسيأتي يوم يعد فيه من يشاركهم في عيد حريتهم مسيئاً إلى أمته وشهدائه، وما داموا تجاهلوا واجب المجاملة في موت أكبر رأس في العرب، فإن العرب ولا سيما السوريين أقدر منهم على تجاهل أوروبا وكل رأس فيها في المآتم والأعياد.

أيها الفرنسيون:

إننا بشر مثلكم، لنا كرامة، وفينا عاطفة، فإن حبستم عاطفتكم عنا في يوم مأتم مليكنا فالحياة مملوءة بالمآتم والأعياد، وكما تدين تدان.

١٩٣١/٦/٩

هوامش

- **المارشال فردينان فوش Foch** (١٨٨٥ ـ ١٩٢٩): مارشال فرنسي قاد جيوش الحلفاء إلى النصر النهائي في الحرب العالمية الأولى.
- **جورج كليمنصو Clémenceau** (١٨٤١ ـ ١٩٢٩): صحافي وسياسي فرنسي، ورئيس الوزارة سنة ١٩١٧. لقّب بأبي النصر. وقّع معاهدة فرساي سنة ١٩١٩.
- **الجنرال ساراي**: ثالث المفوّضين السامين في سورية ولبنان. جاء بيروت بعد الجنرال ويغان في مطلع سنة ١٩٢٥، وغادرها في أواخر العام نفسه. مارس أعماله ومسؤولياته بروح عسكرية صارمة.
- **جورج الخامس ابن الملك إدوار السابع** (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦): خدم في سلاح البحرية قبل أن يعتلي العرش. لم يتدخّل في السياسة إلا في حالات نادرة، وذلك بناءً على نصيحة مستشاريه الدستوريين. زار الهند وأبدى اهتماماً خاصاً بها.
- **ريمون بوانكاره Poincaré** (١٨٦٠ ـ ١٩٣٤): محام ورجل دولة فرنسي. رئيس الجمهورية سنة ١٩١٣ ـ ١٩٢٠.
- **توماس ويلسون** (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤): رئيس الولايات المتحدة من سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩٢٠.
- **جان دارك Jeanne d'arc** (١٤١٢ ـ ١٤٣١): بطلة فرنسية وقديسة ساعدت الملك شارل السابع، وردّت الانكليز عن حصار أورليان سنة ١٤٢٩. قبض عليها وأحرقت في روان.
- **الغوطة**: هي البساتين المحيطة بدمشق، ويرويها نهر بردى.
- **المرج**: جانب من غوطة دمشق، أو موقع عند أطرافها الشرقية.
- **وادي العجم**: منطقة سورية تقع غرب دمشق، وقاعدتها بلدة قطنا.
- **هذه الراية تبقى خفاقة يوم يموت الحسين حليفهم... في عمان**: يعني الأمير (الملك في ما بعد) عبد الله.
- **... وفي بغداد**: يعني الملك فيصل.

١٧

محمد علي باشا صوت عربي جديد

في دمشق اليوم رجل مصري كبير وعالم محترم ومحام من محامي الطبقة الأولى ووزير سابق وسكرتير عام لحزب سياسي معروف هو الأستاذ محمد علي باشا الذي رافع في القدس عن البراق أمام اللجنة الدولية والذي وضع ذلك الدفاع الممتاز.

هذا الرجل الممتاز هو اليوم ضيف العاصمة العربية الكبرى وموضع احتفاء رجالها وإكرامهم. وما شهدنا مصرياً قبله اتصلت أسباب المودة والثقة بينه وبين رجالنا مثل ما اتصلت بين محمد علي باشا وبين الطبقة الراقية المفكرة، فإذا قدر لك وحضرت مجلساً من مجالس هذه الطبقة رأيتَ محمد علي باشا بينهم كأنه واحد منهم لا تشعر بأن في هذه النفس الوديعة غرابة عن نفسك، ولا تجد في حديثه ولهجته وحتى ألفاظه إلا كل محبب إلى قلبك وسمعك.

ليس للغرور سبيل إلى الرجل، فهو إذا تكلم فإنه يخوض أشرف الموضوعات وأجلّها بأوجز عبارة وأساس لفظي، لا يلقي عليك دروساً في الوطنية والسياسة أو العلم رغماً عن أنه من أمة ألقت إليها الشعوب العربية مقاليد الزعامة في كل شيء.

لقد تساءل بعض الناس قائلاً: «جاء إلى دمشق مصريون كثيرون بينهم الوزير والعالم والكاتب، فما شهدنا مثل هذه الحفاوة التي

أحيط بها محمد علي باشا؟»

والحقيقة فإنه سؤال تسمعه من أكثر من واحد، وقد أجاب عنه بعض الحاضرين جواباً نحسبه على شيء من الصحة، فقال: إن المصريين الذين جاؤوا إلى دمشق من قبل ـ عدا أمير الشعراء أحمد شوقي بك ـ كانوا يأتون كأنهم سياح أجانب، يتمتعون بمشاهدة الآثار ورؤية المناظر الطبيعية أو هم بعبارة مختصرة مصطافون ـ يعيشون في مصايفهم بعيدين عن أهل البلاد، لأنهم يعتقدون بأنهم أجلّ من أن يمتزجوا بهم وأنهم من أمة راقية غنية، فضلاً عن تلك النظرة التي باعدت بينهم وبين أهل البلاد وهي النظرة الجنسية التي اسمها «الفرعونية...». فقد كانت عاملاً كبيراً في هذا التباعد لأن السوري العربي الذي يتهافت على مصر ويجد فيها الزعيمة العربية الكبرى، ويريد أن يجد في المصري ذلك الشقيق العطوف، كانت نفسه تشمئز كثيراً عندما يرى أن الذين اتخذهم زعماء وقادة هم بعيدون عن مبادلته هذا الشعور، وأن هذه «النماذج» التي رآها في المصايف لا تحس أقل إحساس نحو هذه البلاد، ولا تريد أن تمتزج بها أو تساويها في القومية على الأقل، فضلاً عن أن في مصر دعوة إلى الابتعاد عن كل ما هو عربي وإلى قطع كل صلة بالقومية العربية رغماً عن هذه الأربعة عشر قرناً التي قضت على كل دين غير الإسلام، وعلى كل لغة غير العربية، وعلى كل كتاب غير القرآن، ورغماً عن أن الرجوع في مصر إلى الفرعونية كالرجوع في سواحل سورية إلى الفينيقية. هذا إذا لم نقل كما قال الأستاذ محمد فريد وجدي من خسارة مصر في محاولتها الرجوع إلى الفرعونية عطف أربعين مليوناً من العرب وأضعافهم من المسلمين الذين ألقوا إليها بمقاليد الزعامة.

هذا هو السر في ذلك التباعد الذي كان بين أهل البلاد وبين المصريين، بينما هذا التقارب الشديد وهذه المودة والثقة التي تجدها تفيض على مجالس محمد علي باشا ترجع إلى عكس العوامل السابقة، لأن الرجل أعقل من أن يخرج مصر من زعامة الشعوب العربية، وأجلّ من أن ينظر إلى بلاد الشام نظرة الإنكليزي المتعجرف المدل على العالم بقوته وامبراطوريته وأسطوله وثروته!... فقد جاء إلى القدس كمسلم عربي تهمه قضية البراق من الوجهتين الدينية والقومية، فسمعنا صوتاً مصرياً عربياً ينادي بالعربية

والإسلام. وليسمح لنـا الأستاذ محمـد علي بـاشا أن نقـول إننا لم نسمع مثل هذا الصوت من قبل ما عدا صوت شيخ العروبـة أحمد زكي باشا الذي تجاوز الحجاز ونجد وسـواحل اليمن وبـلاد الشام والعراق. أما صوت محمد علي باشا فقد كان صوتاً جديداً أنست به أسماعنا، وتفتحت له قلوبنا.

ولما جاء إلى الشام، سمعنا هذا الصوت يدويّ عالياً على إحـدى قمم لبنان في دار الأستاذ عجاج نويهض، وسمعنا معه دعوة أخرى غـير العمل للقضية العربية الكبرى ومصر في الطليعة، دعوة إلى المحافظة على الكرامـة والأخذ بـأسباب العلم الصحيـح. وها نحن في دمشق نسمع هذا الصـوت يدعـو إلى الثقة بمصر وإلى أنهـا عربيـة بلغتها وقلبها ودينها، وإلى أن هـاتيك الأصـوات التي تحشرج على ضريـح الفرعونية لن تبلغ من نفـوس الشعب المصري مبلغاً، وأن أصحـابها لا يمثلون الشعور المصري ولا ينـوبون في الإعـراب عنه، وسنسمـع بعد قليل أصواتاً عالية تقضي على هاتيـك الأصوات النـافرة قضـاءً نهائياً.

هذه خير بشرى يحملهـا إلينا الأستـاذ محمد عـلي باشـا الذي يقيم اليوم بيننا إقامة يأنس بها ويستحبها. والحقيقة أن وجود رجل مثله يحمـل هذا العقـل الراجـح والنفس الكريمـة الوديعـة أفضل لمصر والعرب من مليون مقالة يكتبهـا أصحاب الـدعوة الفـرعونيـة ودعاة الاشتغال بإحياء الموتى... بل ان خطبة واحدة يلقيها في مصر رجـل من هـذا الطراز الممتـاز كفيلة بـالقضاء عـلى كل دعـوة عقيمـة من دعوات الفرعونية.

١٩٣٠/٢٩

هوامش

■ **محمّد علي بن توفيق بن إسماعيل بن ابراهيم باشا (١٨٧٠ ـ ١٩٥٥)**: من أمراء مصر سابقاً، وأخو الخديوي عبّاس، ولد في القاهرة، وتعلّم في مدارسها ثم في معاهد سويسرا. قام برحلات كثيرة، وأجاد عدّة لغات. آلت إليه ولاية العهد مرّتين ولم يحكم. توفّي في لوزان بسويسرا ودفن في القاهرة. له كتب تضمّ مذكراته ومشاهداته في رحلاته الكثيرة.

■ **البُراق**: أو حائط المبكى، وهو الحائط العربي للمسجد الأقصى في القدس، ويرى اليهود انه يشكل جزءاً من السور الخارجي لهيكل سليمان، فهم يعتبرونه من الأماكن المقدسة عندهم ويحجّون اليه من جميع انحاء العالم.

■ **محمد فريد بن مصطفى وجدي (١٨٧٨ ـ ١٩٥٤)**: باحث كبير، ومؤلف دائرة المعارف. ولد ونشأ في الإسكندرية، وتنقل بين دمياط والسويس حيث أصدر مجلة «الحياة». استقر في القاهرة، وحرّر عدداً من الصحف والمجلّات المصرية. كما ألّف دائرة المعارف في عشرة مجلدات، وترك عدداً من الكتب في موضوعات شتّى.

■ **أحمد زكي بن إبراهيم باشا (١٨٦٧ ـ ١٩٣٤)**: كاتب مصري، ولد في الإسكندرية ودرس الحقوق في القاهرة. مترجم لمجلس النظار، فسكرتير أول، فعضو مشارك في مؤتمرات المستشرقين. قاد فكرة إحياء الكتب العربية، وأنشأ مكتبة ضخمة، ودعا نفسه شيخ العروبة وداره بيت العروبة. له مؤلفات كثيرة.

■ **عجاج نويهض (١٨٩٧ ـ ١٩٨٢)**: مجاهد وأديب وسياسي لبناني، ولد في رأس المتن، وتعلّم في برمانا وسوق الغرب، ثم درس الحقوق في القدس. التحق بالحركة العربية في دمشق، لكنه غادرها إلى فلسطين عند دخول الفرنسيين. سكرتير المجلس الإسلامي الأعلى ومساعد مفتش المحاكم الشرعية في فلسطين. ساهم في تأسيس حزب الاستقلال العربي، وفي إصدار مجلة «العرب» السياسية الأسبوعية في القدس. استقر في عمان بعد حرب عام ١٩٤٨، فتقلّب في عدة مناصب، منها مدير عام الإذاعة الأردنية ومدير عام المطبوعات والنشر. عاد إلى مسقط رأسه سنة ١٩٥٩.

١٨

يوسف يزبك
الصحفي اللبناني
المطالب بالوحدة

لو أن حكومة «الإصلاح» في لبنان طاردت الرشوة في كل ناحية من نواحي الحياة العامة لما كانت قصرت مطاردتها هذه التي تكاد السجون أن تمتلىء من جرائها بالموظفين كباراً وصغاراً على هؤلاء الموظفين فقط، بل لكانت طاردت الجرائد التي روّجت لهؤلاء الموظفين والنواب الدعوة والمديح في خلال نيف وستة وستين يوما كانت تحشو أعمدتها بالرسائل والمقالات المأجورة في مدح «نزاهة» هذا المدير أو ذاك النائب أو ذلك الرئيس، وهي تعلم ورئيس حكومة «الإصلاح» يعرف أن هؤلاء الممدوحين بنزاهتهم وكفاءتهم ليسوا إلا مرتكبين عاجزين يتخذون الوظيفة والنيابة وسيلة للغنى والثروة وإضاعة حقوق الضعفاء والفقراء تحت ستار السلطة الحكومية والنيابة وبين ضجيج الجرائد المرتشية المضللة التي كانت تقطع الطريق بدعايتها الكاذبة على الذين تحدثهم أنفسهم من المظلومين المضيعة حقوقهم بالشكوى.

أجل لو أن صاحب سياسة الإصلاح والتطهير قرر مكافحة الرشوة مكافحة عامة أينما كانت وحيث وجدت لكانت بعض الصحف التي تصدر الآن نالت نصيبها من السجن بقدر ما يناله بعض النواب والموظفين والسماسرة، لأن تلك الصحف كانت وكان أصحابها في

مقـدمة السمـاسرة للرشـوة والارتكـاب وتضييـع حقـوق الضعفـاء والفقراء. ولكن هؤلاء «الإصلاحيـين» لم يتمرجلـوا إلا على جـريدة شريفة وعلى كاتب نزيه هما «السيار» وصاحبها الأستاذ يـوسف بك يزبك الصحفي المخلص والكاتب الجريء الشجاع، فقد طـاردوه في جريدته، وطاردوه في كـل جريـدة كتب فيها، حتى غـدا عنوانـاً حياً للعسف والاضطهاد، وحتى غدا أولئك الذين يطـاردونه لا يتـورعون عن أن يكونوا منتقمين لا معاقبين إذا جاز أن يعـاقب الحاكم الفـرد المنصوب من قبل الأجنبي مباشرة كل جريدة لا تروقه سيـاستها ولا ترضيه لهجتها.

إننا في سورية لا نعرف كـاتباً صحفيـاً لبنانيـاً ـ ولا نريـد أن نقول مارونياً أيضاً ـ يطالب بـالوحـدة السوريـة بين أجـزاء هذا الـوطن المقطع بل بينها وبين البلاد العربية جميعاً إلا جريدة «السيار» وإلا صاحبها يـوسف يزبـك. بل نحن لا نستطيـع أن نفهم مغزى لهـذا الانتقام الذي ينزله رجال حكومة لبنان بيوسف يزبك إلا لأنه يطالب علناً بالوحدة ويشنع على مهازل السياسة التي جعلت من كل مـدينة وبضع قرى «دولة» منفصلة عن الثـانية، ونـريد أن يفهم هؤلاء أن يوسف يزبك الذي هاجم الرشوة قبل أن تنكشف وهـاجم المرتشـين قبل أن يؤخذوا بـالجرم المشهـود لا يستحق العقوبـة والانتقام بـل يستحق التقدير والثناء لو أن هناك شيئاً من العدل والتجرد، ولكنهم صبّوا عليه انتقامهم منذ تبوأوا عرش «الديكتاتـورية» القـائمة عـلى قوة الأجنبي، فعطلوا جريدته مثنى وثلاثَ ورباعَ، وراحوا يطـاردونه في كل جريدة أخرى عاون في تحريرها أو تولى سياستها، فقد عطلوا «السيـار» ثم أتبعوهـا» بـ «صدى السـاحل» ثم ألحقـوها بجـريدة «الأخبار» الطرابلسية لأن يوسف يزبك كتب فيها الحقيقة في بلـد لم يتعود حكامه سماعها من أفواه المتجردين المخلصين.

هـذا هو الصحفي اللبنـاني الشريف، بل هـذا هو الكـاتب الماروني الوحيد الذي طالب بوحدة البلاد ساحلها وداخلها وشامها وعراقها، وهذا هو المضطهد المطارد الذي لم يشبعوا منه انتقاماً وإرهاقاً، ولو كان يوسف يزبك في وطن مستقـل أو لو كـان في شعب يشعر بمعنى الحـرية والكـرامة ويطـرب لقول الحق، لـرأيناه مـوضـع التقـديـر والتقـديس من رجال الحكم ومن رجـال الشعب معاً، ولكن يـوسف يزبك في لبنان يصدر جريدته في وطن يسود فيه كل حـاكم ويمرح في

جوانبه كل من كان الأجنبي نصيراً له وظهيراً، فكيف تكتب الحياة لجريدة كـ «السيار» لكاتب أبيّ النفس مثل يوسف يزبك؟

إننا لا نستطيع أن نوفق بين مطاردة الرشوة والنزاهة في بلد واحد ومن قبل حاكم واحد، فالجرائد التي عاشت على الرشوة، وعلى السمسرة للمرتشين تعيش في لبنان، وتكتب لها الحياة الطويلة وجريدة مثل «السيار» حاربت وتحارب الرشوة والمرتشين تسحق سحقاً ويرهق صاحبها شر إرهاق.

إن الوطنيين السوريين لا يتلقون اضطهاد يوسف يزبك في لبنان بغير الاشمئزاز والنفور. وان إخوانه الذين يعرفون نزاهته وإباء نفسه لا يملكون غير نفوسهم فيكنون له في أعماقها منتهى الإعجاب والإحترام، وان زملاءه الصحفيين الذين واساهم في محنتهم ودافع عنهم في ظلاماتهم، لاينسون له مواقفه الشريفة في قول الحق وصرخاته الداوية في وجوه الظالمين.

أما هؤلاء الذين يضطهدونه فلن يحولوا دون دورة الفلك، وليس ربك بغافل عما يعملون.

١٩٣٢/١٢/١١

هوامش

■ **يـوسف إبراهيم يـزبـك** (١٩٠١ ـ ١٩٨٣): صحـافيّ ومؤرّخ لبنـاني، ولـد في بلـدة الحدث، وتعلّم في مدارس بيروت. أصدر جريدة «الإنسانية» في بيروت سنة ١٩٢٥، ثم جريدة «السيّار» سنة ١٩٣١، وحرّر عدداً من الصحف اللبنانية. أصـدر سنة ١٩٥٥ مجلّة فصلية تاريخية هي «أوراق لبنانية»، فاستمرّت بضع سنوات. توفي في بيروت.

■ **حكـومة «الاصـلاح» في لبنان**: في صيف ١٩٣٢ علّق المفـوّض السـامي الـدستـور، وفوّض الى الرئيس الدبّاس صلاحيات الحاكم المطلق على رأس مجلس من المـديرين، فدعيت حكومته هذه «حكومة الاصلاح».

■ **السيَّار**: جريدة يومية سياسية أصدرهـا يوسف إبـراهيم يزبـك في بيروت في ٦ أيـار / مايو ١٩٣١.

■ **صدى الساحل**: هي مجلة «الذكرى» التي كانت تصدرها سابقاً المدرسة الداوديـة في عبيه. وهي جريدة يومية اشتراكية وطنية، صـدر عددهـا الأول ببيروت في ٢٩ أيـار/ مايو ١٩٣٢، لكنّها عُطّلت بموجب مرسوم جمهوري في ٤ تموز/ يوليو ١٩٣٢.

■ **الأخبار**: جريدة يومية سياسية أصدرها جبر جوهر ويـاسر أدهمي في طرابلس في ٢٥ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٣٢.

١٩

عمر نبهان
الرجل الذي مات
ثلاث مرات

قد تكون الميتة التي ماتها عمر نبهان أفجع ميتة عرفناها في هذا البلد، وقد يكون مصابه والمصاب به معاً أوجع مصاب بين العائلات والأسر.

شاب في مقتبل العمر وريعان الصبا عاش ثلاثين سنة وليس له في هذه الحياة سوى أم وشقيقة، ما رأيت شاباً أكثر حباً لهذه الأم ولتلك الشقيقة من عمر نبهان. أما الشقيقة فقد ماتت في أول الأسبوع الماضي. وأما الشقيق فقد مات أمس في نهاية الأسبوع نفسه، وأما الأم فلست أعلم في اللغة العربية كلمة تنطبق عليها بعد هاتين الفاجعتين العاجلتين غير كلمة «ثكلى»، ولكن ثكل أم عمر نبهان قد فاق في وجعه وفجيعته وألمه ثكل الثاكلات!

لقد مات عمر نبهان ثلاث مرات في أسبوع واحد! ماتت شقيقته أمام عينيه، وأنا الذي أعرف مقدار حب عمر لهاتيك الشقيقة أقول إن موتها كان بالنسبة إليه موتاً له بكل ما في الموت من معنى، فقد تهدمت قواه وتضعضعت أعصابه فلم يقو على حمل هذه المصيبة، حتى إذا نزل به المرض نزل في جسم متهدم وسطا على قلب واجف هالع سحقه المصاب سحقاً فلم يستطع أن يقاوم الداء أكثر من ستة أيام فاستسلم للموت قبل أن يأتيه الموت وأعلن لأصدقائه في اليوم

الأول من مرضه أنه مائت لا محالة، ولما سألته في اليوم الثاني كيف أنت يا عمر؟ أجابني قائلاً: لقد انتهيت!

هاتان هما المرتان اللتان ماتهما عمر نبهان في أسبوع واحد، وأما الثالثة فقد تكون أوجع وأفجع من الإثنتين هي هذه الأم التاعسة التي أصبحت بحد ذاتها كتلة حية من حزن وتفجع تدب على الأرض في شخص امرأة عجوز تكلى ليس في مقدور المعزين أن يتمنوا لها أكثر من الصبر، ولكن أين للصبر وأين للزمن وأين لجميع بهارج الحياة أن تنسي أماً مثل هذه الأم ذكرى ولد ما نامت لها عين في خلال ثلاثين سنة قبل أن تنام عيناه، فقد كان عمر في كثير من الليالي يعود إلى البيت متأخراً، ولكنه مهما تأخر ومهما سهر فإن عين أمه ساهرة تنتظره.

لقد كان أخوف ما يخافه من الموت هو المصير الذي ستصير له أمه بعد موته لما كان يعرف فيها من حب له يكاد يكون عبادة، وكان يعلن لجميع عواده أنه سيموت، ولكنه كان يتجلد أمام أمه فقط ويعلن لها أنه في خير. وكانت الأم هي أيضاً تتصنع الطمأنينة أمامه وتخفي جزعها وهلعها عليه، بل كان عمر يغمر وجهه باللحاف ليخفي دمعة تنهمر من عينه كلما ذكر شقيقته ونفسه ومرضه، وكانت الأم في الوقت نفسه تنتهز فرصة وجود الزوار والأطباء في غرفته فتخرج إلى غرفتها لتبكي ما شاء لها الله أن تبكي، حتى إذا خلت غرفة المريض من الناس عادت إليها بابتسامة مصطنعة اقتطعتها من صميم اليأس وقلب الحزن والتفجع، فكان كلاهما يخدع صاحبه بمظاهر الخير والاطمئنان، وكان الإثنان يعرفان أنهما يخدعان بعضهما بعضاً! وهكذا يموت عمر نبهان أفجع ميتة بل هو يموت ثلاث مرات في أسبوع واحد.

قد يعذرني قراء «القبس» حتماً إذا وقفت صدر الجريدة في هذا اليوم على بكاء عمر نبهان، وأنا الذي ما كنت أطيق أن لا أراه في اليوم الواحد أقل من ثلاث مرات.

كنت أذهب إلى السراي لأصطاد خبراً لجريدتي على أن أعود لأكتبه فوراً، ولكن عمر كان يصطادني بحديثه العذب ونكته المبهجة فأنسى الخبر والأخبار والجريدة، فإذا دخلت ديوان وزارة الداخلية فلا

يقدر لي الخروج منه إلا بين غبار الكناسين والفراشين وبعد انصراف جميع من في السراي.

واليوم يموت عمر نبهان فتشيع دمشق أذكى شاب من شبابها، وتفقد حلقات الأدب والسياسة والسمر شخصية فذة هيهات أن تعوض.

لقد اشتغل الفقيد في الصحافة نيفاً وخمس سنين، فكان مثال المخبر الذكي الذي يستدرج كبار المتكتمين من الرجال الرسميين بخفة روحه وابتسامته الطبيعية المحببة إلى الإفضاء بما في رؤوسهم من أخبار وآراء، فقبض على ناصية خمس صحف يومية في دمشق في خلال الثورة فكان يغذيها بأخبار الثورة والثوار والمعارك التي تنشب في جميع أنحاء الغوطة وضواحي دمشق، بأسلوب موجز لبق يأمن به شر قلم المراقب الأحمر في ظلال الإدارة العرفية العسكرية، أما الأخبار اليومية العادية فقد كان يكتبها بعبارات مختصرة جداً حتى أنني أذكر يوماً أن الأستاذ فارس بك الخوري سأله: أتكتب أنت أخبارك يا عمر بلغة التلغرافات؟

كانت تتألف في قهوة الكمال في الشتاء وقهوة الحاج علي في شارع بغداد في الصيف، حلقة يومية بين الساعة السادسة والتاسعة من شعراء وصحفيين منذ خمس سنين فكان الملازمون على حضورها يومياً الأستاذ شفيق جبري والزميل الأستاذ معروف الأرناؤوط والسادة شفيق شبيب وظافر الأتاسي وكاتب هذه السطور وغيرهم من بعض الصحفيين والموظفين الذين يرتادون هذه الحلقة بين يوم وآخر، ولكن واسطة عقدها كان الفقيد وحده، فالحديث حديثه، والنكتة نكتته، فإذا جاء إلى دمشق أديب مصري أو عراقي أو لبناني فإن حلقة عمر نبهان مثواه ومبتغاه. واليوم تفقد هذه الحلقة محدثها الذي لا يُمل حديثه وسميرها الذي لا ينضب معين أدبه ونكاته الحلوة المبهجة.

لم يكن عمر نبهان شاعراً، ولكنه كان يحفظ أفضل الشعر القديم والحديث، وكان له ذوق في نقد الشعر يندر أن يكون لغيره. وكان شغوفاً بشعر المتنبي وشوقي، يروي منهما الروائع الطيبة. فإذا نظم شوقي قصيدة جديدة كان عمر نبهان أول من يحفظها ويرويها في دمشق.

ولم يكن كاتباً سياسياً، ولو أراد هذه المكانة لما زاحمه أحد عليها في دمشق، ولكنه رحمه الله كان لا يكلف نفسه عناء كتابة المقالات اليومية. أما إذا كتب بين حين وآخر قطعاً صغيرة سياسية فإن له أسلوباً لاذعاً تهكمياً يلبسه ثوب النكتة، ولكن في طياته السم الزعاف.

كان يقرأ المقالة السياسية فيملي رده عليها فور انتهائه من قراءتها. ولست أخجل إذا قلت إنني أنا مدين شخصياً بأكثر مقالاتي التي لقيت عند الجمهور استحساناً لملاحظات عمر نبهان وأفكاره، لا سيما بعض المقالات التي كتبت في هاتيك الغمرة السياسية قبل عشرين كانون وبعده.

إن خسارة عمر نبهان ليست خسارة عادية، فقد كان ذكياً إلى أبعد حد، وكان عصامياً بنى نفسه بنفسه، فوصل إلى وظيفة مميز في ديوان وزارة الداخلية بكفاءة يشهد له بها كبار الموظفين القدماء.

والآن يطوي الموت هذه الصفحة المشرقة من الأدب والذكاء والسمر، فنقف على قبر عمر نبهان باكين مودعين وداعاً لا لقاء بعده في هذه الحياة العابثة المستهزئة التي لا تستحق كما قال أمس بعض الأصدقاء أن يغضب في سبيلها إنسان صديقاً كان أو عدواً.

أيها الصديق الغالي!

إنني أبكيك بدموع كنت تعلم أنني لا أذرفها إلا في كبار المصائب، ومصابك أنت يا عمر إحدى هذه المصائب الكبرى التي لقيتها في حياتي.

إنني أودعك وأذكرك بالموت الذي كنت تحفظ فيه أجمل ما قيل من الشعر. ولطالما رددت على مسامعي قول شوقي:

أخ كان يملأ أمس الفضاء	ويحيي الحياة ويجري العمر
نزيل لعمري غريب الوطاء	غريب الغطاء غريب الحجر
لدى منزل كبيوت الكراء	مرراً خلا مراراً عمر
وليس بنافعه الزائرون	وليس بضائره من هجر
يزار كثيراً فدون الكثير	فغباً. فينسى كأن لم يزر
فيا ميت أمس عدتك الرياح	وحياك في الفترات المطر
لقد نفض الليل منك اليدين	وأدرك فيك النهار الوطر

فـأين شبـاب كحلم الـعـروس ضحـوك العشيـات طلق البكـر
فقل للصديق طـوينـا الحـديث وقـل للـعـدو دفنـا الخبـر
وهيِّىء مكـانـهمـا في التـراب فـإن ركـابـهمـا منتظـر

أجل! أيها الصديق. لقد فقدناك، وها أنا أبكيك وأرثيك بأجمل شعر كنت تحبه وتحفظه، وها نحن أصدقاؤك ورفاقك وقد طوينا الحديث، وها هم أعداؤك وقد دفنوا الخبر. ولكن أيّ خبر أفجع من خبر دفنك؟ وأي حديث أغلى وأعذب من حديثك؟

وها أنا الساعة أكتب آخر كلمة فيك وقد مرت جنازتك بي وسمعت صوت المؤذن أمامها يقول: لا إله إلا الله في كل لمحة ونفس.

١٩٣٣/٢/١٠

هوامش

■ **شفيق بن درويش جبري**: أديب لغوي، وأستاذ جامعي. ولد في دمشق، وتلقّى علومه في مدرسة الآباء اللعازاريين بدمشق. عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وفي مجمع فؤاد الأول بالقاهرة. أستاذ في الجامعة السورية، ثم عميد كلية الآداب فيها سنة ١٩٥١. له عدة كتب.

■ **معروف بن أحمد الأرناؤوط (١٨٩٣ ـ ١٩٤٨)**: كاتب وصحافي، ألباني الأصل، وعضو في المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد في بيروت ونشأ فيها، ثم انتقل به والده إلى دمشق فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، وفيها أصدر سنة ١٩١٨ جريدة «فتى العرب»، فاستمرت تصدر حتى وفاته. له عدة مؤلفات أشهرها «سيّد قريش» في ثلاثة أجزاء.

■ **أحمد بن الحسين الملقّب بأبي الطيب المتنبي (٩١٥ ـ ٩٦٥م)**: أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي، ولد في الكوفة، ونظم الشعر فتى، فتكسّب به. اتصل بسيف الدولة الحمداني، فأعجب به ولزمه تسع سنين. اتصل بكافور الأخشيدي في مصر، ثم هجره واتجه إلى بغداد ومنها إلى بلاد فارس. وفي طريق العودة خرج له فاتك الأسدي في جمع من رجاله، فقتله.

٢٠

الملك فيصل الأول في حدود مملكته القديمة

مرّ بي فريق من حملة مضابط التوكيل التي توقع في دمشق لجلالة الملك فيصل في طلب وساطته لحل القضية السورية، وقالوا لي: «ألا تريد أن توقع على هذا التوكيل؟» فقلت: «لا لأن التوكيل يحتاج إليه في نظري رجل غير فيصل، يخشى إذا تكلم أن يقال له: أتحمل توكيلاً من الذين تتكلم باسمهم؟» أما الرجل الذي يحمل بيعة أمة في ملك، وثقة شعب في قضية، فهو فوق المضابط والعرائض. فالأمة السورية التي بايعت ابن الحسين بالملك لن تنزع هذه البيعة من أعناقها حتى تجددها له اليوم بواسطة المضابط والعرائض. والبيعة في الشريعة تكون مرة واحدة، لا تنقض إلا إذا استقال منها صاحبها أو أعلن الذين بايعوه بها عدولهم عنها أو بايعوا رجلاً آخر بمثلها وعلى شروطها، فهل استقال فيصل من بيعة السوريين له بالملك أو هل أعلن السوريون أنفسهم مباشرة أو بالواسطة نزعهم لهذه البيعة من جلالته، أو هل بايعوا مباشرة أو بواسطة نوابهم رجلاً آخر بالملك غيره وعلى الشروط التي بايعوه بها في دمشق في ٨ آذار عام ١٩٢٠؟!

لقد انتخب نواب سورية رئيساً لدولتهم لمدة معينة محدودة، ولكنهم لم يبايعوا أحداً بالملك مدى الحياة، ثم لأبنائه من بعده على قاعدة التوارث سوى مرة واحدة ولرجل واحد، فانتخاب رئيس للجمهورية

من قبل نواب بلاد معدودة وفي منطقة محدودة من سوريا المجزأة شيء والمبايعة بالملك من قبل جميع نواب سورية الكبرى من رفح إلى طوروس شيء آخر. والعمل الصغير الموقت لا ينقض العمل الكبير الدائم الذي يرافق الحياة. فجمهورية المدن الأربع في قطعة صغيرة من سورية يعيش فيها مليون ونصف هي غير ملكية يجب أن تنشر راياتها من قنال السويس إلى خليج فارس وتظلّل تحت أعلامها أمة تعد نيفاً وخمسة عشر مليوناً من العرب في القدس وعمان واللاذقية والسويداء وبيروت وبغداد، وتؤلف بين شواطىء البحر المتوسط وبردى ودجلة والفرات، يحمل تاجها رجل واحد بويع بالملك عليها بيعة شرعية؛ ذلك الرجل هو ابن الثورة العربية البكر، فيصل الأول. فهل يحتاج بعد ذلك رجل مثل فيصل إلى مضابط وعرائض تخوله حق الكلام باسم السوريين وله في أعناقهم بيعة ولهم عليه واجب كواجب العراقيين عليه؟!

لا. نقولها بملء أفواهنا، ونعلنها بكل تواضع وصراحة: إن ملك السوريين الشرعي لا يحتاج إلى مضابط من السوريين تخوله حق الكلام والوساطة في قضية بلادهم. فالرجل الذي حرر العراق في عهده وزحزح النير عن عنقه قد أصبح اليوم الملاذ الذي تلجأ إليه سورية في محنتها الوطنية والسياسية. فإذا تكلم فيصل فمن هو الذي يجرؤ أن يقول في هذه البلاد: إن فيصلاً لا يتكلم باسمنا؟!

غداً تزحف الوفود من دمشق إلى عمان مخترقة هذه الحدود الخشبية التي أقامها الفتح الأجنبي بين حوران ووادي موسى، مجتازة تلك الجسور الوهمية التي فصلت بين نهر الأردن ونهر بردى، تحمل تحية الشام إلى ملكها الأول في بقعة من حدود مملكته القديمة، لم تستطع أن تحول هذه الحدود ولا تلك الحواجز بين السوريين وملكهم يلتقون في أرض عربية يفدون إليها من حلب ومن دمشق وبيروت والقدس؛ كلمتهم واحدة ومثلهم الأعلى الاستقلال والوحدة واحد في ظل ملك تتلاشى أمامه الحزبية وتنسى في كنفه الأحقاد وتموت التفرقة. فهل استطاعت صكوك الانتدابات في سورية وفلسطين والجنسيات «الدولية» الجديدة في بيروت ودمشق واللاذقية والسويداء والمعاهدات السياسيّة في عمان وبغداد، هل استطاعت هذه الكلمات المكتوبة وتلك الصكوك الموضوعة أن لا تجعل العرب هنا وهناك يلتقون في صعيد واحد بقلوبهم وأجسادهم،

يهتفون بملء أفواههم ومن أعماق أرواحهم بتحية الوحدة العربية والسيادة القومية في ظل ملكهم وابن خليفتهم وقائد نهضتهم الأول في الحرب والسلم وفي الوطنية والسياسة؟

كلا. إن ذلك جميعه لم يقو على محو هذه القومية العربية، في بلاد كل ما حولها عربي، فالصحراء ورمالها والجبال وصخورها والسهول والأودية وسكانها، هذه كلها عربية، وللعرب وحدهم دون سواهم، وهيهات أن تقوى هذه السياسات المحلية وتلك التسميات الدولية الجديدة والجنسيات «الملونة» من «سورية» و«أردنية» و«لبنانية» و«علوية» و«درزية»- هيهات أن تقوى جميعها على أن تجعل العربي أعجمياً، والشرقي غربياً، وطالب الحرية عبداً، وهيهات للاستعمار الأجنبي أن يعيش طويلاً في بلاد لم تنس أنشودة الحرية، تغنيها في كل صباح، وتهتف بها في كل مساء، فالاستعمار يستحيل عليه أن يخلد في أوطان يرفض أهلها أن يشعروا بالعبودية في أعماق نفوسهم.

هذا مهرجان عمان، إنه مظهر من أجلِّ مظاهر الشعور بالحرية، وهذا فيصل. إنه الرمز الحي لمطامح السوريين والفلسطينيين والأردنيين، بل إنه الأمل المنعش للقومية العربية والاستقلال العربي في دولة واحدة عربية مستقلة؛ إن لم تتأسس بحدودها اليوم فإن فكرتها قد تأسست واكتسحت الحدود والحواجز. ومتى عاشت الفكرة عاش كل ما سيبنى عليها من ملك ضخم ودولة كبرى، وهل النهضات والدول والممالك في أول أمرها سوى فكرة في النفوس لا تلبث أن تعيش في أفق ضيق، ثم تشرق بعد ذلك فتملأ الآفاق البعيدة نوراً وأملاً وقوة؟

إن هذا الزحف القومي إلى عمان سيكون صفحة جديدة في تاريخ القضية العربية عامة والقضية السورية خاصة، وهذا الملك العربي الذي استطاع من تحت نير الانتداب البريطاني أن يبعث بسفرائه إلى عواصم أوروبا، يمثلون الدولة المستقلة الجديدة بعد أن أجلس مندوبه في جنيف إلى جانب مندوبي تركيا والعجم في قلب عصبة الأمم، قد أصبح اليوم ملاذ السوريين والفلسطينيين والأردنيين بل ملاذ العرب جميعاً يهرعون إليه في محنهم السياسية ويعوذون به من شر التفرقة والاضمحلال.

ليس فيصل للعراق وحده بل هو للعراق والشام وفلسطين، فهناك

أهله، وهنا عشيرته، وهنالك قـومه. ومن أحقّ من فيصـل بعد اليـوم بأن يتمثل في موقفه هذا بقول الشاعر الحمداني:

بالشام أهلي وبغداد الهـوى وأنا   بـالرقمتـين وبالفسطـاط إخواني

١٩٣٣/٦/١

هوامش

■ **رفح**: مدينة في فلسطين جنوبيّ قطاع غزّة، وعلى حدود سيناء قرب المتوسط.

■ **طوروس**: سلسلة جبال كلسيّة في الأناضول جنوبيّ تركيا بين كيليكية وكبدوقية.

■ **وادي موسى**: قرية في الأردن عند مدخل الشقّ الذي يقود الى مدينة البتراء.

■ **العجم**: تسمية أطلقت في الماضي على إيران

■ **عصبة الأمم**: هي منظمة دولية أنشأتها في ٢٨ نيسان /ابريل ١٩١٩ الدول الموقّعة على معاهدة فرساي. غايتها إنماء روح التفاهم والتعاون بين الأمم وضمان السلام والأمن في العالم. كان مركزها جنيف. حلّت محلّها الأمم المتحدة في ١ حزيران /يونيو ١٩٤٦.

■ **ابو فراس الحمداني (٩٣٢ ـ ٩٦٨م)**: شاعر وفارس، ولد في الموصل. ابن عم سيف الدولة. تقلّد إمارة منبج، فأسره البيزنطيون أربع سنوات. استولى على حمص بعد وفاة سيف الدولة فقتل. له ديوان شعر.

٢١

الملك فيصل الأول
ثلاثة أيام من أيام دمشق

قال لي صديق كريم من أولئك المخلصين النازحين الذين أقصتهم السياسة عن وطنهم الشهيد منذ ثلاثة عشر عاماً فاتخذوا عمان لهم ملجأً وملاذاً. قال لي هذا الصديق عشية عاد الوافدون من تحية جلالة الملك واجتمعوا في منزل من منازل عمان يستعيدون ذكريات الماضي: « ألا ترى أن هذا اليوم هو من أيام دمشق الأولى؟».

هذا فيصل بقامته الطويلة، وبوجهه المؤنس يقبل على إخوانه القدماء الذين خلفهم في دمشق يحدثهم ويحدثونه، وهذه ذكرى الاستقلال والمؤتمر السوري وحفلة التتويج، تطل جميعها على عمان، يحملها هؤلاء القادمون من بغداد والشام، فتلتقي الذكريات وأصحابها في مكان واحد، فقد قدر الله أن نلتقي بعد ثلاثة عشر عاماً وبعد انهزام ثلاثة عشر عاماً، وبعد احتلال ثلاثة عشر عاماً في أرض عربية كانت جزءاً من ذلك الوطن السوري المستقل الذي تهدمت معالم استقلاله في ميسلون.

قلنا: ولكننا نلتقي أيضاً وقد نقل هذا الاستقلال من دمشق إلى بغداد فلم يتبدل غير اسم العاصمة، فملك الشام بالأمس هو نفسه ملك العراق اليوم، والذين انهزموا في ميسلون تجمعوا في العراق

وعادوا باستقلال عربي في ظل ملك عـربي وها هم اليـوم يعرضـون استقلالهم على العالم.

– ولكن ميسلون في الشام لا في بغداد!!

– نعم ولكن شرفهـا لنا جميعـاً، وعارهـا علينا جميعـاً. بـل ليس في ميسلون عار وإنما فيها معـركة، وفي كـل معركـة شرف مهما كـانت نتيجتها على المغلوبين. أما العار فهو في التسليم قبل المعركة،وما كان الضعفاء في يوم من الأيام ليخجلوا من الانكسار أمام الأقوياء، بل يكـون هذا الانكسـار أقوى حجـة في أيديهم عـلى وضـوح حقهم في الاستقـلال يوم يسـود العدل بـين الأمم. أترى هـل كنا نحلم لـولا انكسارنا في ميسلـون أن نسمع مفـوض فرنسـا السامي ينـادي في قـاعة لجنـة الانتـدابـات في جنيف وعـلى مسمـع من منـدوبي دول الأرض: «ان السوريين لم يعترفوا بـالانتداب في يـوم من الأيام؟» لا تأسف أيها الـوطني النازح عـلى انكسارك في ميسلـون فالأمم التي ليس لهـا أيام انكسـارات لا تكـون لهـا أيـام انتصـارات. وثق أن استقلال العراق ومملكة العراق وحـرية العـراق فيها شيء كثـير من هزيمة ميسلون. والآن فلنختم جرحنا على هذا الحديث.

هذا بعض حديث السوريين الوافدين إلى عمان لتحية جلالة الملك مع بعض السوريين النازحين. فلقد بعثت هذه الرحلة في النفوس كل مـا في الثلاثة عشر عاماً الماضية من ذكريات. والحقيقـة فقد كـان مرور فيصـل في عمان واجتمـاع السوريـين من حولـه أشبه شيء بـأيـام دمشق، فالذين جاءوا من دمشق والقدس، والـذين كانـوا في عمان، هؤلاء جميعهم هم رجال فيصل القـدماء واخـوانه وأهلـه، فقد أبى جلالته أن ينسى هؤلاء واخوّتهم ومودتهم، فقـال في أول كلمة ألقـاها ساعة تشرف الوافدون من دمشق مجتمعـين لتحيته: «إنني أشكركم على تحملكم عناء السفر في سبيل رؤية أخ من إخوانكم».

هذه كلمة قالها جلالة الملك مخلصاً في قولها ليس فيها شهد الله أثر للتواضع المصطنع، فقد شعرنا جميعاً ونحن نسمعها أنها كلمة رجل عربي مخلص أكثر منها كلمة ملك مجامل، ولم أنس كلمة ثانية قالها جـلالته لي في مقـابلة خـاصة تشرفت بهـا بعد المقـابلات الـرسمية العـامة.. لم أنس تلـك الكلمة التي تـوحي إلى النفس عظمة الـرجل

الكبير وإخلاصه، وأنه يسمو فوق العرش والتاج عندما يكون الحديث قومياً وفي صميم القومية العربية الوطنية، فقد قال جلالته في معرض الحديث: «ان فلاناً وفلاناً ورفاقهما هم إخواني القدماء». فلقد شعرت أن كلمة «إخواني» تخرج من قلبه لا من شفتيه، كما شعرنا جميعاً في المقابلة الرسمية أن كلمة الشكر التي وجهها إلى الوافدين من دمشق في قوله: «أشكركم لتحملكم عناء السفر في سبيل رؤية أخ من إخوانكم» إنما تعرب حقيقة عن هذه النفس المخلصة التي لم يغيّرها العرش والتاج وأبهة الملك عن الشعور الذي يكنّه نحو هؤلاء السوريين الذين يسميهم إخوانه القدماء، لا رجاله وحاشيته السابقين.

هذا يوم من أيام دمشق في عمان، وهذا بعض أثره في النفس. بل هذا غذاء قومي جديد يجب أن يسمو بنا عن الإسفاف إلى هذه السياسة الإقليمية الفقيرة، فقد نسينا على الأقل ونحن في عمان حديث الوحدة بين اللاذقية والسويداء ودمشق!

١٩٣٣/٦/١٨

هوامش

■ **المؤتمر السوري**: مؤتمر تمثيلي شبه برلماني دعت إلى عقده الحكومة العربية في سورية، فعقد بدمشق في أوائل آذار ١٩٢٠، وحضره مندوبون عن جميع مناطق سورية الطبيعية. وبعد أيام من المناقشات، قرّر المؤتمر في ٨ آذار/ مارس استقلال سورية في مملكة دستورية، ومبايعة الأمير فيصل ملكاً عليها.

■ **لجنة الانتدابات**: لجنة انشقت من «عصبة الأمم» بعد تأسيسها عام ١٩٢٠، وغرضها مراقبة تطبيق الانتداب أو السهر على سلامة تطبيقه في البلدان الموضوعة تحت الوصاية، ورفع تقرير بذلك إلى «عصبة الأمم».

٢٢

الملك فيصل الأول
خمسة أيام
في خمس ليال

«أيها الناس! إن كنتم تعبدون محمداً فإن محمداً قد مات، وإن كنتم تعبدون الله فإن الله حي لا يموت».

أبو بكر الصديق

«إن لقريش صقرين: عبد الرحمن بن محمد الأموي، وفيصل ابن الحسين الهاشمي».

مؤرخ عربي حديث

«أيها الإخوان! إنكم تريدون استقلالاً، وأنا أريده قبلكم، لقد عملت له جندياً في ساحة الحرب، وسياسياً في مؤتمر السلم، ولكن يجب أن تعلموا: ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى».

فيصل بن الحسين
في النادي العربي بدمشق عام ١٩١٩

هذه خمسة أيام في خمس ليال، تنقضي على صوت النعي يصيح في جوانب الدنيا: أيها العرب التعساء، لقد مات فيصل!

وهذه دمشق - يا للوعة دمشق! رعية فيصل الأولى ودار ملكه المحطم، وقاعة عرشه الضائع، تشرق بالدمع وتغص بالألم مرة ثانية، فقد خسرت في ميسلون العرش والاستقلال، وها هي اليوم تخسر في

«برن» صاحب العرش ورمز الاستقلال! نكبة مزدوجة عليك يا دمشق، تفقدين في خلال ثلاثة عشر عاماً التاج، وصاحب التاج!

خمسة أيام في خمس ليال تنام دمشق وتستيقظ واسم فيصل الميت ملء الأفواه والأسماع والعيون، أما الأمهات اللواتي سمين أطفالهن في عام ١٩٢٠ بهذا الاسم المحبب الغالي «فيصل» فقد كان نشيجهن ملء الصدور. فوارحمة لكم أيها الأطفال «الفياصل» فقد مات الذي حملتم اسمه فخورين في أحضان أمهاتكم، وطوى الردى من كنتم تدلون به على أترابكم في حجرات المدارس طوال ثلاثة عشر عاماً كاملات!

أجل! لقد مات فيصل الكبير أيها «الفياصل» الصغار، فقولوا لأمهاتكم أن يبدلن أسماءكم، فقد ذهب الذي سميتم من أجله وانطوى من تيمنتم باسمه!

الله أكبر! هل مات أيها الناس؟

وجوم وإطراق، ونظرات حائرات، وهمسات خفيات، لم تكن إلا صدى لنشيج الصدور: أفيصل يموت؟ إن الأمة العربية لا تريد أن يموت أملها المرجى وأمنيتها الغالية، فكيف تريد أن تصدق هذا النبأ القاصم للظهور؟!

خمسة أيام في خمس ليال، أقسم أنني ما ذكرت لها شبيهاً في تاريخ الأمة العربية في خلال ألف وثلاثمائة وخمسين سنة إلا يوم مات النبي! فكيف يصدق المسلمون وهم بعد حديثو عهد في الإسلام والاستقلال، والتحرر من سلطة الجاهلية الوثنية، كيف يصدقون أن من حمل لهم الاستقلال والإسلام والتحرر يموت؟! بل من كان يجرؤ أن يقول: إن محمداً قد مات. وهذا عمر بن الخطاب أقوى رجل في قريش أعصاباً وإيماناً بالله وبالموت يقف في مسجد المدينة واضعاً يده على قبضة سيفه يقول صاخباً حائراً مهدداً: من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بهذا السيف.

أجل! هذه الأيام كانت في دمشق أشبه بتلك في المدينة. من كان يصدق أن محمداً يموت؟ حتى عمر بن الخطاب لم يصدق، بل هدد بالقتل من يصدق أو يفوه بالموت! ولكن هناك رجلاً أنقذ الناس من حيرتهم، وأخرجهم من شكهم وذهولهم، فقد كان أقوى أعصاباً منهم

جميعاً حتى من عمر بن الخطاب، ذلك الرجل هو أبو بكر، فقد تخطى الناس ولم يبال بتهديد ولا وعيد، وصعد المنبر ثم قال: «وما محمداً إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم». حتى إذا سكن اضطرام النفوس الثائرة الملتاعة، وجلس الناس هادئين في المسجد يستمعون إلى أقرب المقربين إلى النبي، فاجأهم بخبر الموت في كلمته المشهورة الخالدة: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت». وهكذا صدق الناس أن النبي قد مات، وأنه بشر يجري عليه قضاء الله وقدره.

أترى دمشق وبيروت وبغداد ومكة والقدس وعمان أقل ذهولاً وحيرة يوم موت فيصل من المدينة يوم موت النبي؟

هاتوا لي حادثة واحدة في تاريخ الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً تشبه حادثة موت فيصل؟ إني مسلم عربي، أعرف تاريخ العرب والإسلام، فوالله ما وجمت الأمة العربية هذا الوجوم، ولا ذهلت مثل هذا الذهول، ولا قصم ظهرها نبأ مثل هذا النبأ إلا مرتين في حياتها، يوم مات النبي ويوم مات فيصل! ولكن أنا لا أجرؤ أن أقول: «من كان يعبد فيصلاً فإن فيصلاً قد مات».فليقلهاغيري ومن هو أكبر مني شأناً ومقاماً.

مات فيصل..

هذا كل ما يستطيع قوله ضعيف مثلي، مفجوع بحرية وطنه، منكوب باستقلال بلاده، محترق على تخاذل رجاله وتفرق شبابه، وتنابذ زعمائه.

هذا كل ما أستطيع قوله: لقد مات فيصل، مات ابن القضية العربية البكر، مات ابن الثورة الأولى والأخيرة... مات الوطني المخلص، مات القائد والمحرر، مات رئيس حزب الاستقلال العربي من عدن إلى خليج فارس. وأخيراً؟؟... مات امبراطور العرب، وماتت الامبراطورية العربية، وأخاف أن أقول: ماتت الوحدة العربية التي كانت تسمو فوق الأقاليم والأديان والطوائف؛ وحتى فوق الانتدابات!

نعم! مات هؤلاء جميعاً. وهذا أبو غازي جثة محمولة من برن إلى بغداد!

أترى هل علم شوقي في قبره يوم أرسل عبد الوهاب يغني في قصر فيصل قصيدته المحبوبة:

يا شراعاً وراء دجلة يجري في دموعي تجنبتك العوادي

أترى علم شوقي أن هذا الشراع لم يعد يجري لا في دجلة ولا في بردى وأن الموت القاسي حطمه وطواه؟!

أجثة محمولة يا أبا غازي تعود إلى بغداد وقد ودعتك بالأمس طائراً إلى جنيف لا مستشفياً في جبال سويسرا، ولا متنزهاً على ضفاف البحيرة، ولا مصطافاً تنعم بالمياه المعدنية في فيشي وكارلسباد، بل ودعتك وأنت متعب قلق على العراق وعلى ما «بيتوا» للعراق من شرّ في دار عصبة الأمم، فحملت همّك في أعماق نفسك الحزينة وطرت ثلاثين ساعة وأنت مريض مضطرب، لتدافع عن العراق وأهل العراق، وتبسط ظلامة الضعيف المعتدى عليه أمام القوي الذي حرك الفتنة وراح يستغلها باسم الأقليات «المذبوحة» والأكثرية «الهمجية» المتعصبة!

أجثة محمولة يا أبا غازي تعود إلى العراق الذي حررته من الاستعمار، وقد دخلته وهو تابع لحاكم الهند ومستعمرة التاج البريطاني، فمتَّ عنه عزيز الجانب مستقلاً يحتل كرسيه في عصبة الأمم إلى جانب الدول المستقلة؟!

هل حررت العراق ثم رضيت منه بقبر تدفن في ترابه المعتقل بعد أن تحملت مضض الاستعمار والانتداب، وآلام المعاهدات واختلاف الأحزاب وفتن الأكراد والأشوريين طوال اثني عشر عاماً؟

الآن تموت يا أبا غازي بعد أن فهمك العراقيون وأحبوك وقدروا جهودك، واعترفوا بإخلاصك لوطنهم الصغير ولوطن العرب الكبير، وبعد أن أنكر فريق منا ومنهم تلك الجهود وذاك الإخلاص، واتهموك بأنك صنيعة الانكليز ومؤيد انتدابهم على العراق، فما كان مثلك علم الله إلا صنيعة نفسه وقومه، وأمل العرب المرجى، ورمز استقلالهم وأمانيهم.

لقد عشت في دمشق نحواً من سنتين فما نعمت بيوم هانىء، بل كنت تعاني من مطامع الاستعمار ودسائس الرجال واختلاف الأحزاب ما ضحيت من أجله بعرشك. والملوك قد عودونا أن يضحوا باستقلال

بلادهم وشعوبهم في سبيل عروشهم. أما أنت فوالله لقد ضحيت بنفسك وعرشك، في سبيل سورية، وهناء سورية وكرامتها، ثم خرجت من بيتنا وقد جرحت القوة كبرياءك ومستك في عزة نفسك، فودعت دمشق في منتصف الليل، والحريق يضيء لهيبه الجو، فتجلّت أمامك مآذن الأموي وقباب صلاح الدين حزينة مذلولة، فخاطبتها في سكون الليل: إلى الملتقى يا دمشق في مكة أو في بغداد.

أي صقر قريش!

لقد صدقت وعدك لدمشق وثأرت لكبريائك المجروحة فطلعت عليها من بغداد.

أيها السادة:

الجود يفقر والإقدام قتال!

هذه كلمات سمعتها من المغفور له شيخ بني هاشم الملك حسين، سمعتها من فمه في عمان عام ١٩٢٣ فنسيتها حتى كان يوم من شهر حزيران الماضي في عمان وقد وقفنا في المطار نرقب طيارة الفقيد العظيم تحمل على متنها آمال أمة ورجاء وطن. وكانت العاصفة في ذلك اليوم مخيفة مرعبة حتى إذا هبطت الطيارة بعد كفاح شديد ورأينا تلك القامة العالية تطل علينا وذلك الوجه الضاحك يشرق على الجموع، التفت إلي صديق يقول: أطيار مغامر أم ملك يحرص على الحياة؟ فذكرت كلمات الملك الكبير: الجود يفقر والإقدام قتال! وعدت إلى عمان فالتقيت بالنائب العراقي المحترم حامد باشا الوادي، وأبدى كلانا مخاوفه لصاحبه إذا نزل مكروه بحياة أبي الغازي، فإذا بهذه المخاوف واحسرتاه تتحقق، وإذا بحامد الوادي يذكرني في دمشق بحديثنا في عمان فلقد نزل المكروه وحم القضاء.

لقد أقدم فيصل، ثم جاد بأثمن ما ملك وملكنا ونملك وسوف نملك.. جاد بنفسه، جاد بحياته حتى أصبحنا من بعده فقراء.

لقد شبهوا فيصل بالجندي في قلب المعركة حتى إذا مات قالوا: «مات الملك الشهيد». ولكن لماذا لا يقولون: «مات الجندي الفدائي شهيداً يقتحم الموت ويرمي بنفسه عليه»؟

إن الجندي في قلب المعركة مهما كان شجاعاً ومغامراً فقد لا يقتل

إذا انتهت المعركة ولم يصب برصاصة. ولكن فيصل أيها السادة دخل المعركة لا يحميه جدار ولا يظلله شيء، حاسر الرأس والجسم تحت وابل من النار، فكيف تريدون أن لا يقتل؟! إنه كان مريضاً وهو يعلم أنه مريض والأطباء يصارحونه كل يوم بأن الإجهاد يؤذيه والعمل يقضي عليه، ولكنه لم يكن ليبالي بالنتيجة.

اسألوا رجال البلاط كيف قضى أيامه بعد عودته من أوروبا حينما نشبت الفتنة المشؤومة؟ اسألوهم كم ساعة كان ينام وكم ساعة كان يعمل؟ حتى إذا قضى على الشر وعاد إلى أوروبا قالوا إنه ذهب للاستشفاء، وما علموا أنه ذهب ليعمل ويجاهد، يحمل جراحاً جديدة بعد أن نكأ الجرح القديم فتوالت الجراح على الجراح فمات مغموراً بنزيفها ويقيناً نحن نغص بآلامها. فيا لك من جندي شجاع هزأ بالموت، وجريح مات بلا أنين، وشهيد قضى بلا احتضار!

أيها السادة:

لقد انتهى الندب وأتينا إليكم لنعلن وإياكم خاتمة البكاء، وجئنا لنسألكم عن الفكرة والعقيدة والثأر والإرث أهذه باقية لن تموت؟!

أما الفكرة والعقيدة والثأر، فنحن وإياكم مسؤولون عنها، شركاء في حملها، نعاهدكم الله على قبر فيصل وأمام خليفة فيصل، بأننا سندخلها في طعامنا وشرابنا ورقادنا، لن نعمل إلا من أجلها، ولن نقبل عذراً لمتخلف عن العمل المستمر في سبيلها مهما كانت الظروف والأسباب، وسنكافح الردة، وسنضرب في وجوه المرتدين حتى يفيئوا إلى أمر الله.

أما الإرث الذي خلفه فيصل فهو في ذمتكم يا خليفة فيصل ويا وزراء فيصل ورفقاءه في ثورته وحربه وسلمه وسياسته. إنه إرث العرب من بعده، إنه إرث سورية والعراق معاً، إرث أولئك الشهداء الذين ماتوا على ضفاف دجلة والفرات وميسلون والغوطة والجبل، إرث المجاهدين في الصحراء المقيمين في الأزرق ووادي السرحان الصابرين على الجوع والظمأ، إرث المنفيين النازحين المشردين في بلاد الله، إرث الذين تضيق بهم السجون في الشام وفلسطين.

يا خليفة فيصل ويا وزراء فيصل ويا رجال العراق ويا شباب العراق:

لقد ترك لكم أبو الغازي ميراثاً ضخماً أنتم أكفاء لحمله، قادرون على حمايته، فهو وديعة الأمة العربية في ذمتكم تهتف به في كل صباح ومساء. أما سورية فإنها تتوجه بقلوبها إليكم من خلال رمال الصحراء تناشدكم صلة الرحم والقومية والألم المشترك، وتستحلفكم بروح فيصل أن تعتبروها جزءاً من العراق، فهي تعتبر العراق وطنها وملجأها ومفزعها.

لقد قالوا لنا في جرائدهم الاستعمارية يوم هتفنا بوحدة القطرين، ويوم هللنا لدخول العراق في عصبة الأمم.. قالوا لنا: ما لكم وللعراق تتغنون به وتعتزون بحريته وبينكم وبينه الفواصل السياسية والحواجز الطبيعية، فما أشبهكم بالقرعاء تفتخر بشعر جارتها!؟ قلنا لهم: هونوا عليكم. إن شعر العراق شعرنا، ورأس العراق رأسنا، وعرش العراق عرشنا، ومليك العراق مليكنا، واستقلال العراق استقلالنا، لنا نصيب من حرية العراق أحببتم أم كرهتم، وللعراق نصيب من استعبادنا شئتم أم أبيتم، أما الفواصل السياسية فقد أثرت في جوازات السفر فقط. وأما الحواجز الطبيعية فقد ذللناها على ظهور الأباعر، قبل أن تكون السيارات والطيارات. فقولوا هذا لغيرنا، قولوه للذين لا تجمعهم القومية واللغة والألم المشترك. أما أن تقولوا ذلك لأهل الشام والعراق فأنتم تتجاهلون تاريخ ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً في سبيل عشر سنين استطعتم في خلالها أن تلعبوا على الألفاظ وأن تسموا هؤلاء عراقيين وأولئك سوريين، وأن تطلبوا منهما معاً جوازات على الحدود.

ثم قالوا لنا: إن كان وضع العراق يعجبكم فما عليكم إلا النزوح إليه. فقلنا لهم: نحن لا نذهب إلى العراق ولكننا سنأتي بالعراق إلى الشام.

لقد شمتوا بيوم فيصل، فقالوا: «إن حلم الوحدة قد تلاشى وبناء الامبراطورية العربية قد انهار، فقد مات الرجل الذي لو عاش عشر سنين فقط لاستطاع أن يجعل من سورية والعراق دولة واحدة تحت عرش واحد وتاج واحد». فقلنا لهم أيضاً: «لئن مات فيصل صاحب الفكرة فقد أورثها من بعده خليفته ووارث عرشه، في العراق فياصل وفي الشام غزاة».

هذا بعض ما قالوه لنا أيها السادة ويقولونه لنا في كل مناسبة. أما

اليـوم فيجب أن نقول لهم نحن قبـل أن يقولـوا هم شيئاً جـديداً.. نـريد أن نقـول لهم: «إن العراق ليس مستعـداً أن يمـوت خنقـاً في الصحراء، وإن سورية ليست مستعدة أن تموت غرقاً في البحر».

أيها العراقيون:

إن مستقبلكم عـلى البحر وعـلى قمم الجبال وفي ظـلال الصفصـاف والثلـج، أمـا نحن فمستقبلنـا في الصحـراء، وفي قلب النخـل وعـلى ضفـاف دجلة، فقـرّبوا صحـراءكم ونخيلكم من بحرنـا وغـوطتنـا، نجعلها دولة واحدة وشعباً واحداً في ظل عرش واحد.

هذه أيدينا نمدها إليكم معاهـدين ولخليفة فيصـل بالبيعـة مجددين وعلى قبر أبي الغازي مقسمين.

١٩٣٣/١٠/٢٤

هوامش

■ **عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٨٩٠ ـ ٩٦١م)**: من أحفاد عبد الرحمن الداخل، وأول من لقّب بالخلافة من الأمويين في الأندلس. ولد وتوفي بقرطبة. بويع بالخلافة سنة ٣١٦ هـ، ولقّب بـ «الناصر لدين الله». أنشأ مدينة الزهراء، وبنى فيها قصر الزهراء المشهور. حكم الأندلس خمسين سنة وستة أشهر.

■ **وفاة فيصل**: كانت وفاة الملك فيصل في برن بسويسرا يوم ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٣.

■ **الملك غازي بن فيصل الأول (١٩١٢ ـ ١٩٣٩)**: ملك العراق سنة ١٩٣٣ خلفاً لوالده فيصل الأول. توفي بحادث سيارة.

■ **البحيرة، بحيرة ليمان (léman)**: وهي في أوروبا بين سويسرا وفرنسا، وتعرف ببحيرة جنيف. مساحتها ٥٨٢ كم². يجتازها نهر الرون.

■ **ڤيشي (Vichy)**: مدينة فرنسية على أليه. منتجع صحيّ ومياه معدنية. مقر الحكومة سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤.

■ **كارلسباد (Carlsbad)**: أو كارلوڤي (Karlovy Vary) بالتشيكية. مدينة على نهر أوهرج شمال غرب بوهيميا في تشيكوسلوفاكيا. مشهورة بمياهها المعدنية الساخنة التي تستعمل خاصة لأمراض الجهاز الهضمي.

■ **الجامع الأموي**: مسجد كبير في دمشق شيّده الوليد بن عبد الملك مكان كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي بنيت على أنقاض هيكل وثني، وهو يعدّ من آيات الفن المعماري العربي.

■ **صلاح الدين الأيّوبي**: ولد في تكريت بالعراق سنة ١١٣٨م، وتوفي في دمشق سنة ١١٩٣م. مؤسس الدولة الأيّوبية، وأكبر سلاطين المسلمين عن أيام الصليبيين. عزل الخليفة الفاطمي واعترف بسلطة الخليفة في بغداد سنة ١١٧١م. انتصر على الزنكيين قرب حمص واحتل سورية والموصل، استولى على طبريّة وهزم الإفرنج في معركة حطّين المشهورة سنة ١١٨٧م (٥٨٣ هـ)، فتمّت على يده استعادة بيت المقدس.

■ **الأزرق**: مخيّم للسوريين اللاجئين إلى الأردن هرباً من سلطات الاحتلال الفرنسي.

■ **وادي السِّرحان**: وادٍ في الأردن ونجد، طوله ٢٨٠ كم، وعرضه من ٢ إلى ١٠ كم.

الأمير شكيب أرسلان
أربعون سنة في خدمة العرب والاسلام

يمر على مقربة من هذه الديار في طريقه إلى أوروبا رجل لا يحتاج تعريفه في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي إلى أكثر من ذكر اسمه مجرداً من كل شيء، فإذا لفظت الشفاه هذا الإسم الضخم، عرف السامعون من هو صاحبه، وأدركوا فوراً أن هناك جيلاً من الأدب والعلم والعقيدة الإسلامية وجبلاً عالياً من القومية العربية.

اسم مجرد لا يكاد يذكر في أية بقعة من بقاع الأرض في أوروبا وآسيا وأميركا وأفريقيا، حتى تلمح من بين حروفه وجه جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق، وقامة الشيخ محمد عبده مصلح المسلمين ومجدد فكرتهم، بل إنك لتقرأ في خلال هذا الاسم جهاد العرب في طرابلس وبرقة، ونضال المسلمين في القفقاس، وثورتهم في كريد، وتسمع صوتهم من أوروبا الشرقية إلى الريف الإسباني فالمغرب الأقصى، ذلك الإسم إنما هو لرجل من أعرق بطون العرب في الجاهلية والإسلام، وأشرف بيت من بيوت الإمارة في سورية ولبنان، رجل أقل ما يقال فيه إنه خدم العرب والإسلام نيفاً وأربعين سنة، فشبّ وشاخ وابيض شعره وانحنت قامته ولكن رايتهم في يده لا تبرح مرفوعة عالية، طوّف بها في أنحاء العالم الأوروبي ثم ركزها على ضفة البحيرة الزرقاء كريمة شريفة، ولوح بها في قلب البلد الذي

تـزدحم رايات الـدول على مشـارفه وأعـاليه، في جنيف وفي أحشـاء عصبة الأمم. ذلك الـرجل إنمـا هو الأمـير شكيب أرسلان صـاحب القلم الذي لا ينضب والفكر الذي لا يتعب، والنفس الوديعة التي لا تمنّ ولا تعتب.

الأمير شكيب أرسلان الرجل الذي أقصي عن وطنه منذ ثمانيـة عشر عـاماً، يمـر اليـوم في بيت المقـدس وبجـانب المسجـد الأقصى حـرم المؤمنين الأول وكعبتهم القديمة، فيحاط مقـامه بقيـود وشروط ليقضي بضعة أيام يرى في خلالها أمه العجوز التي هدّها بعدها عن أبنائها، وبرح بها الحنين إلى شكيب الكبير وعادل الصغير، فـلا تكاد تنقضي، مدة الإقامة الممنوحة له من الإنكليز حتى يعدّ عدته للفـراق، فتنادي صحف فلسطين بطلب تمديد الإقامة أو منحه الجنسيـة الفلسطينية ليقيم في هذه القطعة المفصولة عن الوطن السوري الصغـير، بعد أن حرّموا عليه دخول مسقط رأسه الأول، وبعد أن منـع لا من الإقامـة في مصر فحسب بل منع حتى من المرور بها من المطـار إلى البحر من غير أن يحاط بالجند، ويحرم عليه تحيـة أصدقـائه ورؤيـة إخوانـه، فحمل في القطار حملاً، وزجّ في فندق من فنـادق السويس يقـوم على بابه الحرس والخفراء، حتى لا يتصل بأحد ولا يرى وجهه أحد، ولم يخجل الذين أمروا بهذه المعـاملة من شرف المهمـة الإنسانيـة التي جاء الأمير من سويسرا إلى الحجاز واليمن من أجلها.

واليوم يتساءل الناس في مصر وفلسطين وسـورية: أهـذه عاقبـة من خدم العرب والإسلام حوالي خمسين عاماً: يمنع من الإقامة في بـلاد العـرب والإسلام! وهـل هذه هي نتيجـة الرجـال الذين نشروا اسم العـرب والإسلام في أنحـاء الأرض وأظهروا محـاسنه ودافعـوا عن أهله بصدق وحقّ، يقصيهم القابضون عـلى عنق سوريـة ولبنان عن مسـاقط رؤوسهم، ويـرفضهم أولـو الأمـر في مصر ولا يسمـح لهم المحتلون في فلسطين؟

لقد ملّ الأمير شكيب هذه الغربة الطـويلة وعـافت نفسه الحيـاة في أوروبا، وبرح به الحنين إلى هضاب لبنان ومائه العذب، وإلى الغوطة الخضراء في مشارف الشام، فحيـل بينه وبـين ما حنّ إليـه، بعد أن فتحـوا هذه البـلاد في وجـه كـل جنس ولـون ودين من الـروس إلى الأرمن ومن الروم إلى الأشوريين.

وطلب الإقامة في مصر بعد ان يئس من سورية ولبنان؛ طلب الإقامة في جوار الأزهر، وفي ظل جامع عمرو، كما يقيم هذا الخليط من البشر، من طليان ويونان ورومانيين ونروجيين وسلافيين، حيث يزدحم باعة السموم وتجار الحشيش والكوكايين في حماية الامتيازات الأجنبية. فقيل له: إن أصحاب الأمر لم يريدوا.. ان مصر الكريمة ذات الشعار القديم (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا)، تسبغ كرمها وضيافتها على أولئك الأجانب الغزاة... أما الأمير شكيب الذي خدم مصر وأخلص إليها أكثر من كثير من المصريين فإن بابها يغلق في وجهه، ونيلها يشح في إرواء ظمأه.

وهذه فلسطين التي تزدحم باليهود من شتى الدول من شيوعيين إلى ألمان ورومان؛ فلسطين العربية مهد المسيح ومعراج النبي لا تتسع للأمير شكيب وقد اتسعت لجميع ذلك الغزو الصهيوني البربري.

أي سيدي الأمير:

لا أستطيع أن أكتب عنك في حياتك وجهادك وعلمك، أكثر ما كتبته أنت في حياة هذه الأمة ومجدها وجهادها وفخارها، ولكنني أستطيع أن أبعث إليك من على ضفاف بردى الحزين بتحية ملؤها اللوعة والخجل والذل، فقد عجزنا وعجز العرب والمسلمون من وادي النيل إلى وادي العاصي عن ردّ غربتك إليك وإعادة حريتك عليك. وإذا كنت تحنّ إلى الوطن الصغير لتربي أولادك في كنف البيت الذي أنجبك، وفي ظل حنان الأم والأهل، ولتستريح قليلاً من جهادك الشاق فأنت تعلم أكثر مني قول الشاعر:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالك

أما أنا فإنني لا أستطيع أن أتمثل في موقفك هذا وقد وقفت في العراء تنظر إلى النيل فتُصد عن مائه وإلى لبنان فتُقصى عن أرزه، وإلى النيربين، فلا تسمع تغريد أطياره، ثم ترمق بعينيك وأنت وراء القنال هؤلاء العرب والمسلمين من خليج فارس إلى السويس وفيهم الحكام والوزراء والدول، ترمقهم بعينيك وقد صدوك عن بلادك وبلادهم. إني لا أستطيع بعد هذه التحية الخجلة الذليلة التي أبعث بها إليك وأنت على مقربة مني إلا أن أردد باسمك قول الشاعر:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي

١٩٣٤/٧/٢٦

هوامش

■ **الأمير شكيب بن حمّود أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦)**: أديب، مؤرّخ، ومفكّر سياسي، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. ولد في الشويفات (لبنان)، وتلقّى علومه في مدرسة الحكمة ببيروت. تقلّب في مناصب إدارية بلبنان قبل أن يُنتخب نائباً عن حوران في مجلس «المبعوثان» العثماني. أقام في دمشق خلال الحرب العالمية الأولى، ثم في برلين، ثم في جنيف (٢٥ عاماً)، فبيروت أخيراً حيث كانت وفاته. قام برحلات كثيرة في حياته، وشارك في العديد من المؤتمرات، وسمّي عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. عالج السياسة الإسلامية قبل سقوط الدولة العثمانية، واضطلع بعد ذلك بالقضايا العربية. له مؤلفات كثيرة.

■ **جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧)**: مصلح ومفكّر إسلامي كبير، ولد في كابول بأفغانستان. جال في الشرق والغرب واستقر في مصر. فجمع حوله نخبة من المريدين والمثقفين. دعا إلى الجامعة الإسلامية، وأصدر بالاشتراك مع محمد عبده مجلة «العروة الوثقى» في باريس سنة ١٨٨٤. من آثاره «إبطال مذهب الدهريين».

■ **الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)**: مصلح ديني وسياسي مصري. تعلّم في الأزهر، وحرّر جريدة «الوقائع المصرية». نفاه الإنكليز، فأصدر مجلة «العروة الوثقى» في باريس سنة ١٨٨٤ بالاشتراك مع جمال الدين الأفغاني. عاد من منفاه إلى بيروت، فاشتغل في التدريس والتأليف. مفتي الديار المصرية سنة ١٨٩٩. له مقالات وخطب، ومن مؤلفاته «رسالة التوحيد» و«شرح نهج البلاغة»، و«تفسير القرآن».

■ **برقة**: شبه جزيرة في ليبيا شرقي خليج سرت. في شماليّها هضبة الجبل الأخضر، ومن مدنها: بنغازي، طبرق، درنة.

■ **القفقاس أو القوقاز (Kavkaz)**: سلسلة جبال جنوب الاتحاد السوفياتي (سابقاً)، تمتد بطول ١٣٠٠ كم بين البحر الأسود وبحر قزوين، وتُعتبر حدوداً فاصلة بين أوروبا وآسيا.

■ **كريد (بالتركية) أو كريت (Crète)**: جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط، مساحتها ٨٣٣٦ كم٢، وسكانها ٥٠٠,٠٠٠ نسمة.

■ **الريف الإسباني**: سلسلة جبال شمالي المغرب، تمتد بشكل قوس على المتوسط بين مضيق جبل طارق غرباً ووادي ملوية شرقاً. تشرف على سهل المغرب وممرّ تازه الاستراتيجي. أهمّ مدنها: طنجة وسبتة وتطوان. اشتهر الريف بثورة عبد الكريم الخطابي على الإسبان سنة ١٩٢١، وعلى الفرنسيين سنة ١٩٢٥.

■ **عادل بن حمود أرسلان (١٨٨٧ ـ ١٩٥٤)**: من أمراء الشوف اللبناني، وشقيق شكيب ونسيب أرسلان. تعلّم في بيروت والآستانة. عضو في «العربية الفتاة»، ثم في مجلس النواب العثماني. شارك في الثورة السورية الكبرى، وحكمه الفرنسيون بالإعدام، ثم عاد إلى دمشق، وتقلّب في مناصب إدارية ووزارية. مات في بيروت.

٢٤

الشيخ بشارة الخوري
رجل من لبنان

«أريد ولو مرة واحدة أن يوجه المقيم خطابه إلى عقل المغترب لأنني أمين من عواطفكم، واثق من حنينكم، مؤمن بنزعتكم إلى الرجوع إلى البلد الصغير الذي تؤثرونه على المدينة الكبرى وعلى الهناء والرخاء، لأن لبنان مسقط رأسكم فيه السرير الذي استقبلكم يوم ولدتم، وفيه المدفن الذي ضم رفات آبائكم وأجدادكم».

«إنه يخالج أنفسكم حلم مماثل لحلمي وهو أن تعودوا إلى الوطن، إلى أرض لبنان، وأن تتمتعوا بكل ما وهبته إياه العناية، من جمال، وما كسته إياه الطبيعة من مهابة وجلال، فيجتمع حلمانا في هذه الأرض العزيزة أرض الوطن، وتتعانق أرواحنا، ونستعيد ذكرياتنا وتتضامن جهودنا ونستفيد من كل تضحية في سبيل لبنان واستقلاله ومجده وعمرانه».

رئيس الجمهورية اللبنانية
من ندائه إلى المغتربين اللبنانيين

هذا مقطع من النداء البليغ الذي وجهه زعيم لبنان ورئيس دولته ورمز استقلاله الشيخ بشارة الخوري إلى اللبنانيين المغتربين الذين يعيشون بعيدين عن هذا الوطن الجميل وراء البحار وفي وسط القارات الثلاث: أميركا وأوروبا وأفريقيا، يدعوهم فيه إلى أن يذكروا

لبنان ويعودوا إليه ويتعاونوا مع المقيمين فيه على استكمال استقلاله ومجده وعمرانه. وهذه عاطفة نبيلة من رئيس لبنان الكبير وابنه العريق البار الذي لم تنسه أعباء الرئاسة ومشاغل الدولة ومتاعب السياسة أولئك اللبنانيين المغتربين الذين رفعوا اسم لبنان عالياً في ميادين الحياة من علم وأدب وتجارة، فاستحقوا إكبار البلاد التي نزلوا عليها وإعجاب الحكومات الأجنبية التي وفدوا إلى بلادها مهاجرين، فكانوا المثل الأعلى للاستقامة والخلق القويم، في ظل تلك البلاد التي شاركوا أهلها سرّاءهم وضرّاءهم.

ولا ريب في أن المهاجرين اللبنانيين كانوا سعداء إذ سمعوا صوتاً حنوناً يناجيهم بعاطفة الوطن، ورئيساً كريماً يدعوهم للعودة إليه، والتمتع بما وهبته إياه العناية من جمال، وما كسته الطبيعة من جلال، خصوصاً وأن هذا الرئيس النبيل يعدّ عودتهم إلى وطنهم الصغير حلماً جميلاً في نفسه، كما أن هذه العودة هي حلم جميل في نفوس أولئك المغتربين، فرئيس لبنان يحنّ إذن إلى عودة أبنائه النائين كما يحنّ هؤلاء مثل حنينه، ويحلمون مثل حلمه. وأي حلم أشجى للنفس وأحب إلى القلب من عودة المغترب إلى وطنه، والمهاجر إلى بيته، والمنفي إلى أهله وعشيرته؟

على أن بين هؤلاء المغتربين رجالاً يقتلهم الحنين إلى لبنان، ويودون لو عادوا إليه بكل ما يملكون في هذه الدنيا من مال وجاه، ولكنهم لا يملكون حرية العودة إليه لأن السلطات الأجنبية التي كانت تسيطر على لبنان ومقدراته وسيادته الداخلية والخارجية قد أصدرت أحكامها على بعض أولئك اللبنانيين بالإعدام أو بالنفي المؤبد. أما اليوم وقد عاد إلى لبنان استقلاله الكامل، وقبض على سيادته الداخلية والخارجية، فهل يسمح لنا رئيسه الجليل أن نذكّره بالذين عملوا مكافحين مناضلين مغتربين في سبيل هذه السيادة وهذا الاستقلال؟ وهل لا يشجيه أن يكون رجل من لبنان خدم العرب والإسلام خمسين سنة ولمع اسمه في هذه الدنيا لمعان النجوم وهو من أعرق الأسر اللبنانية وأقدم أمراء هذا الجيل، هل لا يشجيه أن يحال بين هذا اللبناني العريق وبين العودة إلى القرية التي فيها سرير مولده وفي ضاحيتها مدفن آبائه وأجداده، والتي يتمنى أن يختم البقية الباقية من حياته فيها وفي ظل ذكريات صباه، وأحلام شبابه؟

إننا نذكّر الرئيس اللبناني الذي نادى المغتربين بالعودة إلى الوطن، برجل لم يستطع أن يعيش في موطنه الصغير الذي كانت تحتله دولة حالت بين الكثيرين من نوابغ لبنان وبين الحياة في بلادهم، إننا نذكّره بأمير البيان الأمير شكيب أرسلان الذي يقيم منذ ثلاثين سنة في أوروبا بعيداً عن الوطن الذي يعتز به ويفضله على كل وطن في الدنيا، فلقد آن لهذا الرجل الذي نيف على السبعين أن يقضي بعد ما كافح الحياة وكافحته، وغالب السياسة وغالبته، وأرهقته الغربة الموحشة، وأمضّه بقية عمره فراق الأم والأخ والجار، لقد آن له أن يعود إلى القرية الصغيرة في لبنان المستقل الذي ينعم بزعامة نبيلة ورئاسة حكيمة، وعهد مليء بالخير والبركة. وكم يكون أمير البيان سعيداً أن تكتب له الحياة أو ما بقي له من هذه الحياة في لبنان في عهد الشيخ بشارة الخوري بعد أن حرمت عليه في عهد جميع الرؤساء السابقين، بل كم يكون العرب والمسلمون سعداء أن يطمئنوا على الرجل الذي خدمهم وخدم بلادهم نيفاً وخمسين سنة، بأنه استقر بعد طول جهاده وقديم غربته، في وطنه وفي قريته.

إننا على ثقة بأن في لبنان شعباً كريماً وشجاعاً، يكون مغتبطاً وسعيداً يوم يطل أميره النائي، في ظل هذا العهد الذي ترفع فيه راية الاستقلال والذي يدعى المهاجرون والمغتربون للعودة إليه.

لقد سعد لبنان بأنه استقل في عهد رئاسة الشيخ بشارة الخوري الذي له في قلوب السوريين والعرب كما له في قلوب اللبنانيين من الإجلال والمحبة والاحترام ما لم ينله رئيس قبله في قليل أو كثير، فهل يشعر هؤلاء الناس الذين يجلون الأمير شكيب ويعتزون به ويفاخرون بعلمه وأدبه ورجولته وكفاحه في سبيل تحرير العرب.. هل يشعر هؤلاء جميعاً بالسعادة التي تغمر الأمير الكبير حين عودته إلى وطنه؟

لقد سجل الشيخ بشارة الخوري في عهد رئاسته استقلال لبنان ومجده وتحمّل في سبيله ما لم يتحمله أحد قبله، فهل يسجل باسم العرب والإسلام أنه أعاد أمير البيان إلى وطنه في هذا العهد أيضاً؟

لقد وجب على رئيس لبنان وحكومته وشعبه أن لا يحرموا لبنان من عودة رجل كالأمير شكيب تتمنى أكبر الأوطان أن يكون من أبنائها، كما أن لهذا اللبناني النائي الذي رفع اسم لبنان عالياً بين علماء

الدنيا أن يأوي إلى بيته العتيق في ظل «الشويفات»، تلك القرية التي سجلت للبنان أول معركة من معارك الاستقلال، كما سجلت للشيخ بشارة الخوري أعظم معركة من معارك الوفاء.

أجل! لقد آن لأمير البيان بعد انقضاء سبعين سنة أن يهادن الحادثات وتهادنه، وأن يقف في ظل القرية التي رأى النور وراء جدرانها يردد قول صديقه وزميله أمير الشعراء:

طريد السياسة منذ الشباب لقد آن أن يستريح الطريد
لقيت الدواهي من كيدها وما كالسياسة داء يكيد

١٩٤٥/١٠/٢٦

هوامش

■ **بشارة خليل الخوري (١٨٩٠ ـ ١٩٦٤)**: سياسي ومناضل لبناني، ولد في رشميا، ودرس الحقوق في باريس. تقلّب في مناصب إدارية وسياسية كثيرة، ثم انتخب رئيساً للجمهورية سنة ١٩٤٣ ـ ١٩٥٢.

■ **الشويفات**: بلدة في ضاحية بيروت الجنوبية.

٢٥

الأمير شكيب أرسلان
رجل يموت
وصفحة تنطوي

حين يكتب الكتّاب ويؤرخ المؤرخون سيرة رجل كسيرة الأمير شكيب أرسلان بعد موته يتساءلون في أنفسهم: أيكتبون عن العالم الفذ أم عن المجاهد القديم؟ أما العلماء فإنهم واجدون في سيرة أمير البيان وفي تاريخه وفي إنتاجه عصراً كاملاً من العلم والأدب والتاريخ، وأما الوطنيون الذين وقفوا حياتهم في خلال ثلاثين سنة على تحرير بلادهم من ذلّ الأجنبي واحتلاله فهم يرون في هذه السيرة جيلاً كاملاً من الجهاد والنضال ومعركة متصلة بلا انقطاع تثار من أجل الحرية والاستقلال بقلم ملأ صفحات الدنيا ومحافلها وأنديتها بياناً ساحراً وحججاً دامغة ودفاعاً مجيداً عن سورية وعن البلاد العربية كلها. ونحن في هذه الجريدة أعجز من أن نلمّ بعض الإلمام بتاريخ فقيد العرب والإسلام الذي فتح جيلنا عيونه على بيانه الرائع ودفاعه المجيد في سبيل استقلالنا وسيادتنا وكرامتنا، فإذا بكيناه فإنما نبكي فيه أقدم مجاهد وأخلص وطني وأشجع كاتب علّم الكتاب وأرشد السياسيين ونصح الحاكمين.

لقد مات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان فطويت بموت هذا الرجل صفحة تضم تاريخ جيل كامل من العلم والأدب والتاريخ والوطنية، ولعل الصفة البارزة في سيرة فقيد العرب والإسلام هي أنه قلّ ان

يجمع رجل واحد في حياته الطويلة بين الإخلاص للعلم والأدب والتاريخ بكثرة ما أنتجه من المؤلفات في هذا الميدان، وبين الدأب على العمل الوطني والسياسي لكثرة ما كان يكتب ويجول في هذه الساحة التي ترهق الشباب الأقوياء، فضلاً عن الرجال الذين نيفت أعمارهم على الستين، فإذا كان الأمير شكيب قد أتّم الثمانين من عمره فمعنى ذلك أنه سلخ ستين سنة يكتب في السياسة ويناضل في ميدان الوطنية. وحسب هذا الجيل من رجال السياسة والوطنية في سورية حزناً عليه بأنهم عرفوه في مقدمة الصفوف الأولى من المجاهدين الذين امتاز جهادهم بتعريف سورية إلى العالم وتقديم قضيتها إليه ونشر ظلاماتها في أنديته ومؤتمراته.

على أن الناحية المؤلمة في موت الأمير شكيب هي أنه عاد إلى هذا الوطن بعد أن فارقه محتلاً مستعمراً فوجده مستقلاً حراً. عاد من منفاه الطويل الذي نيف على الثلاثين سنة ليقر بهذا الاستقلال عيناً، فحرمه القدر من هذه الأمنية، حتى لقد حال بينه وبين زيارة دمشق التي كان يحلم برؤية فرنسة جالية عنها، فمات قبل أن يراها، وليس في سمائها إلا راية واحدة هي راية الحرية التي طالما ناضل من أجلها، فكأنه عاد من المنفى ليموت ويدفن في تربة الوطن الذي كان أبرّ أبنائه وأشجع مجاهديه وأكرم سياسييه.

يا للرجال النائين عن أوطانهم ما أشد حنينهم إليها وما أصدق شعورهم حين يتحدثون عنها؟!

ولقد عاد الأمير شكيب أخيراً ولكنه عاد كما قلنا من المنفى إلى القبر... فصدق إلهامه وشعوره بأنه يريد العودة ليموت لا ليعيش. وها هو يُحمل أمس إلى القرية التي ولد فيها وأحب أن يموت على مقربة منها ويدفن في ثراها.

ألا ليت الخلود يكتب للذين تنتفع البلاد من علمهم وجهدهم وإنتاجهم، لتمنينا إذن هذا الخلود لرجل كالأمير شكيب أرسلان، ما عرف اللهو والعبث في حياته بكل ما عمله واشتغل به، بل كان العلم والجد والنفع والجهاد هو الذي يعيش ويحيا من أجله وفي سبيله، ولكن لا خلود لإنسان لأن الموت مصيره مهما عاش ومهما طالت حياته، وهكذا كان مصير صاحب «حاضر العالم الإسلامي» أعظم مؤلف للتاريخ السياسي الحديث في مئة سنة ـ كان مصيره الموت

قاهر الجبابرة والضعفاء على السـواء. وما عسى أن نكتب عن رجـل اعترفنا سلفاً بعجزنا عن الإلمام بسيرته وتاريخه، غـير أن نقول فيـه هذه الكلمة ساعة الفاجعة وفي يوم المصيبة.

١٩٤٦/١٢/١٢

هوامش

■ «حاضر العالم الإسلامي»: كتاب ألّفه الكاتب الاميركي لوثروب ستودارد (Lothrops) (Stoddard)، ونقله الى العربية عجاج نويهض، وعلّق عليه الأمير شكيب هوامش وفصولاً جعلته أضعاف ما كان في مجلّدين.

خالد الخطيب
أول صوت
في أول فتح وطني

وقال أصيحابي الفرار أم الردى — فقلت: هما أمران أحلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني — وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

هذان بيتان من الشعر الحماسي استهل بهما كلمتي في حفلة تأبينية نبكي بها فقيد الوطن والشباب وفقيدنا نحن أبناء هذه المدينة التعيسة، لا لأتمثل بهما في مثل هذه الساعة الحزينة ساعة الذكرى الممضّة والأمل المنطفىء، بل لأستعيد بهما صوتاً عذباً طالما سكب السلوى والعزاء والسرور في نفوس اليائسين وأفرغ على قلوبهم الصبر والشجاعة.

إن هذين البيتين أيها السادة هما الصورة الحقيقية لنفس خالد الخطيب وحياته ووطنيته وجهاده وموته. فإذا سئل من يعرف خالد الخطيب عن هذه الشخصية المفقودة فإن أوجز جواب يستطيع أن يجيب به سائله هو: «لقد كان خالد الخطيب مقطوعة رائعة من الشعر الحماسي في ديوان الحياة».

كلكم تعرفون خالد الخطيب، وتعرفون طفولته ونشأته وشبابه، وفيكم المجاهدون الذين يعرفون جهاده، ولكني أنا وحدي الذي عرفته في الساعة التي هي محكّ صادق لإخلاص الرجال.. عرفته ثمانية عشر شهراً بلياليها ونهاراتها، وفي الساعات التي يكون الحكم فيها

صحيحاً على قوة أعصاب الرجال وضعفها وعلى صدق وطنيتهم أو كذبها، وعلى صحة العقيدة وبطلانها. بل عرفته في أيام فقد فيها أثمن ما يملك المرء في حياته وأغلى ما يحرص عليه الشباب المرح في عنفوان شبابه، عرفته أيها السادة وقد فقد حريته وأصبح سجيناً يحمل على ظهره عشر سنين بالأشغال الشاقة في جزيرة أرواد النائية وفي كهوفها المظلمة. فإذا بخالد الخطيب لم يخرج عن كونه تلك القطعة الشعرية الرائعة من ديوان الحماسة، بل هو هذان البيتان اللذان سمعتموهما في مستهل كلامي. هذان البيتان اللذان حفظهما كل من كان في أرواد، حفظتهما حجارة السجن، ونقشا على جدران القلعة. وكاد رجال الحرس الإفرنسي أن يحفظوهما لكثرة ما ارتفع بهما صوت خالد الخطيب يغنيهما طروباً على نغمات العود.

تمر أيها السادة بالسجين ساعات تعاف فيها نفسه القراءة والكتابة واللعب والحديث، فيغرق في صمت رهيب لا يدري كم يقطع من الوقت في غماره.

ففي غمرة من غمار هذا الصمت، وفي ساعة من ساعات الضجر واليأس، ينادي حارس السجن: البريد، البريد فكنا نتسابق إلى الباب الحديدي، نتلقف ما يحمل إلينا بريد دمشق وحماه. وكان لخالد الخطيب في كل بريد كتاب من المرحوم والده، يكاد يكون جريدة يومية لأخبار حماه المحلية، يسرد له فيها من نكاته المحببة وحادثاته الحلوة ما يروّح قليلاً به عن نفسه، ويكون موضوعاً لحديثنا طوال الفترة التي تلي يوم البريد، حتى إذا جاء البريد الآخر طوينا حوادث البريد الماضي لنبحث حوادث البريد الجديد.

وفض خالد الخطيب في أحد أيام البريد كتاب والده، فإذا به يقول له: «ليس عندي في هذه المرة حوادث جديدة، أحدثك بها وأسليك بأخبارها ففي اللحظة التي تنتهي فيها من قراءة كتابي هذا ادخل غرفتك وامسك بعودك وغن عليه هذين البيتين:

وقال أصيحابي الفرار أم الردى فقلت: هما أمران أحلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر»

ونفذ خالد إرادة والده، فكان هذان البيتان سلواناً في السجن، يغنيهما على العود في الصباح والمساء وفي الليل حتى تكاد حجارة السجن أن ترددهما معه. فقد كانا قبل أن يكتبهما له والده دستور

حياته الوطنية ثم أصبحا بعد ذلك خطته الدائمة وبرنامجه العملي.

لقد كنا بهذين البيتين فخورين بالأسر، وكان خالد الخطيب يفتخر علينا جميعاً بأن والده كان أيضاً فخوراً به وبأسره معاً، فما كان يحب له الفرار من المعركة ولا يطيق له الردى فيها، وإنما كان يعتز باعتقاله ونفيه.

ليس خالد الخطيب مفخرة لكم وحدكم أيها المواطنون الأعزاء، بل كان علم الله مفخرة للفتح الوطني في هذه البلاد بعد الاحتلال.

هذه دمشق وهذه نهضتها الوطنية، وهذا أول فتح لأول وثبة وثبها الشعب على ضفاف بردى، متمرداً على القوة، يقاوم عناصرها من إرهاب وتنكيل، وهذا هو اليوم السادس من نيسان عام ١٩٢٢. اسألوا هذه جميعها تجبكم بلا تردد: لقد كان خالد الخطيب قائد رعيلها الأول وعلمها الأمامي وصوتها العالي والصرخة الداوية التي ارتفعت في جوانب الشام وترددت في أرجائها، بعد أن جثم كابوس الاحتلال على الصدور والألسنة والأقلام نيفاً وعشرين شهراً، فاجتاحت صرخة خالد الخطيب الطلاب في مدارسهم والتجار في حوانيتهم، وجماهير الشعب في أحيائهم، فصاحوا بصوت واحد كان أعلاها صوت خالد: ليحْيَ الاستقلال.

أجل: لقد كان أول من نادى علناً في الشوارع وفي وسط النطاق المضروب على الجماهير من رجال الشرطة والدرك قائلاً: ليحيى الاستقلال! هو خالد الخطيب، ومنذ ذلك اليوم يوم ٦ نيسان من عام ١٩٢٢ أصبح الناس لا يخافون من الهتاف بالاستقلال علناً.

إن انضمام خالد الخطيب إلى الزعيم الدكتور شهبندر في حركة ٦ نيسان أخرج الوطنية بعد الاحتلال من خلوات المنازل إلى ساحات الشوارع، وأبدل الهمس بالاستقلال مناداة بتحية الاستقلال والهتاف له بأصوات عالية وعلى مرأى ومسمع من حكومة الاحتلال وشرطتها ودركها، وحمل الناس على اقتحام أبواب السجون في سبيل الاستقلال، وان الحكم على دعاة الوطنية بالسجن والنفي لا يميت ولا يعيب، ولكن الفرار هو الذي يعتب والموت مرهون بالآجال. وإذا بخالد الخطيب يبدو للناس بقامته الطويلة وصوته العالي في وسط تلك المعركة الأولى كأنما هو البيتان اللذان قالهما أبو فراس:

وقال أصيحابي الفرار أم الردى فقلت: هما أمران أحلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

لقد أبيح للمؤبنين أن يذكروا محاسن الموتى، وأن يبالغوا في ذكر هذه المحاسن، فأصحابها قد رحلوا عن هذه الدنيا فلا سبيل للغرور إلى نفوسهم، ولكني شهد الله أيها السادة لم أكن في خالد الخطيب أحد أولئك المؤبنين، بل أنا في موقفي هذا أؤدي حقّ خالد وحقّ الواقع وحقّ يوم ٦ نيسان ١٩٢٢ الذي كان يوم الفتح الوطني المبين في دمشق تلك المدينة التي داهمها الاحتلال بكابوسه بعد أن كانت تنعم بالاستقلال، فخلت ميادين الوطنية من رجالها حيث كانت قوائم المحكومين بالإعدام ما تبرح معلقة على جدران العدلية ودار الحكومة وقصر البلدية، فاستولى الذعر على النفوس نيفاً وعشرين شهراً في ظل الإدارة العرفية والمحاكم العسكرية. حتى إذا عاد الزعيم شهبندر من مصر وجاء المستر كراين إلى دمشق سائحاً كان يوم ٦ نيسان يوم وداع السائح الأميركي، ولكنه كان أيضاً يوم الفتح الوطني بعد ذلك الخوف الطويل، فبرز الشهبندر إلى الشارع يرمق الشعب المستكين الذاهل، ويتلفت إلى من يصيح بهؤلاء الناس أن اهتفوا لاستقلالكم المغتصب وبلادكم المحتلة، فإذا بصوت خالد الخطيب يلعلع في الجو، وإذا برصاص الشرطة يكاد يطغى على ذلك الصوت، ولكن الصرخة كانت قد انطلقت، فإذا بهتاف الشعب للاستقلال والحرية يسكت الرصاص ويكسر العصي، وإذا بخالد الخطيب يقود المعركة، ولكنها لم تنته بالفرار ولا بالردى بل انتهت بالأسر والسجن.

هذا هو خالد الخطيب أيها الحمويون الأوفياء، هذا ابنكم الذي تحتفلون بذكراه اليوم، وهذه صفحة من صفحات حياته المطوية على أمجد ما تطوى عليه حياة الرجال. بل هذا هو الحموي الذي كانت آخر أمنية من أمانيه قبل الموت جرعة من ماء العاصي ولكنه مات وأسفاه قبل أن يذوقها.

لقد عرفت حمويين أكثر الناس فخراً بمدينتهما، وأبرّ الناس عهداً بها. وأعظمهم حنيناً إليها بذكرانها في كل مناسبة وفي كل مدينة: سامي السراج وخالد الخطيب.

كتب إليّ من عمان المجاهد الشجاع زكريا الداغستاني الذي مرّض

خالد الخطيب أربعة عشر يوماً لم يفارق سريره حتى فاضت روحه، كتب إليّ صورة عن مذكراته التي دوّنها ساعة بساعة منذ مرض خالد حتى مات، قال:

«وفي اليوم الثاني عشر من مرضه طلب مني بطيخة حمراء فأتيته بها فعصرت له ليشرب ماءها؛ وبعد أن شرب عصير البطيخة التفت إلي قائلاً: آه الآن أنعشت قلبي وليتني أتجرع جرعة ماء من ماء العاصي».

هذه كلمة يقولها فقيدكم النائي عن وطنه الأول تدلكم على شدة حبه لحماه وتعلقه بها. إنه يطلب جرعة من العاصي ولكن هيهات فقد عاجلته المنية قبل أن يذوقها.

أيها السادة:

ليس فقيدكم بالرجل الذي يستطيع الموت أن يطوي ذكره بقليل من الزمن، فكلما ذكرت مفاخر النهضة الوطنية في هذه البلاد كان خالد اللؤلؤة المشرقة في عقدها، وكلما ذكرت قوافل أصحابها في سبيل هذا الوطن، كان خالد في طليعة هذه القوافل التي مشت إلى السجن وإلى المنفى وإلى الجهاد ثم إلى القبر.

١٩٣٣/١/٩

هوامش

■ **وقال أصحابي: الفرار أو الردى**........: البيتان من قصيدة لأبي فراس الحمداني، ومطلعها:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر؟

■ **٦ نيسان /ابريل ١٩٢٢**: في ٢ نيسان /ابريل ١٩٢٢، زار تشارلز كراين (Crane) سورية على رأس لجنة أميركية غرضها تقصّي الحقائق، فالتقى عدداً من الزعماء الوطنيين والعلماء والمحامين والتجار، كما زار زوجات الشهداء (شهداء ١٩١٥ و١٩١٦). وحين قرّر مغادرة دمشق، انطلقت مسيرة شعبية من أمام فندقه في المرجة تهتف للحرية والسيادة وتندّد بالفرنسيين. فسارعت الحكومة في اليوم التالي إلى اعتقال عدد من الزعماء في مقدمتهم الدكتور الشهبندر، فتلا ذلك تظاهرات جديدة، وبرقيات، وعرائض، وإضراب عامّ في ١٠ نيسان /ابريل ١٩٢٢.

■ **تشارلز كراين (Crane)**: ثري أميركي زار سورية في نيسان /ابريل ١٩٢٢ على رأس لجنة استفتاء أميركية أو لجنة تقصٍّ للحقائق، فأقام في دمشق أياماً، اتّصل خلالها بشخصيات وطنية في مقدمتها الدكتور الشهبندر، وزار بعض المؤسسات الوطنية، واستقبل وفوداً. انتهت زيارته بتظاهرات وصدامات بين الفرنسيين والوطنيين الذين اعتقل عدد كبير منهم.

■ **سامي (أو أحمد سامي) بن محمود السرّاج (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣)**: صحافي سوري من حماه، أصدر جريدة «العرب» في حلب سنة ١٩١٨، فكانت أول جريدة تصدر في هذه المدينة بعد رحيل الأتراك. وبعد دخول الفرنسيين، حُكم عليه غيابياً بالإعدام، فارتحل إلى القاهرة، ثم إلى شرق الأردن، فالحجاز، فالقدس أخيراً. عاد إلى حماه سنة ١٩٥٤، فعيّن مديراً للمركز الثقافي فيها إلى أن توفّي.

خالد الخطيب
مخاطرة في الثورة
وجهاد في المنفى

هكذا عاش خالد الخطيب، وهكذا يموت اليوم بعد عشر سنين كاملة يقضيها هذا الشاب القوي مجاهداً في سبيل وطنه بين السجن والثورة والمنفى، ثم يأبى الله أن يعود إلى هذا الوطن كما خرج منه بل جثة محمولة إلى القبر؟!

اللهم! إنها لفاجعة من فواجعك القاسية، ومصيبة من مصائبك المفاجئة التي لا تقوى على احتمالها قلوب البشر!

خالد الخطيب مريض.. خالد الخطيب ينازع.. وأخيراً.. لقد مات خالد الخطيب.

هذه هي الأخبار الثلاثة التي مرت علينا مرّ السحاب في خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فما نكاد نتحقق خبر المرض حتى يفاجئنا خبرُ الاحتضار ثم تأتي قاصمة الظهور، فإذا خالد صريع بين أظفارها، وإذا بالمحكوم عليه بالموت، المنفي النازح، يطلبون له الإذن ليدفن في ثرى وطنه وقد كان محرماً عليه أمس أن يدنو من حدود هذا الوطن بغير عفو وبغير جواز، ولكنه اليوم يدخل هذه الحدود لا في ظل الدستور ولا في حماية قانون العفو، وإنما يدخلها في حماية الموت وفي ظل المنية. يدخل وطنه لا بين التصفيق والهتاف بل بين البكاء والنواح، فيا للتعساء نحن! تحرم الحياة على فريق من رجالنا

وشبابنا المخلصين في بلادهم، ثم يباح لهم بعد الموت ليتخذوا منها قبوراً وأجداثاً!

والآن، لقد مات الشاب الذي قضى أنضر أيام شبابه في سجن أرواد، وفي كهوفها المظلمة، قضاها ثمانية عشر شهراً مرحاً طروباً، لم يتبرم بالسجن، ولا شكا من المنفى، بل شهد الله أنه كان أكثرنا جلداً وأصبرنا على عذاب السجن وشقائه. كان أكثر الجميع نشاطاً، وأقواهم صحة وعافية، وأغزرهم مروءة في خدمة إخوانه، ثم التحق بالثورة فقضى في ميادينها ما قضى بين الغوطة وجبل الدروز والأزرق، فحكم عليه بالإعدام في جملة من حكم في عام ١٩٢٥. ومنذ ذلك اليوم وخالد الخطيب لا تخمد عزيمته ولا يخفت صوته بل كانت حياته جهاداً وعملاً حتى لقي وجه ربه في عمان التي اتخذها مقاماً منذ أربع سنين. وإذا به اليوم يموت في ريعان شبابه ونضارة صباه، وإذا بذلك الوجه الصبوح المشرق وبتلك القامة الطويلة وذلك الجسم القوي وهاتيك الطلعة المؤنسة تصبح جميعها ملكاً للتراب!

من كان يظنّ أن خالد الخطيب الذي كان يضرب المثل بقوة جسمه وجمال صحته يصاب «بالكريب» فلا ينجو منه؟ ولكنه الأجل الذي لا حيلة في تأخيره، والقضاء الذي لا مردّ لحكمه، والموت الذي لا يفرق بين القوي والضعيف.

إن المصيبة في خالد الخطيب أجلّ من أن يُعزَّى بها، بل ان الفاجعة فيه فاجعة الشباب الوطني، والنكبة فيه إنما هي نكبة الرجال العاملين. فوالهف نفسي عليك أيها الصديق الأعز، ووالوعتاه على أمك التي لا تنفع في حرقتها عليك كلمات التعزية والتصبر وكل ما في اللغة من كلام! فلتبكِ عليك ما شاء لها الحزن، وليبكك إخوانك بكل ما عندهم من دموع فعلى مثلك يُبكى ويناح!

يا صديق الصبا ورفيق السجن والمنفى!

لقد أرسلت إليّ تعزّيني في العام الماضي في طفل احتسبته فمن يعزيني اليوم فيك أنت؟

ثمانية عشر شهراً في جزيرة أرواد، في سجن واحد وفي غرفة واحدة، قضيناها معاً ورفيقنا الثالث الأستاذ سعيد حيدر ردّ الله غربته، كنت أنت بيننا العزاء والسلوى بل كنت في نفسك المرحة ومزاجك

الطروب تنسينا آلام السجن ومـرارة النفي. أما اليـوم فمن ينسينا مرارة فقدك وآلام الفاجعة بك؟

لقد حرّمت عليك السياسة القاسية دخول دمشق التي أحببتها، فإذا بك تمر بها لا للإقامة في ربوعها ومغـانيها المحببـة إلى نفسك بـل في طريقك إلى القبر الذي أُعدّ لك في حماه، ثم تدخل حماه محمـولاً على الأعناق باستقبـال حزين وقـد دخلتها منـذ عشر سنين محمـولاً على الأكفّ باستقبال فرح طروب يوم عدت من منفاك في أرواد، فيا لله ما أعظم الفرق بين استقبال اليوم واستقبال الأمس، وما أمرّ الذكـرى بين العودة من منفى عمان ومنفى أرواد؟!

أحكمٌ بالإعدام، ونفي وتشريد، وبعد عن الأهل والوطن، ثم مـوت في الغربة، وثكل للأم، وترمل للزوجة، ويتم لهذه الطفلة التي خلفتها من بعـدك، وحـرقـة لـلإخـوة والأخـوات، ومـرارة لا تـزول لإخـوانـك وأصدقائك؟!

أيها الصديق الغالي:

إنني أحاول أن أكتب فيك كلمـة أخفف بها من لـوعتي عليك، ولكني لا أعلم كيف أبـدأ جملتي وكيف أختمها، فلقـد حسبت أن أكتب في تهنئتك بالعودة إلى الوطن ولم أحسب أنني سـأكتب يومـاً في موتـك وفي رثائك؟ بل لقد توقعت كل شيء فيك يوم التحقت بالثورة، تـوقعتُ أن تموت برصاصة أو بشظية من قنبلة، وإذا بك تموت من إصـابة «كريب» وأنت الطبيب والشاب والقوي!

والهف نفسي عليـك أيهـا المخلص في عقيـدتـك، الشجـاع في رأيك، الطموح في آمالـك ومستقبلك! أفي خـلال بضعة أيـام تفاجئـك المنية المفجعة، محكوماً عليك بالإعدام، ممنـوعاً من دخـول بلادك، غـريباً عن أهلك وإخوانك؟!

لا بأس عليك بعد الموت، أمتّ في عرينك أم قضيت في غيره، فقد كانت بلاد العرب وطنك وقبلة آمالـك، ويرحم اللـه شوقي حـين قال:

يموت في الغيل أو في غيره الأسد   كـل البـلاد وسـاد حـين يتّسـد

١٩٣٣/٣/٧

هوامش

■ **سعيد بن إبراهيم حيدر (١٨٩٠ ـ ١٩٥٧)**: ولد في بعلبك وتعلّم بدمشق، ثم تخرّج في الحقوق من الآستانة، وعمل محامياً، ثم أستاذاً للحقوق في الجامعة. كان من أعضاء «العربية الفتاة»، ثم عضواً في «المؤتمر السوري» ثم انتخب نائباً عن دمشق. عضو في مجلس الشورى ثم رئيسه حتى وفاته.

٢٨

أحمد شوقي
الرجل الذي خلد
دمشق

قرر المجلس البلدي في بيروت تسمية شارع من أكبر شوارع المدينة باسم المرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي بك. وقد أحيل القرار على لجنة خاصة لانتقاء الشارع الذي يطلق عليه «شارع شوقي».

ما أحسن الاعتراف بالجميل عندما يكون مكافأة لرجل قدم هذا الجميل ثم مات! وما أسوأ الزلفى وتقديمها ثم حمل الناس على أن يسموها جميلاً لرجل لم يقدم شيئاً من الجميل ولكنه قويّ وحيّ!

هذا ما وقع في بيروت: زلفى سموها جميلاً وحملوا أهل البلاد على أن يعترفوا بها فاعترفوا، وجميل أحسنوا في معرفته فاعترفوا به بعد موته، وكافأوا صاحبه عليه، فإذا كانت الأولى موضعاً للبحث والفخر، فإن الثانية موضع للفخر والشكر. أما دمشق فقد اقترفت الأولى ولم تكفّر عنها بالثانية!

بيروت.. مدينة التجارة والشاطىء، وعاصمة جبل الاصطياف، و«بابل» الأمة العربية ودار أكبر الجامعات والكليات ومعاهد العلم، ومجمع أعظم «البارات» والمراقص والملاهي أيضاً... من قنال السويس إلى خليج فارس! بيروت بلد المتناقضات وملتقى مختلف «الوطنيات» والسياسات والطوائف تعترف بجميل شوقي عليها وعلى جبلها فتخلد اسمه في شارع من شوارعها ولم يقل شوقي فيها جزءاً

مما قاله في دمشق. ودمشق التي لم يخلد شوقي اسمها في شعره فقط، بل أعاد إليها مجموعة من أثمن لآلىء التاريخ كانت منسية مهملة من أهلها وسكانها، وردّ عليها أمجد ذكرى من تاريخ الدولة الإسلامية الكبرى. وقد كانت هذه الذكرى ضائعة حتى عند شعرائها! دمشق تنسى وبيروت تقطن؟! ودمشق تعقّ وبيروت تفي؟! اللهم ان هذا خزي وطني وعار قومي، لا ندري كيف نلقى بهما شوقي يوم القيامة؟ ولكن لكل ذنب كفارة، وما برح في الوقت مجال للتفكير، فهل تريد بلدية دمشق أن تبيض وجه الشام وتعمل عمل بيروت؟

لا نقترح على المجلس البلدي أن ينتزع أسماء الملوك والرؤساء والمفوضين السامين من على الشوارع التي قررها لهم، ويضع اسم شوقي مكانهم، ولا نطلب إليه أن يعطي شوقي شارع الحميدية أو شارع النصر، فقد يحتاج المجلس إلى هذين الشارعين لزلفى من الزلفيات الكبيرة التي تقضي بها السياسة، فيطلق عليهما أسماء بعض رؤساء الحكومات أو العظماء الأجانب.. ولكننا نقترح عليه مكاناً لا يتجاوز طوله أقصر زقاق وأضيق منعطف، ولا نطلب إليه أن يسميه شارعاً بل نقنع بأن يسميه «دخلة» أو «زقاقاً» ويضاف إلى اسم شوقي فقط. أما هذا المكان الذي نطلبه فهو الذي نثر على أرضه أمير الشعراء لآلىء التاريخ ومجد الإسلام. نطلب المكان الضيق، المظلم، الذي يتفق مع حزن شوقي على مفاخره الماضية، إننا نريد أن يكون «باب البريد» لشوقي، هذا المكان الممتد من شمالي الجامع الأموي إلى دار المجمع العلمي في المدرسة العادلية فإنه يتفق مع أول زورة زارها الشاعر الخالد لدمشق في شهر آب من عام ١٩٢٥ يوم أيقظ في أهل الشام تلك الكرامة النائمة، ونبه في نفوسهم ذاك المجد المنسي، يوم فاجأهم بقصيدته «الأموية» وأسمعهم بعد ألف سنة أسماء غسان ومروان والمسجد الأموي وطليطلة والزهراء والفيحاء، وفرط على تراب المدرسة العادلية ذلك التاريخ الضخم المتشابكة أطرافه وأوائله وأواخره بعضها ببعض في غمار ألف سنة يوم ناجى جلّق الصاخبة الثائرة في جبلها وغوطتها، وغمز إباء أهلها وأبنائها في معلقته الفذة:

مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلّ أو المحراب مروان

أجل! هذا مكان شوقي، وهنا ذكراه، ففي «باب البريد»، وعلى

جدران الجامع الأموي، وعلى قبر صلاح الدين الأيوبي، امتدت يد شاعر العرب والإسلام أحمد شوقي مرتجفة متواضعة، فمحت ما خطه شاعر العرب والإسلام أيضاً، حسان بن ثابت، على قصور الغسانيين من آل جفنة، وحلّت «جلّق» شوقي محل «جلّق» حسان.

نعم وألف نعم. وبعد نيف وألف وثلاثمائة سنة، وقف أحمد شوقي يلقي علينا:

قم ناج جلّق وانشد رسم من بانوا   مشت على الرسم أحداث وأزمان

فمحا ومحونا معه قول حسان:

انظر خليلي بباب جلّق هل   تؤنس دون البلقاء من أحد؟

ولكن «جلّق» شوقي كانت ألزم إلى وطنيتنا وجهادنا وإبائنا من «جلّق» حسان، فقد أيقظت فينا كرامة نائمة، وغمزت منا إباءً رخواً، وردت علينا تاريخاً ضائعاً.

أيها الرجال في المجلس البلدي:

ها هو شوقي أمامكم يخطر بين «المسجد المحزون»، و«صلاح الدين»، وها هو يخلّد دمشق، فخلدوا اسمه في المكان الذي أحبه واستوحى منه شعره، أعطوه «باب البريد» على الأقل، فقد أعطى دمشق والشام والعرب والإسلام أثمن ما يعطي شاعر أمة من عبقريته ووحيه وعاطفته ودمعه.. واذكروا آخر ما قاله في مدينتكم:

ألستِ دمشق للإسلام ظِئراً   ومرضعة الأبوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يزين   ولم يوسم بأجمل منه فرق

١٩٣٤/١١/١٢

هوامش

■ **المجمع العلمي العربي**: هـو مجمع لغـويّ أو جمعية علميـة أدبية أنشئت في دمشق سنة ١٩٢١، ثم أصدرت مجلّة خاصّة بها دعيت «مجلة المجمع العلمي العربي».

■ **المدرسة العادلية**: هي المدرسة التي بناها في دمشق الملك (الأيّوبي) أحمـد بن أيوب الملقّب بالملك العادل.

■ **جلّق**: من أسماء دمشق.

■ **آل جفنة**: الغساسنة أو بنو غسّان. سلالة عربية يمنية الأصل، هجرت بـلادها عنـد انفجار سدّ مأرب في القرن الثالث. استوطنت أجزاء من سوريـة الطبيعية، ولا سيّمـا بلاد حوران. اعتنقت المسيحية، وتعاونت مـع البيزنطيـين، فحمت الحدود السـورية. أشهر ملوكها: الحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩م)، والمنذر بن الحارث (٥٦٩ ـ ٥٨١).

■ **حسان بن ثابت (ت ٦٧٤م)**: شـاعر مخضرم من أهـل المدينـة. مدح الغسـاسنة في الجاهلية. أسلم ولقب بشاعر النبي. هجا القرشيين. له ديوان شعر.

■ **السّت دمشق للإسلام**......: من قصيدته التي ألقاها في حديقة الأزبكيـة بالقـاهرة، ومطلعها:

سـلام مـن صبـا بـردى أرقّ ودمـع لا يكفكـف يـا دمشـق.

رحمون محوك
تبكيه مدينة
وتخسره ساحة

ليس الرجل الذي نكتب عنه عالماً عظيماً، ولا سياسياً خطيراً ولا خطيباً مشهوراً بل هو رجل من هؤلاء الناس الذين تقرأ أسماءهم مجردة من ألقاب العلم والوطنية والأدب، فلا تستوقف نظرك، ولا تشغل فكرك.

رجل قتل أمس برصاصة مجرم أعور، فروّعت له مدينة، واهتز لمصرعه ثلاثمائة ألف نسمة من أهلها، فبكته عيونهم، وحزنت عليه قلوبهم، وخسرته ساحة من أشرف الساحات وأمجدها.

أما الرجل فهو رحمون محوك! وأما المدينة فهي حلب، وأما الساحة فهي ساحة عمل الخير والبرّ بالفقير والإخلاص للوطن.

أجل! هذا هو الرجل الذي مشت حلب في جنازته وأبّنته الكتلة الوطنية: رجل كان يعمل حينما قتل للصلح بين عشيرتين، ليحقن الدم ويمنع الجريمة، فإذا به يسقط صريع الجريمة ويسفك دمه في سبيل حقن الدماء. فيا لله ما أظلم الإنسان وما أكفره! وما أقسى القدر وما أمرّه! وما أتعس حظ هذه البلاد تفقد المحسنين من رجالها وتخسر الخيّرين من أهلها فيذهبون دائماً ضحايا المروءة، ويموتون أبداً صرعى الإخلاص!

لم يكن رحمون محوك في حلب أكثر من تاجر من تجار الغنم، ولا أكبر من وجيه من وجهاء الأحياء النافذين في أحيائهم المطاعين في قومهم. ولكن التجار أمثال رحمون محوك كثيرون في عددهم وفي ثروتهم، وقد يكونون أكثر في نفوذ كلمتهم أيضاً، تراهم يملأون أسماء الصحف في حلب وبيروت ودمشق وغيرها من البلاد السورية، ولكنهم تجار ووجهاء فقط، أما رحمون محوك فقد كان من أولئك المحسنين إلى الفقراء إحساناً من غير منّ، ومن المخلصين لهذا الوطن إخلاصاً من غير إعلان. أما وطنيته فمن هذه الوطنيات الغالية الصامتة، تبذل من غير تبجح، وتعطي من غير شكر، يعمل الخير للخير نفسه، ويقدم على العمل الوطني للوطن ذاته. بيته مفتوح لكل مكرمة وطنية، ومبرة خيرية، فإذا بَكَتْهُ حلب، وأبّنته الكتلة الوطنية، فمدينة تفي حق الوفاء لفقيد عزيز من أهلها، وكتلة تقدر حق التقدير رجلاً من أكبر أنصارها، وركناً من أعالي أركان الوطنية في الشهباء.

اجتاحت المجاعة في شتاء العام الماضي بادية حلب، وأفنى الجدب مواشي أهلها، فزحف نيف وسبعة آلاف إلى الشهباء، يطلبون الخبز والمأوى، فكان رحمون محوك أول من فتح لهذه الوفود الجائعة بيته وخاناته، يقدم لها الطعام، ويقيها شرّ البرد، يعاونه فريق من أهل الأحياء الأخرى في جمع المال والدقيق طوال ثلاثة أشهر حتى جاء الربيع، ولكن محوك كان السباق إلى هذه المروءة، والقدوة الصالحة إلى هذه الأريحية.

رجل غير متعلم، بل هو من هؤلاء العامة الذين لا يتقنون من السياسة إلا السماع، ولا يفهمون من الوطنية غير حبّ الوطن، ولكنهم يتقنون شيئاً واحداً ليت الكثيرين من العلماء والمتعلمين يتقنونه هو الإخلاص الساذج لهذا الوطن الذي لا يحتاج إلى العلم بقدر ما يحتاج إلى الإخلاص، بل كان محوك يتقن شيئاً آخر فوق الإخلاص ما أشد حاجة القضية الوطنية إليه هو البذل في كل ما يُكلف به من غير تذمر ولا شكوى.

هذا هو القتيل الذي لُفّ نعشه بالراية السورية الوطنية، هذه الراية التي لا تخفق إلا على نعوش الموتى من أبناء هذا الوطن المخلصين، والتي لا نشعر باحترامها وجلالها إلا في المآتم والمصائب. بل هذه

هي البقيـة الباقيـة من مظهر الاستقـلال! فقد أخـذوا كل شيء من حقيقـة هذا الاستقـلال وحتى من مظاهـره، ولكنهم أبقوا لنـا هـذه الراية لنكفن بها موتانا على الأقل!

وبعـد فليس رحمـون محـوك فقيـد أهلـه وحـدهم حتى نقـدم لهم التعزية، ولكنه فقيد مدينة وخسارة فكرة وطنية سامية، رجل مات في سبيل جمع الكلمة، وسال دمه في سبيل حقن الدماء، وضحى بنفسه في سبيل المروءة والوفاء، ويرحم الله الكاظمي القائل:

تجنـي المـروءات عـلى أهلـهـا أكثـر مـا تجنـي الجنـايـات!

١٩٣٥/٥/٩

هوامش

■ **عبـد المحسن بن محمد عـلي الكاظمي (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥)**: شـاعـر عـراقي، ولـد في بغداد، ونشأ في الكاظمية فنُسب إليها. استهواه الأدب، فقرأ علومه، وحفظ الكثير من الشعر. حامت حوله أنظار الجواسيس في العهد الحميدي، فراح يتنقّل بـين العشائـر في البادية. دخل مصر في أواخر سنة ١٣١٦ هـ، فقرّبه الشيخ محمد عبده ومدّ له يـد العون. توفي في مصر الجديدة. له ديوان شعر مطبوع.

٣٠

بدر الدين الحسني
صائم النهار
وقائم الليل

إذا كان الموت قدراً محتوماً على كل حي، فإن مصيبة هذا الموت تكون أشد قسوة على الأحياء حينما يكون الميت من الذين سموا بعقولهم فوق المستوى الطبيعي في الرجال، وتفردوا بعبقريتهم على الذين عاشوا في بيئتهم وفي عصرهم من الناس. وإذا كان فقد هؤلاء النوابغ يعدّ نكبة على الأمة التي تفجع بفريق منهم عندما يكون عددهم كثيراً، فكيف تكون إذن هذه النكبة إذا كانوا عبارة عن واحد نام عنه الموت تسعين سنة ثم طواه في خلال تسعين ثانية، فطوى معه عصراً كاملاً أخذ منه أكبر نصيب من أمجد وأروع ما في هذا العصر من قوة وشهرة ونفوذ؟

هكذا كانت مصيبة أمس، وهكذا كان ميت أمس، فلقد مات الرجل الذي وضع كل ذكائه، وكل عبقريته طوال تسعين سنة في حفظ تعاليم النبي الصحيحة وفي نشر فضائلها بين الناس، فحمل في صدره وحده ما لم يحمله عشرات الرجال من أهل عصره وفحول زمانه في جميع العالم الإسلامي، فكان فخوراً بهذا التراث النبوي المشرق، وكان أميناً على هذه الثروة الغالية من الحديث الصحيح والرواية الموثوقة والأسانيد الصادقة. وهيهات أن يعوض رجل مثل هذا، في زمان يكاد يصبح العلم الديني فيه غريباً في موطنه، ويوشك أن يكون علماؤه بقية من بقايا التاريخ القديم.

أجل! لقد مات أمس الشيخ بدر الدين الحسني، مات الرجل الذي استطاع في خلال تسعين سنة أن ينفرد بهذا اللقب الضخم، لقب «المحدث الأكبر» لا في سورية وحدها بل في كل بلاد العالم الإسلامي، من مصر إلى الحجاز، ومن العراق إلى المغرب الأقصى، فحمى لقبه الكبير، وحمل رايته العالية، فما استطاع حتى الجامع الأزهر أن يخرج من بين أروقته من تحدثه نفسه بانتزاع هذه الراية من يد الشيخ بدر الدين. فإذا بصباح أمس المشؤوم يأبى إلا أن يحمل إلى القبر هذه الراية وصاحبها والمائة ألف حديث التي أفنى صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته أميناً على حفظها وتعاليمها ونشر فضائلها.

هذه كلمة نقولها لوجه الله ولوجه الحقيقة الخالصة من أية شائبة سياسية أو أي اعتبار شخصي أو رسمي، فليس الشيخ بدر الدين في حاجة إلى أن يُمدح على حساب غيره فما عاش الرجل بنفوذ أحد، ولا ارتفع على حساب أحد، بل ان نفوذه هو رحمه الله طالما كان غذاء الآخرين في حياتهم، وكان اسمه الكبير الضخم يغدق على هؤلاء الخير والرعاية والنفوذ. فإذا وقفنا صدر «القبس» على شيخ المسلمين الذي لا يعوض فإنما نقضي واجباً ونقول حقيقة ونرضي ضميراً.

لم يرتفع الشيخ بدر الدين في حياته كلها إلى قمة المجد والشهرة على حساب العلم والدين وحفظ الحديث النبوي فقط، ولم ينل هذه الثقة العظيمة من المسلمين وغير المسلمين من أجل هذه العبقرية الفذة التي ملك بها ناصية العلم والحديث، ولكن نال ذلك كله بصفات استطاع أن يستقل بها وينفرد بمزاياها وحده دون بقية العلماء، وهي تقواه وزهده وتقشفه ونزاهة لسانه. وأيّ زهد تريد في رجل ما لبس الحرير في حياته، ولا أعطى نفسه شيئاً من اللذة المباحة في هذه الدنيا، وهو أول من يعلم قول النبي الكريم: «إن لنفسك عليك حقاً».

وأيّ تقشف أمضّ على النفس من تقشف رجل أقل ما يقال فيه إنه صائم الشهر والدهر، رجل صام منذ خمسين سنة ولم يفطر حتى مات!

وأيّ تقوى أحب إلى الله من مخلوق عاش تسعين سنة، فما أضاع

صلاة منذ بلغ سن الرشد! بل أيـة نفس هذه النفس العظيمـة التي يحتضر صاحبها ويملأ الموت عينيه، ثم يصلي الصبـح حاضـراً قبل أن يسلم الروح بساعتين؟

إن الشيخ بدر الدين عصر إسلامي كـامل قـد يكون آخـر عصر من عصور كرامة الإسلام وعزته ورونقه المشرق في هذه البلاد، فإذا مات فإنما تموت في موته ألوان زاهية من بقية النضـارة الإسلاميـة التي تجمـع بين الجمـال والرهبـة في وقت واحـد، وفي قلب بـلاد العـرب والإسلام وفي العاصمة التي أحسنت إلى الدين واللغة والقومية نحو أربعة عشر قرناً، فإذا كـانت كلمة العـزاء واجبة في شيـخ المسلمين وإمام المحدثين، فإن هذه الكلمة لا تقال لأهله ولا لعائلته، فليس هو فقيدهم وحدهم، ولكنه فقيد المسلمين جميعاً، فلتقـل إذن للمسلمين، وها نحن نقولها بانحناء واحترام وخشوع.

١٩٣٥/٦/٣٠

هوامش

■ **بدر الدين الحسني**: هو محمد بن يوسف بن عبد الرحمن المعروف ببدر الدين الحسني (١٨٥١ ـ ١٩٣٥): مغربيّ مراكشيّ الأصل، ومحدّث الشام الأكبر. ولد في دمشق، وحفظ الصحيحين غيباً بأسانيدهما، وانقطع للعبادة والتدريس، فكانت له مكانة عالية عند الحكام وأهل الشام. كان يأبى الإفتاء ولا يرغب في التصنيف، فلم يُعرف له غير رسالتين مطبوعتين، وله كتب مخطوطة لم يأذن بطبعها. توفّي في دمشق.

٣١

لورانس
البطل والشهيد

إذا نسي جميع الناس لورانس، وإذا طوت الصحف الأوروبية ذكر هذا البريطاني الميت من بين صفحاتها، فإن أمة واحدة من دون الأمم جميعاً لا يجوز لها أن تنسى لورانس، وصحفاً معينة من بين صحف العالم فقط لا يحقّ لها طي ذكراه، هي الأمة العربية في كل بلاد العرب، وهي الصحف العربية في دمشق وبغداد والقدس، لأن لورانس كان البريطاني الوحيد الذي أخلص لقضية العرب، وأنصف ثورتهم، ومجّد أبطالهم، وحيّا شهداءهم.

لقد حارب لورانس في صفوف العرب باسم بريطانيا العظمى، ولكنه ما حارب من أجل الاستعمار البريطاني لبلاد العرب، بل غامر بنفسه وبحياته لأنه أحب هؤلاء الذين قاتلوا الترك المسلمين في بطاح مكة وعلى جنبات الحرمين الشريفين في سبيل قوميتهم ومن أجل حريتهم، أحبهم فأخلص لهم، وأعجب بقائدهم الكبير، فصدقه النصح، ومهد له سبيل الظفر. فلولا إخلاص لورانس لفيصل وللثورة العربية لما فطن الجيش العربي إلى دخول دمشق قبل الجيش الاسترالي البريطاني، ولو ببضع ساعات، فقد لفت لورانس نظر الملك فيصل إلى وجوب ترك البريطانيين في المزة يحتلون مواقعها الحربية والإسراع بدخول الجيش العربي مدينة دمشق باسم

الحكومة العربية الهاشمية ليسجل العرب الفتح لطليعتهم الأولى ولقائدهم العظيم.

أما بطولة لورانس فاسألوا عنها الذين قاتلوا معه في الصحراء.. اسألوا الذين رافقوه في مغامراته بنسف الجسور والدخول في قلب معسكرات الترك والألمان، كيف كان ذلك الجندي الشاب يفهم معنى الشجاعة، وكيف كان يصبر على لقاء الموت بل كيف كان يقذف بنفسه في فم الموت فلا يموت، ويترامى على نيران القذائف فلا يحترق ولا يصاب لأنه ذهب ليموت. وكثيراً ما يطلب الرجل الموت فيفر منه لأنه ليس بين الشجاعة والجبن إلا قليل من الزهد بالحياة، وليس بين البطولة والذل سوى هذه المغامرة في النفس. ولقد قال الحسن بن علي منذ ألف وثلاثمائة سنة: «أطلب الموت توهب لك الحياة»!

هذا هو لورانس البطل المحارب والجندي الشجاع. أما لورانس السياسي الشريف، فحسب العرب تعزية لهم ووفاء لقضيتهم منه أنه كان هو وحده الذي أقنع حكومته وحملها على إقناع الحلفاء بقبول الحكومة العربية عضواً في مؤتمر الصلح فجلس مندوبها بقوامه وعباءته بجانب مندوبي فرنسا وإنكلترا. فكان فيصل بن الحسين نداً للمستر لويد جورج وزميلاً للمسيو كليمانصو.

لقد نكث الحلفاء وعدهم للعرب، ونسي الإنكليز عهودهم المقطوعة للملك حسين، وتجاهل رجالهم وقوادهم حتى الذين كانوا إلى جانب فيصل في سورية حقّ الأمة العربية التي حاربت في صفوفهم في سبيل استقلالها ووحدتها وحريتها، نسي هؤلاء القواد والمستشارون ورجال السياسة حقّ العرب في وطنهم، لكن واحداً منهم فقط لم ينس بل رفض أن يتناسى لهم هذا الحق فذهب إلى بيته بعد أن نزع كل ما أحرزه في الحرب العامة من أوسمة وألقاب، وطرحها بين يدي مليكه قائلاً: «إن حكومة جلالتكم لم تف العرب بما وعدت، ومثل هذه الحكومة غير جديرة في نظري بأن يحمل أوسمتها وألقابها بريطاني مثلي عرف العرب وعرف إخلاصهم في الحرب العامة لدول الحلفاء عامة ولبريطانيا خاصة». ذلك الرجل هو لورانس.

هكذا كان لورانس البطل المحارب والبريطاني السياسي الشريف، وهكذا كانت خاتمة حياته في الحرب وفي السياسة، حيث انزوى في

عزلته جندياً متواضعاً في فرقة سلاح الطيران البريطاني، باسم مستعار هو الجندي «شارلدشو»، فنسي ماضيه الكبير، ودفن شهرته الواسعة في حياته احتجاجاً على عدم الوفاء للعرب، وبرهاناً على إخلاصه لهؤلاء الذين جمعت خنادق القتال بين نفسه ونفوسهم ووحّدت شمس الصحراء بين وجهه ووجوههم، ولكن هذه الحياة المتواضعة التي اختارها لورانس لنفسه قد جاد بها من أجل طفل بريطاني لينقذه من الموت. وقد أنقذ الطفل الصغير، ولكن لورانس الكبير مات، ذلك أن لورانس كان يسوق دراجة نارية في أحد شوارع لندن، فإذا بطفل يظهر فجأة في طريق هذه الدراجة، فكان لا بد للورانس من أحد أمرين: إما أن يدوس الطفل وإما أن يغير وجهة السير ويحول الدراجة المسرعة إلى ناحية أخرى، وفي ذلك خطر محتم على حياته لأن تغيير وجهة السير معناه الاصطدام بأول سيارة آتية من تلك الجهة، ولكن لورانس الذي لم يشبع شبابه الظامىء من الحياة فضل أن يموت ظمآناً، ليعيش مكانه طفل لم ينهل من هذه الحياة ولا نهلة واحدة.

هذه هي البطولة في الحرب وفي السياسة: تختم حياة صاحبها بتضحية مختارة رخيصة في ظاهرها، ولكنها سامية شريفة في حقيقتها، امّحت منها الأنانية وحب الذات وحتى حب البقاء، فإذا بقاتل الألوف في الحرب يُقتل من أجل طفل في أيام السلم، وإذا بالبطل الكبير صاحب الشباب الظامىء إلى الحياة يموت ظمآناً ليشرب مكانه طفل صغير من قومه!

رحم الله لورانس، ورحم شوقي الذي عرف كيف يصف البطولة في شعره الخالد، وفي مثل هذه المواقف النادرة التي يؤثر فيها الإنسان حياة غيره على نفسه راضياً، ويظمأ ليسقي سواه مختاراً. رحم الله شوقي القائل:

إن البطولة أن تموت من الظما   ليس البطولة أن تعبَّ الماء

١٩٣٥/٥/٢٧

هوامش

■ **تـومـاس لورانس** Laurence (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥): ضـابط وكـاتب إنكليـزي. اتصـل بالشريف حسين، وشجع ثورة العرب على الأتـراك سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٨. لـه «أعمدة الحكمة السبعة». لقّب بـ «لورانس العربي».

■ **المزّة**: بلدة قرب دمشق من جهة الجنوب الغربيّ، فيها قاعدة عسكرية ومطار.

■ **الحسن بن عـلي** (٣ ـ ٥٠ هـ/ ٦٢٤ ـ ٦٧٠ م): بكر أبنـاء علي وفـاطمة. بـويع لـه بالخلافة بعد مقتل أبيه، فآثر عدم القتال وترك الخلافة. توفّي في المدينة.

■ **دافيد لويـد جورج** (١٨٦٣ ـ ١٩٤٥): سيـاسي بريطـاني راديكالي المـذهب، ولد في عائلة فقيرة في مقاطعة ويلز، ومثّل دائرته الانتخابية مدة ٥٤ سنة متواصلـة. تقلّب في عدة مناصب وزارية، فكان وزيراً للتجارة، فالخزانـة، فالحـربية، ثم رئيسـاً لحكومـة ائتلافية سنة ١٩١٦. حقّق المطامح البريطانية في مؤتمر فرسـاي، وعقد معـاهدة مـع إيرلندا، وأيّد المطامع الصهيونية في فلسطين.

■ **الملك البريطاني الذي طرح لورانس بين يديه أوسمته وألقابه**، هـو الملك جـورج الخامس.

عبد الله بن سليمان
وزير من الصحراء!

لست أدري ما هو شعور الذين قابلوا عبد الله بن سليمان وزير المملكة العربية السعودية، من كبار الوطنيين ونخبة المتعلمين، أذكياء البلاد.. أكان هو الشعور نفسه الذي هيمن على نفسي وسيطر على عاطفتي بأننا أمام رجل كل ما فيه أنه وزير في دولة مستقلة فقط أم هم كانوا أمام رجل فيه شيء من ذكاء البادية وعبقرية الصحراء؟

هذا هو السؤال الذي خطر لي وأنا أسمع حديث ابن سليمان، وأدقق النظر في وجهه وأحدق في عينيه وهو يتكلم عن الشام وسورية والعرب والإسلام، ثم أصغي إليه كيف يربط أول الحديث عن هذه البلاد وهذه الأمة بأول الحديث عن مليكه وحكومته والدولة التي يلمع اسمه في أنحائها، ويتردد على ألسنة أهلها من ساحل البحر الأحمر إلى ساحل الخليج الفارسي، ومن شعاب مكة إلى مجاهل النفود وأقاصي الدهناء، وكيف يترك للذين يسمعون حديثه أن يربطوا هم أطراف الحديث الأول عن بلادهم بنهاية الحديث الثاني عن مليكه ودولته وبلاده.

لقد كنت أسائل نفسي وأنا أجلس في دمشق وفي غرفة من أفخم غرف فندق «أوريان بالاس»، أمام رجل ربعة القامة، نحيف الجسم، أسمر الوجه، يلبس الثوب الأبيض، ويستر رأسه بكوفية

من نسيج القطن: أهذا وزير في دولة مستقلة بسطت ظلها على جزيرة العرب، ودان لها بالطاعة المخلصة نيف وستة ملايين عربي مسلم مسلح محارب في نجد والحجاز، وتهامة وعسير؟ هذا الإعجاب الذي يغمرني في مجلسه وفي حديثه، منبعث في نفسي عن شخصية ابن سليمان المجردة أم عما يحيط بهذه الشخصية من صفات الوزارة والاستقلال والحكم الوطني الذي لا يخضع لأجنبي ولا يتأثر بوصي؟

إن للاستقلال طعماً، وإن للمستقلين رهبة، وإن للحرية رائحة، ولقد شعرت شهد الله وأنا أسمع حديث ابن سليمان بهذه الرهبة، وشممت هذه الرائحة، وذقت هذا الطعم! وإذا كانت «الصحة تاجاً على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى» فإن الحرية تاج على رؤوس المستقلين لا يراه إلا المستعبدون، الذين خسروا استقلالهم وفجعوا بحرية أوطانهم ودانوا للأجنبي بطاعة القوة ورهبة الاحتلال.

أعبقرية نجد هذه أم عبقرية الاستقلال؟ ووزير من الصحراء في كنف الغوطة وربى الشام، وفي ظل قباب صلاح الدين ومآذن الأموي والمسجد المحزون، يرتدي النوب ويزين رأسه بالكوفية والعقال، أم وزير جاء من أوروبا يلبس «الفراك» و«السموكن» والقبعة العالية؟

هذه عبقرية نجد وعبقرية الاستقلال معاً: أما الأولى فاسألوا عنها كتب الأدب والتاريخ، واسألوا قواميس اللغة والأساطير القديمة عن وادي عبقر، تقل لكم إنه في نجد وإن العبقرية نسبة إليه. ونجد التي أنجبت ابن السعود هي التي أنجبت ابن سليمان، ووادي عبقر الذي خلع على عبد العزيز أكثر ما فيه، لم يضنّ على عبد الله بعض ما فيه. أما الثانية فعبقرية الاستقلال، فهي التي تصقل الأولى وتزيدها ثقة بالنفس. والويل للمستعبدين فإنهم يخسرون الاستقلال، ويخسرون فوقه حتى الثقة بالنفس!

لقد جلسنا في هذه البلاد إلى وزراء مصريين وسوريين وعراقيين، وسمعنا أحاديثهم، وعرفنا شهاداتهم العلمية العالية من جامعات أوروبا وتركيا، وها نحن أمس نجلس إلى وزير لم يهبط علينا من باريس ولندن، ولم يفد إلينا من القاهرة وبغداد، بل جاء من الصحراء إلى مكة، ومن مكة إلى الشام، لا يحمل غير شهادة أن لا إله

إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولا يدين بالطاعة في هـذه الحياة إلا لرجل واحـد هو عبـد العزيـز بن السعود، فهـل رأينا في وزراء مصر والعـراق وسوريـة أفضل ممّا رأيناه في وزيـر نجد والحجـاز؟ وهـل تحدثوا إلينا بشيء لم يتحدث به إلينا هذا النجدي المتـواضع؟ ولكن شيئـاً واحداً لم نسمعـه من ابن سليمان، بينما سمعنا منـه الشيء الكثير من أولئك هو شكواهم من الانتداب أو الحماية أو الاستعمار، ومن الانكليز أو الفرنسويين، أما ابن سليمان فقد سمعنا منه الشكر للـه على نعمـة الاستقلال والثنـاء عـلى ابن السعـود مـوجـد هـذا الاستقلال وحاميه.

أجـل! هذا وزيـر المملكة العـربيـة السعـوديـة المستقلـة، وسـاعـد عبد العزيـز الأيمن وموضـع ثقته، بـل هذا هـو «غوريـنـغ» جزيـرة العرب، ورسول الصحراء إلى مصر والشام، وها هي عاصمـة العرب المستعبـدين تستقبـل وزيـر العـرب المستقلـين وتحيي في شخصـه استقلال وطن من أوطان العرب، وتحمّله تحيتها لسيد ملوك العرب.

١٩٣٥/١٠/٢

هوامش

■ **عبد الله بن سليمان العنيزي النجدي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٥)**: ولد في عنيزة بنجد، ورحل إلى الهند صغيراً، فتعلّم في مدارسها، وتعاطى التجارة. دخل في خدمة عبد العزيز بن سعود، فكان كاتباً في الديوان، ثم وكيلاً للمالية، ثم وزيراً. أنشأ مؤسسة النقد السعودي، ووقع اتفاقية النفط الأولى مع الشركة الأميركية التي دعيت في ما بعد «أرامكو». استقال بعد وفاة الملك عبد العزيز، وتوفّي في جدّة.

■ **النفود الكبرى**: صحراء واسعة في السعودية، تمتدّ شمالي نجد حتى بادية الشام، وتتّصل في الجنوب بالنفود الصغرى أو الدهناء. مساحتها ٦٠,٠٠٠ كم٢.

■ **الدهناء أو النفود الصغرى**: صحراء في شرق السعودية، تمتدّ بين نجد والأحساء من النفود الكبرى إلى الربع الخالي جنوباً.

■ **وادي عبقر**: وادٍ في نجد، قيل إنه ـ بحسب الأسطورة ـ موطن الجنّ أو شياطين الشعر، وإليه تُنسب العبقرية.

■ **هرمان غورينغ göring (١٨٩٣ ـ ١٩٤٦)**: مارشال ألماني من كبار معاوني هتلر. حكمت عليه محكمة نورنبرغ بالإعدام.

منير العجلاني
من منبر القبس
الى منبر البرلمان

حينما يعدّون الوجوه الجديدة التي ستلوح في المجلس النيابي الجديد، يذكرون فارس الخوري وشكري القوتلي ومنير العجلاني وصبري العسلي في طليعة هذه الوجوه التي تمثل دمشق في البرلمان السوري، ولكن الحقيقة أن فارس الخوري وشكري القوتلي كلاهما نائب قديم، وإن لم يدخل المجلس بالطريقة الانتخابية، فالأستاذ الخوري كان نائباً عن دمشق في البرلمان العثماني، وعضواً في مجلس الاتحاد السوري، ولكن قانون الانتخابات بشروطه العجيبة التي لا يوجد مثلها في أيّ قانون من قوانين العالم، حال دون وجوده في الدورات الماضية، وحرم الأمة من كفاءته وعبقريته حرماناً مؤلماً، وأما الأستاذ شكري القوتلي فقد كان محكوماً بالإعدام ونازحاً عن البلاد يوم انتخابات الجمعية التأسيسية، ولو كان في دمشق وأراد النيابة لكانَ في مقدمة النواب الذين تبعث بهم دمشق إلى المجلس فخورة واثقة، أما في المجلس النيابي الماضي فقد رفض أن يرشح نفسه في انتخاباته، لأنه كان يرى أن سياسة الفرنسيين يومئذ لا تبعث الثقة في النفوس ولن تعيش في ظلّها حياة نيابية صحيحة. فالرجلان إذن من النواب الطبيعيين عن هذه المدينة، فليسا يعدّان بين الوجوه الجديدة في البرلمان الجديد. أما الدكتور منير العجلاني وبقية الشباب في حمص وحلب فهم الذين يؤلفون وحدهم هذه

«الوجوه الجديدة» في المجلس!

قد يكون الدكتور منير العجلاني وحده الوجه الجديد في المجلس النيابي القادم، الذي تمثلت في نيابته ثلاثة عناصر قوية: الأدب، والصحافة والشباب، فإذا اختارت الكتلة الوطنية في قوائمها شباباً غيره، فإن هذا الاختيار لم يكن مقترناً بالاعتبارات التي رافقت اختيار العجلاني، فقد تكون الوطنية والإخلاص والكفاءة مجتمعة أو منفردة أوحت بمثل هذا الاختيار، ولكن العجلاني كان اختياره موفقاً إلى أبعد حدود التوفيق، فهو ثروة من الأدب الناضر والأخلاق الفاضلة، وكنز ثمين من العلم والإنتاج وقوة البيان.

يقولون إن الصحافة لم تمثل في المجلس النيابي السوري كما مثلت في مصر وتركيا والعراق!

هذا صحيح. ولكن يؤجر المرء رغماً عن أنفه، والصحافة في سورية مُثِّلت رغماً عن أنفها وعن أنوف الذين لم يحترموا أنفسهم ويعرفوا كيف يكونون جديرين بهذا التمثيل، فقد اختارت الكتلة الوطنية منير العجلاني لا لأنه صحفي فقط، بل لأنه أهل للاختيار، فإذا حسبتموه أديباً فقد تمثل فيه الأدب الصحيح الناضج، وإذا حسبتموه شاباً وطنياً فقد تمثل فيه الشباب الوطني جميعه، ولكن العجلاني صحفي قبل كل شيء، فلم يؤخذ من حانوت في السوق بل أخذ من الصحافة، فهو ينتقل من منبر «القبس» إلى منبر البرلمان. وهو نائب الصحافة وممثلها والغيور عليها، بل هو الكاتب الذي رفع مستوى الصحافة في المعركة الوطنية الأخيرة على صفحات «القبس» من لهجة الذل والاستخذاء إلى لهجة السيادة والقوة والحق، ولكن «الصحافة» بكل خجل وأسف لم ترشحه ولم تعتبره مرشحها، لأنها كانت تريد هي أن «تختار» ذلك المرشح، فإذا بالعجلاني يمثلها من حيث لا تدري، ويخدمها من حيث لا تفكر.

هذا هو العجلاني الصحفي، أما العجلاني الشاب فقد أفنى نفسه في خدمة الشباب الوطني، فهو واضع نظامه، وموحّد كيانه، والمخلص في خدمته، وأما العجلاني النائب، فهو الخطيب الذي سجل على منابر هذا الوطن في أيام نضاله وكفاحه، مواقف ترفع الرأس وتفيض بالإعجاب والإكبار، ولكن هذا النائب الجديد لن يكون في المجلس خطيباً وصحفياً وشاباً فقط، بل سيكون في البرلمان

العتيد مثال الإنتاج والجلد على العمل، وستكـون اللجنة التي يكـون مقررها أسعد لجنة بين اللجان.

لقد نزل العجلاني إلى ميدان الصحافة برأس مال من أضخم رؤوس الأموال لا بالنسبة إلى سوريـة فقط، بل بـالنسبة إلى أرقى البـلاد، فقدم إلى الأمة من مقالاته وأبحاثه كل مبتكر جـديد، وأفـاض عليها من روحه وعقيدته ما هزّ من نفوسها وألهب من حماستهـا، فقضى في خدمة الصحافة بضع سنين لم يصبح فيها من الأغنياء، فقد أعطى الصحافة أكثر مما أخذ منها، وهذا شأن الصحفيين الشرفاء في هذه البلاد، يعملون ولا يتاجرون، ويذوبون في سبيل عقيدتهم حتى يلاقوا وجه ربهم.

واليوم يرشـح العجلاني نفسـه للنيابـة عن دمشق في قائمـة الكتلة الـوطنية، فـإذا برأس مـاله في هـذا الترشيـح يفوق رؤوس أمـوال الكثـيرين من المرشحـين، فليس هو عـالة عـلى الكتلة ولا عـالة عـلى النيابة، بل سيعطي النيابة أكثر مما يأخذ منها، وترى الأمة فيه رجلاً يذوب في خدمتها ويفنى في مصلحتها.

هكـذا ينتقل العجـلاني من على منبـر الصحافـة إلى منبر البـرلمان، وهكذا يمثل الصحـافة الـوطنية والشبـاب الوطني تمثيـلاً لا تخجل الصحافة منه ولا يستحي الشباب فيه.

أما «القبس» التي دوّى صوت العجلاني من فوق منبرها طـوال هذه السنين، فهي فخورة أن تقدمه إلى الأمة في طليعة الوجوه الجديدة في المجلس النيابي الجديد.

١٩٣٦/١١/٢٧

هوامش

■ **منير العجلاني**: سياسي وحقوقي سوري، ولد في دمشق سنة ١٩٠٥، وتعلّم في الكلية العلمية الوطنية ثم في المعهد العربي بدمشق، وأكمل تحصيله العالي في باريس، فنال من جامعة السوربون شهادة الدكتوراه في الحقوق المدنية والسياسية. بدأ حياته المهنية محرراً في بعض الصحف. نائب عن دمشق سنة ١٩٣٦ و١٩٤٧ و١٩٤٩ و١٩٥٤، ووزير سنة ١٩٤٢ و١٩٤٣ و١٩٤٧. اتهم بالتآمر على أمن الدولة سنة ١٩٥٧ فحوكم وحكم، ثم أخلي سبيله في عهد الوحدة.

■ **شكري القوتلي** (١٨٩١ - ١٩٦٧): سياسي ومناضل سوري، وأحد رجالات الاستقلال. شارك في المؤتمر السوري سنة ١٩٢٠، وتقلّب في مناصب وزارية. رئيس الجمهورية السورية من ١٩٤٣ حتى ١٩٤٩، من ١٩٥٥ حتى ١٩٥٨ حين تنازل عن الرئاسة عند إعلان الوحدة السورية المصرية.

■ **صبري العسلي**: سياسي سوري ولد في دمشق سنة ١٩٠٢، وتعلّم في مدارسها، ثم تخرج مجازاً في الحقوق من معهد الحقوق بدمشق. شارك في الحركة القومية، وفي الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧)، وهرب بعد قمعها إلى الأقطار العربية المجاورة. مارس المحاماة وانتسب إلى الكتلة الوطنية، ثم شارك في تأسيس عصبة العمل القومي سنة ١٩٣٣، لكنه تخلّى عنها بعد فترة وجيزة. تعاون مع شكري القوتلي، وتزعم الحزب الوطني سنة ١٩٤٧. نائب عن دمشق في عدة دورات، ووزير ذو حقيبة عدة مرّات، ثم رئيس حكومة بعد سقوط الشيشكلي سنة ١٩٥٤. اعتزل العمل السياسي في عهد الوحدة السورية المصرية.

■ **الاتحاد السوري**: أنشأ المفوّض السامي، في ٢٨ حزيران /يونيو ١٩٢٢، هذا الاتحاد من دولة دمشق ودولة حلب وبلاد العلويين المستقلة، وجعل له مجلساً تمثيلياً.

■ **الجمعية التاسيسية**: جرت انتخابات الجمعية التأسيسية في نيسان /ابريل ١٩٢٨.

٣٤

ابراهيم هنانو
رصاص المتآمرين
في قدم الزعيم

لم نعجب لجان جائع يدفعونه إلى اغتيال الزعيم إبراهيم هنانو، ولا لرصاصة حقيرةً تنطلق من يد جبان مرتعشة يستحوذ على صاحبها القلق والخوف، فتستقر في قدم الرجل الذي طالما أقض مضاجعهم وصفعهم على رؤوسهم. ولكننا نعجب لتعليل أسباب الجناية في بلاغ حكومة حلب، من أن بين عائلة الجاني وعائلة هنانو خلافاً قديماً إذ يقول البلاغ: «ويظهر أن الدافع إلى هذه الجناية هو لأسباب شخصية ناشئة عن منازعات قديمة بين عائلتي هنانو وكوسا لأن «هنانو» اغتصب لها أراضي في قرية حامضة التي كانت تخصها فيما مضى. وقد كان نيازي يتهدد هنانو دائماً بهذا الخصوص».

أجل! لم نعجب ان تنطلق رصاصة خائبة من يد حقير فتستقر في قدم زعيم الوطنيين، لأن رجلاً كإبراهيم هنانو يرهب خياله أولئك المتآمرين الجبناء، ويحلمون بشبحه المخيف في نومهم ـ قد يمر في حياته ـ بمثل هذه المؤامرات التي مر بها سعد زغلول ومصطفى كامل وكل زعيم وطني في هذا الشرق المغلوب على أمره، أما أن تستبق حكومة حلب الحوادث، وتتخطى التحقيق، وتستنتج من عندها استنتاجاً، وتقول: «يظهر أن الدافع هو أسباب شخصية، فهذا هو موضع العجب والدهشة»!

من قـال للذين أصـدروا البلاغ ان الجـاني أقدم عـلى الجنايـة لأن عائلة هنانو اغتصبت أراضي عائلته؟ وهل كانوا على علم بـأن نيازي عازم على اغتيال الزعيم هنانو من أجـل الأراضي؟! وهل قبضـوا على الجاني واستجوبوه فأدلى إليهم بهذه الأسباب؟! أو هل بين الـزعيم هنـانو وبـين هذا المجـرم دعوى في المحـاكم حكمت له عـلى الـزعيم وقررت بأنه مغتصب؟! الجواب عن هذه الأسئلة بالنفي طبعاً. فبأي حق إذن يستبقون الحوادث ويتخطون التحقيق ويصدرون مثـل هذا البلاغ؟!

هذا هو السؤال الذي لا يجدون له جواباً، إلا إذا قالت لنـا جماعـة المتآمرين، بـأن الجاني أعلمهم بهـذا كله فتبـرعوا للحكـومة بهـذه المعلومات عن أسباب الجناية!

هنانو مغتصب؟!. سبحان الله! هكذا يقول البـلاغ الرسمي! فلمـاذا لا تزيل الحكومة التي أصـدرت هذا البـلاغ ظلامـة نيازي الكـوسا وتعيد أرضه إليه من يد إبراهيم هنانو؟!

هل هنانو حكومة؟! وهل الحكومات والمحاكم ودور القضاء والسلطات كانت تعطف عليه وتؤيده، أم كانت تقاومه وتقاوم إخوانه وترهق كـل وطني في هذه البلاد؟

لا... يـا أسباب الجنـاية فـأنتم لم توفَّقـوا إلى إقنـاع النـاس بهـا فـاستبقتم الحوادث وتخطيتم رقبـة التحقيق والقضاء وأذعتم هـذا البلاغ.

والآن! إن هنانو لم يصب إلا بقدمه، وان الرصاصة كانت أرحم من المتـآمرين بهـذه الأمة، فلم تصـل إلى القلب أو إلى الرأس. وهنـانـو الذي زحفت حلب من أولها إلى آخرها تسأل عن صحته الغالية، هو الذي يستقر رصاصكم في قدمه وتستقر رهبتـه في قلوبكم وتحسّـون بوطأته على رؤوسكم.

أما الجاني، فليس صاحب ظلامة على إبراهيم هنانو بل إن هنانو من الذين يحسنون إليه ويعطفون عليه، براً بصـداقة قـديمة بينـه وبين والده. وها هو ذا قبل الجناية أحسن إليـه ودفع لـه أجرة السيـارة فإذا به كما يقول الشاعر:

أريد حياته ويريد قتلي!

ولكن اللؤم هو الذي جعل المتآمرين يستثمرون نيازي، ويدفعونه إلى هذه الجناية التي عرفت رصاصتهم مكانها من هنانو، فاستقـرت في القـدم، وخرجت من مـوضـع الحـذاء لأن الذين أطلقـوها ودبـروها وسهروا عليها، لا يرتفعون إلى أكثر من مكان رصاصتهم.

مؤامرة؟!

أجل! مؤامرة، وسنظل نقول مؤامرة ما دامت الحكومة لم تقبض على الجـاني، وسنظل عـلى اعتقادنـا حتى يستجوب نيـازي بعد القبض عليه وحتى يقرر هو من نفسه أن الدافع له هو الأسباب التي ذكرها البلاغ الرسمي. أما أن يظل الجاني فاراً، وأن ينوب عنه الاستنتاج في البلاغات الرسمية، وتقول الحكومة من تلقاء ذاتها: «والظاهـر ان هناك أسباباً شخصية أو منازعات عـلى أرض»، فهذا حـدث جديـد وبدعة في السياسة والقضاء والتحقيق!

سيدي الزعيم:

إن الرصاصة التي وجهت إليك لم توجه إلى شخصك، ولكنها كـانت موجهة إلى كل رجل مخلص في هذه الأمة التي تدين بمبادئك وتعتنق حبك واحترامك. ولكن انظر يا سيدي أين استقرت رصاصتهم؟ إنها في قدمك وفي موضع حذائك، وهذا هو المقياس الصحيح بينك وبينهم وبين مكانتك ومكانتهم؟!

لقد كتب على الوطنيين في كل أمة وفي كـل عصر، وقُدِّر عـلى زعمائهم بصورة خاصة، أن يرهقـوا ويعذبـوا وتدبـر المؤامرات عـلى حياتهم ويطلق عليهم الرصاص، فحملة الرايـات دائماً هم هـدف الأعداء في المعـارك لأنه إن سقط حـامل العلم سقط العلم، ولكن اللـه يأبى أن تنكس رايتك ويسقط علمك، فعش لهذه الأمة واحمل لواءها فإنـك لا تموت ولا تموت مبادؤك.

١٩٣٢/٩/٥

٣٥

ابراهيم هنانو
الى الأسد المريض
والليوث المكبلين

بارك الله بالألم ولا بارك بالمرض؛ فالألم مهماز الشعوب، كلما أمعنوا في إيلامها أمعنت هي في كفاح مصدر هذا الألم، فهان عليها كيف تبرأ منه وتتّقي أسبابه. فالذي لا يتألم لا يتعلم؛ والذي لا يُضطهد لا يحرص على الحرية عندما يظفر بها. وما لا تتعب به الأيدي لا تحزن على فقده القلوب! أما المرض فعدو لا يُتقى، وقدر لا يحارب، كلما كبرت النفوس تعبت في مرادها الأجسام. وها نحن اليوم بين الألم، نستعذبه ولا نخشى عاقبته، وبين مرض نكرهه ولا حيلة لنا في رده سوى ضراعة إلى الله، بأن يدفعه عن قلب كبير ووطن تاعس ونفوس قلقة.

تلك هي ضراعتنا إلى الله، وقد أصيب الزعيم الكبير في خلال تعطيل «القبس» بمرض أرغمه على مبارحة العرين الذي حماه بصحته وذاد عنه بنفسه، فغادر حلب إلى لبنان مستشفياً بهوائه ومائه، محجوباً عن مقابلة الذين يمسون ويصبحون على ذكره والسؤال عن صحته، فلا أخلى الله عرين الشمال من أسده، ولا فجع هذه الأمة التاعسة برجلها الذي يرزح المرض تحت عزمه وقوة إرادته؛ وحرس لها مهجة زعيمها الذي تمرد على الدهر وحادثاته، فما عرف الإرهاب إلى قلبه طريقاً، ولا استطاعت المغريات بكل ما فيها من ثراء وحكم،

ورئاسات ووزارات أن تهتدي إلى نفسه الصلبة المتقشفة، فتغريها بنعيم الحياة ونضير العيش، ولا غيّرت جميع تلك المواكب الغادية الرائحة من حوله في ذهابه وإيابه، ولا هاتيك الجموع الزاخرة بالهتاف والمجد والحب والطاعة، ما غيرت شهد الله هذه جميعها من وداعة نفسه وفرط حلمه وجليل تواضعه، ورقة قلبه وعفوه الذي ما امتزج يوماً بالمنّ ولا تكدر بالعجز.

إن «للقبس» وهي تعود إلى الصدور، إن لهذه الجريدة التي كان وسيظل اسم إبراهيم هنانو غذاءها الذي لا ينضب، ووحيها الذي لا يكذب، إن لها ضراعة وتحية. أما الضراعة، فإلى الله الذي لا تخيب عنده الضراعات أن يحرس مهجة الزعيم، وأن يجعله أكثر نشاطاً وأعظم قوة، وأن يرفق بهذه البلاد في محنتها الطويلة، فيعيد الأسد المريض إلى عرينه. وأما التحية المملوءة بالفخر القومي والكبرياء الوطني والأنفة المحلقة فوق السحاب، فإلى تلك الصخرة الصلبة في العقيدة والإيمان، وإلى هاتيك النفس التي توحي الإباء في أشد ساعات الخطر، إلى سعد الله الجابري مجرداً عن كل لقب ونعت، إلى هذه الشخصية الفذة النادرة.

ثم تحية عطرة ترسلها «القبس»، بكل ما في الاحترام والوقار والمهابة من معنى جليل إلى عميد الكتلة الوطنية في حلب، إلى صاحب بيت الأمة الذي لا يغلق بابه دون كل مكرمة وفضيلة، إلى الدكتور حسن فؤاد إبراهيم باشا ذلك الكهل الصبور، والرجل الذي يحمل على منكبيه العريضين عبء الستين وعبء الوطن. ثم إلى بقية وجهاء الأحياء والشباب، إلى هؤلاء جميعاً في سجون حلب ترسل «القبس» تحيتها، تحية المطلق سراحه إلى المكبلين في عرينهم، الأحرار في نفوسهم، الأباة في مواقفهم.

هذه تحيتنا وقد أطلقنا من أغلالنا أمس، إلى الذين لا يزالون في أغلال السجن اليوم، والذين يظلون في معتقلهم عناوين مشرفة للجهاد الوطني، وصفحات لامعة للقضية الوطنية المضطهدة، والحرية المعذبة، وغذاء دائماً للاحتجاج على هذه الأساليب في إدارة البلاد.

هذا هو الألم الذي لا يهيض من جناح الأمة، وهذا هو المهماز الذي

كان أعذب من النعيم في حياة النهضات الوطنية، فالكفاح في سبيل الحرية أقل شيء فيه إنما هو السجن، والسجن أول درجة من درجات الألم.

إن سعد الله الجابري وإخوانه لا يخجلون من أن يحكموا بالسجن ستة أشهر أو أكثر أو أقل، ولكن ألا تخجل الأساليب والأسباب التي جعلت وسيلة لهذا السجن، إذا قورنت بالأسباب والأساليب في بقية البلاد وفي فرنسا نفسها؟ فهل يحكمون هناك على أحد بالسجن إذا جيء به إلى القضاء للأسباب التي حكم بها إخواننا في حلب؟

على اننا نتساءل مرة ثانية: هل الحكم على سعد الله الجابري بالسجن، يغير من رأيه في السياسة القائمة في هذه البلاد، وفي الرجال الذين أقيموا على إدارتها على غير رأي الأمة ورضائها؟! إننا لو أحصينا حياة سعد الله في خلال اثني عشر عاماً، لأوشكنا أن نعدّ له أيام سجنه ومنافيه أكثر من أيام حريته وانطلاقه، فهل تبدل الرجل أو بدل رأيه في قضية وطنه، وفي أساليب الكفاح السلمي المشروع المباح في كل أمة وفي كل بلد؟

إننا نريد أن نعتقد بأن نظرة القضاء الإفرنسي في محكمة التمييز إلى هذه الأسباب التي حكم بها إخواننا في حلب، ستكون غير نظرة القضاء في الشهباء، ونرجو أن لا نصطدم بخيبة الأمل في التمييز كما اصطدمنا بها في البداية والاستئناف.

وإذا كانت آمالنا طوال أربعة عشر عاماً تخيب دائماً في رجال السياسة، فقد تتقبل هذه الخيبة بعزيمة المكافح، وعقيدة الوطني الصابر، لأنه من المنتظر أن لا تجتمع السياسة والعدل في صعيد واحد. أما القضاء فمن المفروض فيه مهما كان لون أهله أن يكون فوق السياسة وفوق أغراضها.

١٩٣٤/٧/١٧

هوامش

■ **القبس**: عُطّلت في ٢٠ كـانون الأول /ديسمبـر ١٩٣٣، وعادت في ١٣ تمـوز /يـوليـو ١٩٣٤.

■ **حسن فؤاد إبراهيم باشا**: طبيب وسياسي سـوري، ولد في حلب سنـة ١٨٧٩، وتلقّى علومه في مدارسها، ثم درس الطبّ في معاهد الآستانة. طبيب عسكري خدم في المدينة المنوّرة وحلب وطرابلس ودمشق. اعتقله الإنكليز مدة عامين. عاد إلى حلب بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ليصبح طبيباً عدلياً. ممثل حلب في المجلس النيابي سنة ١٩٣٦. عضو في الكتلة الوطنية.

٣٦

سعد زغلول
مات من علّم الناس
الموت لأجل الوطن

جنازتان في الشرق! سعد زغلول في مصر، وإبراهيم هنانو في حلب!

هـذا منتهى ما استطعت أن أقـوله عن مـوكب هنـانـو الميت. وأنـا أعترف بعجزي عن التصوير والوصف. ولكن هل هـذه المقارنـة بين الرجلين هي في المـوت فقط؟ اللهم إن هذا ظلم، فلقـد كان في الشرق زعامتان أيضاً: زعامة سعد زغلول في مصر وزعامة إبراهيم هنـانو في سورية.

كانت زعامة سعد في مصر زعامة الوطنية والغنى والحكم والسيـاسة في ستة عشر مليوناً من المصريين، أغنيـاء، أسخياء، سلسي القيـادة، موحدين في وطن واحد، فجمع بين رئاسـة الأمة ورئـاسة الحكـومة، ووضع يده على الخزينتين خزينة الوفـد وخزينـة الوزارة، فـدان له الـوطنيون بـالإخلاص، وسـايره الحكـوميـون بـالطـاعـة والـزلفى، فتماسكت الرئاستان، وتساندت القيـادتان، فكـانت زعامـة سعد في مصر.

أما إبراهيم هنـانو فقـد قامت زعـامته الأولى عـلى الوطنيـة الثائـرة المحاربة في ناحية من هذا الوطن، القليل في سكانـه الفقير في ثـروته المتعب في قيادته، المجزأ في أرضه، وطراز حكمه وإدارته، قامت هذه الزعامة على الوطنية الزاهدة الصوفية، فلا وزارة ولا مال ولا خزينة

أمة ولا خزينة حكومة بل حرمان وفقر، واعتقال ونفي، وبالتالي تضحية وموت.

هكذا بدأت زعامة إبراهيم هنانو في هذه البلاد، وهكذا نشأت: ثائرة محاربة وفقيرة زاهدة، ثم استحالت بعد ذلك إلى زعامة عقيدة وسياسة وفكر وقوة إرادة، وشجاعة فطرية طبيعية لا تعرف الخوف ولا التردد، فإذا بالكتلة الوطنية في ظل إبراهيم هنانو أقوى هيئة في الشرق العربي، تفرض إرادتها، وتنشر مبادئها في وطن مجزأ في الأرض، فقير في المال، قليل في الرجال! فأية زعامة في الدنيا هذه الزعامة التي قامت على «لا شيء» ثم انتهت فإذا بها «كل شيء»؟!

إنها زعامة الرجل الذي مات أمس.

لقد عودتنا الجنائز أن يبكي الناس فيها ويتفجعوا، ولكن جنازة إبراهيم هنانو لم تكن كذلك، إنها كانت جنازة قامت الرجولة فيها مقام البكاء، وانتشر الفخر والكبرياء الوطني على جوانبها بدل التفجع والنحيب، فكأننا على عظم مصيبتنا وفداحتها، خجلنا أن نبكي في جنازة رجل كان يحتقر الذين يبكون في هذه الحياة، وخفنا أن ننتحب وراء نعش امرىء ما كانت تدمع له عين في حياته، أيام كانت القتلى تتساقط من حوله، ودماء الجرحى تغمر أطرافه، ودخان المعركة يغشي بصره، فيا لرجل كان يوحي الرجولة في النفوس حياً وميتاً، ويعلِّم الناس الصبر والجلد في مواكب الحياة وفي مواكب الموت!

لقد مات الرجل الذي كان وحده في هذا الوطن يقول: أنا أريد، فيكون له ما يريد! مات الذي كان وحده يحمل مسؤولية بلاد في تسيير سياستها وقضيتها في الجهة التي يريدها، فلا يوجد من يقول له: لا!

فأية معضلة مهما صعبت، وأية مشكلة مهما تعقدت، وانقسمت آراء الرجال من حولها، لا تكون كلمة الزعيم هنانو فيها هي القول الفصل! لقد قال هنانو كلمته في الأمر، فليسكت إذن المتكلمون وليكف الكاتبون!

كان يدخل على أشد الناس غروراً بوطنيته وعلمه وشبابه وفكره، يناقشه في أمر من الأمور، فإذا لم يقنع بوجهة نظره بعد تلك الحجج التي كان رحمه الله من أغنى الناس فيها، ومن أشدهم لباقة في

إيـرادها، وألطفهم أسلـوباً في عـرضها، وأوسعهم صـدراً وأجملهم صبراً في مناقشتها، إذا لم يقنع محدثه بوجهة نظـره كان يقـول له: أنا أريد ذلـك وأنا قـررت هذا، فكانت هذه الكلمـة وحدهـا يقولهـا إبراهيم هنانو تكفي لاضمحلال كل الحجج وتلاشي كل البراهين.

أجل! لقد مات حامـل عبء الأمة بعـد أن علَّم الناس كيف يحملـون المسؤوليات في سبيل بلادهم، مات الرجل الـذي حبب إلى السوريـين العذاب والحرمان في سبيل الـوطن، لا بل مـات من علَّمهم الموت من أجل هذا الوطن ومن أجل كرامته.

سيدي الزعيم:

لقد كنت أناديك بهذا اللقب في حياتك، وها أنا أناديك بـه اليوم لأول مرة بعد موتك. ولكني لا أدري كيف أكتب عنك: أرثاء وتفجعاً وبكاءً ولقد كنت تأنف أن يرثي لك الناس حتى في مرضك، وتتبرم بهم إذا قالوا لك إنك مريض فاسترح؟

أي زعيمي الميت:

لقد أوحيت لي في حياتك ومن رجولتك وفي ظل زعامتك أحسن ما كنت أكتبه، فماذا توحي إليّ اليوم بعد موتك في مقالة أكتبها عنك أنت؟

إني أخـاف من قوتـك إذا ضعفت، وأخجل من صبـرك إذا جزعت، وأشفق من جلدك إذا تفجعت، فأذن لي يا سيدي أن أقف عنـد هذا الحد، فلقد كانت حياتك غذاء الكتاب ومداد الأقلام، وكان موتك أبلغ مقالة كتبها موكبك وسجلتها جنازتك.

١٩٣٥/١١/٢٧

ابراهيم هنانو
الذكرى الخصبة

يستيقظ الناس في هذا الصباح، على ذكرى من أضخم الذكـريات، ويرمقون من خلالها صفحة من أمجد الصفحات، ويستعيدون فيهـا حياة رجل أحسن إلى هذه الأمة حياً وميتاً.

أما الذكرى، فهي أن إبراهيم هنانو مات في مثل هذا اليوم من السنة الماضية، وأما الصفحة فهي أن رجلاً واحداً في هذه الأمة تمرّد وحده على الاحتلال ساعة حلوله، وثأر للوطن المنكسر فـور انكساره، وأمـا الحياة فستون عاماً كلها تمرد على الظلم، وكفاح في سبيل الحق.

هـذه هي الذكـرى الضخمة التي احتفلت بهـا حلب في هذا اليـوم، وخفق لها قلب كل وطني في هذه الأمة، فقد ذكر الناس الزعيم الذي مات في قلب الكفاح الـدائم وقضى في وسط المعركـة الطويلـة بعد أن ملأ جوانب هذا الوطن إبـاءً وشمماً، وأفـاض على أهلـه عزة النفس وأنفة الرجـولة، وضرب لهم مثـلاً في الوطنيـة الصحيحة، الصـابرة الخشنة، والحياة الصوفية الجافة، المملوءة بالزهد والحرمان.

اليوم يذكر الناس في سـورية بطـل الثورة، وقـائد الجمـاعة، وزعيم السياسة، وخطيب الخـاصة، ومحـدث العامـة، ثم يذكـرون الرجـل المهذب المتواضع، ويتلفتون إلى ذلـك المربي، العـالم بنفسية الأمـة،

والخبير بشؤون الخاصة والعامة فلا يجدون من هذه الشخصية الفذة إلا ذكريات ضخمة، وآثاراً خصبة، في الحياة وبعد الموت، فلقد قاد إبراهيم هنانو الأمة إلى الحرية، ولكن الظفر لم يكتب لها وأسفاه إلا بعد موته، بل إن يوم موته كان أول مظهر لهذا الظفر، فقد اجتمعت حول نعشه، ثم مضت في هذا الإجتماع حتى عادت بما كان يقودها إليه قبل أن يمضي عام كامل على ذلك اليوم. فالمعاهدة كانت وسيلته إلى أخذ الاستقلال، لأنه ما كان يفهم أن الأمم تعطى استقلالها عطاءً وتمنح حريتها منحة، ولكنه كان يفهم أن طلب المعاهدة مع فرنسا سياسة عملية، وأن المفاوضة تكون قبل الجلاء لا بعده. وها هي المفاوضة وقد أثمرت، وها هي المعاهدة وقد عقدت، وها هو الجلاء وقد تقرر، ولكن بعد المفاوضة لا قبلها وبرضاء فرنسا لا رغماً عنها.

مات إبراهيم هنانو، والأمة في غمرة قاتلة من اليأس، فكل ما في السياسة من أساليب، وخطط وأشخاص، توحي التشاؤم وتبعث على قطع الرجاء. ولكن هذا الرجاء انبعث دفعة واحدة من قاعة الجامعة السورية في يوم أربعين الزعيم الميت، فقد جاء الناس ليشهدوا حفلة تأبين، ويسمعوا خطب رثاء، وإذا بهم يفاجأون بإعلان صريح بأن ساعة العمل دنت. وبنداء جلي بأن يوم التحرير والخلاص قد أتى، فكانت حفلة تأبين إبراهيم هنانو، أمجد وأسعد ما في هذه الحياة الضخمة من كفاح وثبات وظفر. أما الكفاح فقد بدأ في دمشق وانتهى في باريس، وأما الثبات فقد تجلى في صبر الأمة على المكاره، وأما الظفر فقد كان في هذه الصداقة المخلصة التي عقدت بين فرنسا وسورية، والتي كان إبراهيم هنانو أول من دعا إليها، يوم لم يجرؤ رجل قبله أن يدعو إليها بصراحة وشجاعة.

لم يكن إبراهيم هنانو يمتاز بشجاعته في السياسة السلبية وخطة العنف والنضال فقط. بل إن هذه الشجاعة كانت نادرة المثال أيضاً في السياسة الإيجابية، وتحمل المسؤوليات وإثبات وجود الأمة في جميع الساحات وتجربة كل الأساليب والخطط، وكانت زعامته زعامة جهاد، وقيادة سياسة، ودعوة إلى تفاهم، فبقدر ما كان عنيفاً في سلبيته، كان مرناً في إيجابيته، مخلصاً في دعوته إلى كلتا الخطتين، بل كان يتخذ السلبية وسيلة إلى الإيجابية، والعنف والخصومة

سبيلاً إلى الاتفاق والتفاهم، لأنه كان رجلاً خصباً في تفكيره، عظيماً في فهمه للأمور.

وهذه ذكراه اليوم، في أول سنة تنقضي على موته، ذكرى خصبة، بل هي أخصب سنة في حياة الأمة السياسية، وأسعد عام في وحدة كلمتها وجمع شملها واتفاق أبنائها، فلقد قادها إلى هذه السياسة، ودلّها على الخطة العملية الناجحة في كل ما وضعه لها من أساليب ورسمه من صور. فإذا احتفلت الأمة بذكرى إبراهيم هنانو فإنما تحتفل بذكرى رجل خدمها في حياته وفي موته، وهيهات أن تنسى أمة تعترف بالجميل زعيماً هذا شأنه وهذه سيرته!

١٩٣٦/١١/٢٢

٣٨

ابراهيم هنانو
الذي ثأر للوطن

اليــوم تستيقظ الشــام من أقصى الشمــال إلى أقصى الجنــوب عــلى ذكرى ضخمة، وعــلى فقيد عظيم، ففي مثــل هذا اليــوم منذ سنتــين كاملتين مات إبراهيم هنانو.

واليوم تظفر مدينة الشهباء وحدها بشرف الاحتفال بذكراه الثــانية، فتدنو من قبره الدارس، ويلمس أهلها تراب رجل طالما لمست كلماتــه قلوبهم فملأتها إيماناً وشجاعة وإخلاصاً.

أمــا نحن البعيدين عن مكــان الذكــرى وعن الطواف بــالقبــر، فــإن ذكرى إبراهيم هنانو تغمرنا في هذا الصباح وتملأ قلوبنــا حسرة على فقده، ونفوسنا إكباراً لعظمته، فلا ندري ونحن نكتب عنه أية ناحية من نواحي هذه العظمة نبحث، وأية صفة من صفات الــزعيم نمجِّد، فقد كانت كثيرة كلها وعظيمة جميعها.

لقد مات إبــراهيم هنانــو في أيام بلــغ اليأس من النفــوس فيها حــد النهاية، فحسب النــاس أن الأمة التي التفت حــول زعامتــه، ودانت بطاعته، ووثقت بقيادته، ستتفرق من بعده، فإذا به لا يــزيدهــا بعد موته إلا قوة في الصف، ومضاءً في العزيمة، وأملاً بالمستقبل، فكانت حفلة أربعينه ساعة تحريرها، وكان يوم رثائه يوم بطولتها! فيا لهذه الزعامة الميتة، ما أقوى فعلها في نفوس الأحياء!

مـات الـزعيم الـذي كـان أول من أخـذ بثـأر الـوطن المغلـوب في «ميسلون». يوم كان الاحتلال جـديداً في رهبتـه، ويوم كـان الجرح سخياً في نزيفه، ويوم كان الملك الشرعي شريداً في أوروبا، ويوم كان المؤمنـون من رجال فيصـل بين سجـين في سجنه، ومنفي في منفـاه، وطـريد يضرب في الأرض، ولكن إبـراهيم هنانـو وحـده تمـرد عـلى الاحتلال وعلى السجن وعـلى المنفى، فقاد بقيـة السيوف المحطمـة، وثار بها على هذه القـوى المكتسحة، فـأعلن حكومـة الثورة واحتـل الشمـال الغـربي من سـورية، فـذاق أهـل المنطقـة في عهـده لـذة الاستقلال،ولذة الكفاح دون هذا الاستقـلال الوطني الصغـير، ولكن إبراهيم هنانو غلب في الشمال كما غلب الوطن في الجنوب، فما يئس ومـا استسلم، بل ذهب إلى مـا وراء الأردن ليجمع بقيـة ثانيـة من سيوف الوطن المحطمة، ولكن الإنكليز حـالوا دون أمنيته، فاعتقلـوه وسلمـوه إلى السلطة الإفـرنسية التي حـاكمته وبـرأته واحتـرمتـه، فخرج من السجن ليعمل في ميدان السياسة بعد أن قضى واجبـه في ميدان الحرب.

هنا تبدأ زعامة ابراهيم هنانو الوطنية السياسية، وهنا يخلق الزعيم من قلب الوطن المنكسر ومن فلول الثورة المغلوبة، فإذا به يقود هـذه الأمة،قيادة تجمع في وقت واحد بين الديكتاتورية وبين الشورى، فما أن تـراه ديمقراطيـاً يشاور ويناقش، حتى تراه ديكتـاتوريـاً مخيفاً يقول: أنا أريد هذه ولا أقبل بتلك، ثم يأمر وينفذ. فلا ترى معارضاً لما أراد ولا معترضاً على ما قرر.

كـان ابراهيم هنـانـو أول زعيم وآخـر زعيم في هـذه البـلاد، يقـود الجماهير ولا تقوده، ويؤثر فيها ولا تؤثر فيه، حتى أصبحت زعامتـه معجـزة من المعجزات، فـلا إغراء ولا وعـود، ولا تملق ولا زلفى، بل كان يضرب المثل الأعلى للناس، بوطنيته الصوفية التي تعيش في قلب الحرمان والصبر والوداعة، فمـا رأينا زعامة في الدنيا تستمر وتقوى بهذه الوسائل الفقيرة المحرومة، مثل زعامة غاندي في الهنـد وابراهيم هنانو في سورية.

لقد كان يقال عن زعامـة سعد زغلـول إنها أقـوى زعامـة في الشرق العربي، ولكن زعامـة سعد قـامت على وسـائل حـرمت منها زعـامة ابـراهيم هنانـو، ففي مصر الغنى والثروة والكـرم، وفي مصر الوفـد

والتنظيم والمال، وفي قبضة سعد كان هذا كله! ثم جاء يوم قبض فيه على حكومة مصر وعلى برلمانها، فجمع في ظل هذه الزعامة كل وسائل الترهيب والترغيب، أما ابراهيم هنانو، فقد كان في سورية حيث لا ثروة ولا غنى ولا بذل ولا حكم ولا سلطان، ومع ذلك فإن هذه الزعامة المحرومة الفقيرة، كانت تزداد وتقوى كلما ازداد الاضطهاد، وكلما زادت وسائل الحرمان.

فإذا ذكرنا اليوم ابراهيم هنانو، فإنما نذكر بإكبار وبفخر، رجلاً لم يشأ القدر أن يمتعنا بحياته وبزعامته في هذا الدور الذي نحتاج فيه إلى رجل مثله، والقدر دائماً يقسو على الضعفاء.

١٩٣٧/١١/٢٢

هوامش

■ **موهانداس غاندي (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨)**: فيلسوف مناضل، وداعية سلام هندي. ولد في بور بندر، ولقّب بالمهاتما (النفس السامية). دعا الى تحرير الهند بالوسائل السلمية وبالمقاومة السلبية بعيداً عن العنف. تسلّح بالإضراب عن الطعام. اغتاله برهماني متعصّب.

■ **حزب الوفد**: حزب مصريّ أنشأه سعد زغلول في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، بعد مقابلته المندوب السامي البريطاني، والقصد من تأليف هذا الحزب إنشاء هيئة تكون لها صفة النيابة عن الأمّة للمطالبة بالاستقلال. حكم مصر، وكان له الفوز في الانتخابات منذ إعلان الدستور سنة ١٩٢٣ وحتى قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢.

٣٩

درويش البكري في جنازة الوطن الفقير

كنا كمشة من الناس قبل غروب يوم الأحد، نمشي وراء جنازة فقيرة تسير في طريقها بصمت وتواضع، إلى قبر محفور في جبانة الباب الصغير. فلا أعلام ولا طبول، ولا موسيقى ولا مولوية، ولا شرطة ولا جلاوزة، حتى ولا عدد من المؤذنين تعودنا أن نراهم أمام جنازة عجوز متوسطة الحال. فقد توارى كل هؤلاء، في ذلك اليوم، حتى الترامواي في طريق الميدان، فإنه لم يكلف نفسه للوقوف أو تخفيف السير ساعة مرور الجنازة، لأن الذين كانوا وراءها لا يعرقلون سيراً ولا يوقفون حركة، ولا يشغلون الطريق أكثر ممّا يتسع لعدد من الناس، لا يزيدون في كميتهم عن هذه الوفود التي تراجع رئيساً أو تزور وزيراً، من أجل تخفيف ضريبة أو تأجيل رسم في هذه الأيام الشديدة. فكأن الأزمة أثرت حتى في عدد الذين يشيعون الموتى ويمشون وراء الجنائز.

أجل! كمشة من الناس، كانوا يسيرون قبل غروب يوم الأحد، وراء جنازة صامتة هادئة، لا تسمع لهم جلبة ولا تحس فيهم حركة، يتقدمهم نعش من خشب ملفوف في راية كالحة، قالوا إنها راية الجمهورية وشعار الدولة الرسمي... سلمت من خطر التعطيل والتأجيل، فلم تتوار كما توارى الدستور، ولم يؤجل نشرها كما أجل

المجلس، بل أباحوا لها أن تخفق على نعوش الموتى، وأن يكفن بها ضحايا الوطن وشهداؤه.

جنازة فقيرة مهشمة محطمة، متخنة بالجراح، جراح الداء، وجراح الوطنية، وجراح الأخلاق!

جنازة تمثل لك الوطن في فقره ودائه، وتريك أصح صورة عن تهشيمه وتحطيمه، تلك هي جنازة المخلص المسلول، والمجاهد الصبور، والوطني المجهول: هي جنازة درويش البكري تسير إلى القبر قبل غروب الأحد بخطى وئيدة متمهلة، حمل صاحبها وقع خطى الموت على مهله عشر سنين كاملة، فما حقد ولا شكا، ولا منّ ولا عتب، بل كان يذوب نفساً في نفس، يداعبه الموت في كل صباح ومساء،وعيناه مبصرتان ورشده كامل، ورأيه صحيح. قسا عليه كل شيء في هذه الدنيا حتى الموت، فقد نام وإياه عشر سنين كاملة في فراش واحد، حتى رفق به ليلة الأحد في منزل حقير مهجور في قرية نائية، طلب فيها الهواء والماء فما أنقذاه من الموت، ولكنهما أطالا في نزعه واحتضاره، فما أشبه درويش البكري في جهاده وصبره، وفي مرضه واحتضاره، ثم في موته بعد ذلك، ما أشبهه بهذا الوطن، جاهد وصبر ولكن الداء يفتك به منذ نيف وعشر سنين، وينام الفقر والاضمحلال والتفرقة في فراشه، فهو يحتضر ويتلاشى، ولكن الموت يداعبه من غير أن يقضي عليه، فلا يزال في بعض نواحيه خبز وفي ينابيعه ماء، وفي قلوب أهله خفوق، وفي نفوسهم أمل، ولكنه أمل المسلول المحتضر يذوب نفساً في نفس وهو يحسب انه حي!

هكذا كانت جنازة درويش البكري في مغرب شمس الأحد: كمشة من الناس تمشي وراءها إلى جبانة الباب الصغير، من غير أعلام وطبول، ومن غير حركة وضوضاء، فقد جهل درويش البكري الاعلان عن نفسه في حياته، فجهله الناس حتى في يوم موته! والله ان في وطنية درويش وعمله، وفي إخلاصه ومكارم خلقه، فخراً ومجداً يتوارى أمامهما أضخم صوت من أصوات بعض هؤلاء «الوطنيين» الذين لم يتقنوا في حياتهم غير الاعلان عن أنفسهم، ولم يبرعوا بغير اثارة الضجيج من حول اسمهم.

أي والله! إن يوماً واحداً من حياة درويش البكري في سجنه المظلم الرهيب، وفي أشد أيام الهول والرعب، يوم كان يحكم على الرجل

عشرين سنة إذا تكلم عشرين كلمة في تحية الوطن والهتاف للحرية، إن يوماً واحداً من حياة صاحب هذه الجنازة، أفضل عند الله وعند الوطن والإخلاص من جميع «الوطنيات»، التي تتقن الإعلان كما تتقن «الصيد»، وتبرع في الدعاية الكاذبة كما تبرع في استغلالها لمصلحتها وملذاتها.

يا صاحب الجنازة الفقيرة:

لقد شيعك إلى القبر كمشة من الناس، خرجوا وراء نعشك مع غروب الشمس، فكانوا قليلين في عددهم، ولكنهم كانوا كثيرين في دموعهم. وإني لأقسم غير خائف، أنه ما ذرف دمع على ميت بحنان وحرقة، وإعجاب واحترام، بقدر ما ذرف عليك في يوم موتك وساعة دفنك، فلقد كانوا مائة، ولكن مائتي عين فيهم كانت تبكي عليك بدموع سخية صامتة، لا زلفى لأهلك ولا استرضاء لأبنائك. فلقد جدت بنفسك وبثروتك وبأبنائك في سبيل وطن ما تبجحت بخدمته، ولا مننت بالإخلاص إليه، ولا طلبت ثمن فقرك من أجله.

أيها الوطني الصبور!

لقد عرفك الشباب الوطني أول ما عرفوك في السجن منذ اثني عشر عاماً يوم كنت تؤنس وحدتهم، وتخفف من ضجرهم، وتسهر على صحتهم، فعرفوا فيك الرجل الذي فتح أول فتح في الكفاح الوطني، المنتج، وتغلغل في صميم الشعب العامي في المدن والقرى طوال أربع سنين، يحمل إليهم رسالة الوطن ساذجة بسيطة، بأناة وصبر وتواضع، فكنت أول من قال للفلاحين في قراهم البعيدة الذين لا يسمعون خطاباً ولا يقرأون جريدة، ولا يعرفون زعيماً، إن لكم وطناً محكوماً وحرية مسلوبة واستقلالاً ضائعاً، فكنت يا صاحب الجنازة الفقيرة، رسول الوطن الأمين إلى أهله الفقراء المؤمنين، تقوم برسالتك مقام الزعيم والخطيب والكاتب.

هكذا عرفناك فأحببناك، وهكذا فقدناك فبكيناك، وهكذا اليوم نرثيك خجلين، ونعتذر إليك مقصرين.

١٩٣٤/٨/٢٢

٤٠

الشيخ رشيد رضا
محامي الاسلام
الشجاع

قد يكون من العقوق الوطني وقلة الوفاء أن يموت رجل مثل الشيخ رشيد رضا، ملأ بلاط العرب والإسلام خمسين سنة علماً وكفاحاً، فلا نسمع ببرقية تعزية تبرق إلى عائلته، ولا نحس بأثر هذه الحادثة المحزنة في البلاد التي خدمها الشيخ بقلمه ولسانه طوال حياته، وما برح يخدمها حتى لقي وجه ربه.

لقد كان الشيخ رشيد رضا مثال العالم الديني، الذي فهم الدين الإسلامي على حقيقته وامتزجت روحه بروح هذا الدين، فنشر تعاليمه الصريحة البسيطة، وجرّده من حشو الحشويين وخرافات الدجالين، وتحمّل في سبيل هذه الغاية السامية، أذى فريق كبير من مشائخ العصر الماضي في مصر والشام، فصمد لهم بشجاعة نادرة، يقرع حججهم الواهية السخيفة بحجج قوية ناصعة من القرآن والحديث والتفسير، فكانت مجلته «المنار» خير مدرسة دينية اجتماعية وطنية تطلع على العالم الإسلامي، بأمجد ما في الإسلام من فضائل، وما في حب الوطن من كرامة، وحسب الشيخ رشيد فخراً أنه كان تلميذ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده، الذي وقف إلى جانبه وحده يوم انفضّ من حوله جميع مشائخ الأزهر في مصر وحاربه مشائخ الشام وسورية بتحريض الحكومة العثمانية

فـاضطهد الامام هناك، وأوذي صـاحب «المنار» هنـا حتى إذا مات الشيـخ محمد عبـده، وقف الشيخ رشيـد على قـدميه ينشر فضـائل أستاذه ويحيي تعاليمه وطريقته في الإصلاح الـديني، فناضـل دون هـذه الغايـة نيفاً وأربعين سنة، حتى انهـزمت الحشـويـة في مصر وانهـارت الرجعيـة الدينيـة في وادي النيـل، فكتب الفـوز لصـاحب «المنار»، وعقد النصر لفضائل الشيـخ محمد عبـده وتعاليمـه بفضل شجاعة صاحب «المنار» وعقيدته الراسخة ونفسه القوية الجبارة.

على أن الشيخ رشيد رضا لم يعش هذه الحياة الطويلة باسم الشيخ محمد عبده فقط. أو لأنه كان تلميذه الوفي الذي لم يفارقه حتى مات، بل كان هو نفسه رحمه الله عـالماً من فحـول علماء الفقـه والحديث والتفسير، بل كان كما قيل عنه: العالم الديني الوحيد الذي لم يدخل معركة في الجدل والمناقشة إلا وكان الفائز فيها، لأنه كان يعرف كيف يقبض عـلى عنق خصمـه في البحث والـرد، وكيف كـانت الحجـج والشواهد طوع يديه، فكأنه كان يغرف من بحر مـليء بهذه الحجـج وهـاتيك الشـواهد، من صلب القـرآن وصحيـح الحـديث وصـادق التاريخ، فمـا كانت مجلـة «المنار» تكفيـه لنشر آرائه ومقـالاته عـلى ضخامة حجمها وسعة صفحاتها، بل كانت جرائد مصر الكبـرى وفي مقدمتها «الأهرام»، لا تخلو من مقالة له في الرد على مستشرق أجنبي أو عالم عربي أو سياسي غير وطني.

لم يكن الشيخ رشيد رضا عالماً دينياً فقط انقطع إلى العلم والتفسير والحديث، بل كان وطنياً عربياً قومياً، يعمـل في سبيل الـوطن العربي إلى جانب عمله في سبيل الدين الإسلامي، فما ظهرت حركة وطنية في سـورية أو في أيـة بقعة من بـلاد العرب، إلا وكـان الشيخ لسـانهـا الناطق وكان قلمه لواءها المنشور، لأنه كان صاحب عقيدة لا تتبـدل ونفس كبيرة لا تلين، فكان يغذي عقيدته الـوطنية ويـرضي ضميره في خدمة بلاده خدمة يبذل لها من وقته وصحته وماله طوال حياته.

هذا هو الشيخ رشيد رضا بقية السلف الـديني الإصلاحي، وبـركة العمل الوطني القومي، وآخر تـلاميذ الأستـاذ الامام، ورفيق سعـد زغلول وقاسم أمين، والخسارة الوطنية الكبرى على سورية وعلى بلاد العرب والإسلام، والرجل الذي كان مخلصاً لدينه ولوطنه.

١٩٣٥/٨/٢٨

هوامش

■ **محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥)**: ولد في القلمون (لبنان). من علماء الدين الإسلامي. تلميذ الشيخ محمد عبده، وصاحب مجلة «المنار» بالقاهرة. له مقالات كثيرة، وكتاب «تفسير القرآن الكريم» المعروف بـ «تفسير المنار».

■ **المنار**: مجلة شهرية علمية دينية أصدرها رشيد رضا في القاهرة سنة ١٨٩٨.

■ **قاسم أمين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨)**: مصلح اجتماعي مصري. درس الحقوق في فرنسا وعيّن قاضياً. اشتهر بالدعوة إلى تحرير المرأة. له «تحرير المرأة» و«المرأة الحديدية».

٤١

الأمير عادل ارسلان
الرجل الذي جاهد
في جميع الساحات

أمن هضاب حرمون وسفوح إقليم البلان أم من مجاهل اللجاة والصفاة، يطل علينا هذا المساء الفارس العربي الملثم؟

أمن بين خيام «الأزرق» المقوضة بانذارات الانكليز ومجاملة الفرنسويين، نلمح وجه الثائر الظمآن أو من خلال الصحراء المحرقة في وادي السرحان أو من بين بقايا أشجار الطرفة في قريات الملح، نبصر المجاهد المريض تحت خيمته البيضاء، وقد هاجمتها شمس تموز بكل ما فيها من لهيب وسعير، أم من على ظهر الباخرة التائهة التي حملت النازح المحكوم بالموت، منفياً أيضاً من وادي النيل إلى شواطىء أوروبا ؟! أم من وراء حدود الوطن المهددة في الشمال، نستقبل السياسي الكفوء والأديب الشاعر، والرجل الذي جاهد في كل الميادين، وكافح في جميع الساحات من أجل سورية ولبنان والعراق وفلسطين، بل من أجل العرب في مختلف أوطانهم؟

أجل! إننا نستقبل اليوم وفي حلب أيضاً هذه الذكريات كلها وهذا المجد جميعه، وذلك الماضي بجملته في عودة الأمير عادل أرسلان إلى وطن فارقه سبعة عشر عاماً، ثم عاد إليه بعد ان استنفد في سبيله كل ما عنده من جهد وطاقة، وبعد أن أصبحت ساحة الجهاد والعمل

والإنشاء في داخله وتحت سمائه، وإلى جانب قادته والعاملين على إنقاذه.

اليوم يعود الأمير عادل إلى بلاد أضناه حبها، وبيّض شعره استعمارها، ثم رفع رأسه كفاحها لا بل نضالها الطويل وصبرها الجميل، حتى عادت إليها حريتها المغتصبة وحقها المنتزع، وأبناؤها البررة، ورجالها النازحون.

هذا هو عادل أرسلان، الذي جاهد ثائراً مقاتلاً حتى لم تبق ساحة للجهاد بالنفس تدعوه،ثم عمل سياسياً داعياً، حتى دعاه هذا الوطن إلى ساحته الداخلية فلبى نداءه. وها هم أبناء هذا الوطن الذين لا ينسون ماضي الفارس الثائر، ولا يتجاهلون جهد السياسي الكفوء، وإخلاص الوطني النزيه يستقبلونه كما يستقبلون رئيس وزارتهم الوطنية، استقبال الأسرة الواحدة لعميدها الغائب ويحيونه تحية الأمة المجاهدة لسفيرها العائد.

ما أشد حاجة هذه الأمة إلى رجال مثل الأمير عادل أرسلان لا يسمون الواجب فضيلة، ولا يطلقون على خدمتها تضحية، ولا يتخذون من الجهاد في سبيلها منّة عليها، ولا يتبجحون بمناسبة وبغير مناسبة بإنقاذها وتحريرها، يجاهدون لأن الجهاد واجب على كل من يطلب استقلال بلاده، ويعملون بكل ما في قدرتهم وطاقتهم لأن العمل من أخلاق الرجال ومن صفاتهم الطبيعية، لا يطلبون عليه ثناء ولا يريدون من أجله مدحاً.

لم يقل الأمير عادل منذ قاد اخوانه في معظم ميادين الثورة، كلمة منّة على هذه الأمة، ولم يذكر جهاده وعذابه ومرضه وتشريده، كلما ذكر بعض الناس أعمالهم السياسية أو الوطنية أو الحربية، بل كان وسيظل دائماً رجلاً من هؤلاء الرجال الذين اشتركوا في زحزحة كابوس الذل والاستعمار عن صدر البلاد، كل في حدود طاقته وفي نطاق قدرته واختصاصه، فما بال بعض أبناء هذا الوطن ينكرون إذن على الناس أعمالهم وما بذلوه في داخل البلاد من جهد ووطنية وحرمان، في سبيل الوصول إلى هذا العهد الوطني الناشىء الذي لم يكد ينمو ويترعرع حتى قامت كل الدسائس ووضعت جميع العقبات من أمامه ومن ورائه؟!

لا! ليس الجهاد في ميادنين الثورة وحده هو الذي أوصل البلاد إلى

ما وصلت إليه من بعض حريتها وبعض حقوقها، بل ان أعمال الأمة وثباتها وصبرها، وإيمانها بحقها، وشجاعة قادتها في داخل البلاد وعزة نفوسهم وحسن تنظيمهم، مضافاً إلى جهاد المجاهدين، ودماء الشهداء، واغتراب المغتربين هو في مجموعه الذي بلغ بالبلاد إلى هذا الدور الوطني الذي ترضى عنه الأمة على علاته، وتدافع عن بقائه، وتصونه من كل عبث، فليس لأحد أو لفئة أو لهيئة معينة مهما كانت أن تدعي أن الظفر ظفرها والنتيجة نتيجتها، فإذا كان ظفراً فإن الذين دفعوا ثمنه كثيرون: المجاهد في ثورته، والسياسي في كفاءته، والصحفي في جريدته، والطالب في مدرسته، والتاجر في دكانه، والمزارع في حقله، والطفل الصغير في هتافه وحجارته والعصي والسياط التي ألهبت جسده.

سيدي الأمير:

إن هذه البلاد وهذا الدور وهذا الجو في أشد الحاجة إلى رجال مثلك، يعرفون قيمة التضامن الوطني أمام الخطر الخارجي، وينسون أنفسهم في سبيل هذا الوطن الذي ما برح استقلاله محتاجاً إلى الكمال، وحريته مفتقرة إلى النضال.

إن سوريا من شمالها إلى جنوبها تحييك تحية تخرج من أعماق قلوبها، وإن هذا الوطن الذي تطل عليه هذه الليلة بعد طول الفراق سعيد بأن يضمك إلى صدره وإلى قلبه، فأنشده وأنت الشاعر الفحل ما أنشده شوقي لوطنه بعد عودته إليه من منفاه:

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيت بك الشبابا

١٩٣٧/١٢/٢٤

هوامش

- **حرمون أو جبـل الشيخ**: اسم يُطلق عـلى القسم الجنوبي من سلسلـة جبال لبنـان الشرقية على الحدود اللبنانية السورية. يتقاسمـه لبنان وسـورية، ويشرف عـلى وادي التيم ووادي القرن وحوران وفلسطين.
- **إقليم البلان**: منطقة في جنوب لبنان عند سفوح جبل الشيخ.
- **اللجاة**: هي الحرّة السوداء التي تفصل بين جبل الدروز وحوران في سورية.
- **الصفاة أو الصفا**: مـرتفعات في سـورية شرقيّ اللجـاة في حوران، وتتكـوّن من حمم بركانية بمساحة ١٢٠٠ كم٢.
- **قريات الملح**: منطقة في شرق الأردن.
- **ويا وطني لقيتك بعد**........: البيت من قصيدة نظمها شوقي بعد عودتـه من منفاه (إسبانيا) سنة ١٩١٩.

٤٢

سلطان باشا الأطرش
مواكب سلطان

مرّ عمر بن الخطاب بنفر من المهاجرين، يجلسون في ناحية من نواحي مسجد المدينة، فقال لهم: فيم أنتم؟ قالوا إننا نتمنى! فقال: وأنا أتمنى معكم. لقد وددت لو أن لي ملء هذا المسجد رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح لأني سمعت رسول الله يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

واليوم تطلّ مواكب سلطان على دمشق، فيلوح من خلالها وجه رجل تمنينا لو أن لنا ملء مسجد بني أمية رجالاً مثله، بل لوددنا لو أن لنا ملء غرفة في بيت من بيوت الوطن رجالاً مثل سلطان، فقد كان أمين هذه الأمة في ساعة ضاعت فيها الأمانات، وعزّت المروءات، وأهينت الكرامات.

ينبغ في أمة من أرقى الأمم عالم أو مخترع أو أديب أو سياسي، فيملأ جوانب البلاد نفعاً وخيراً، ويظهر فيها فارس شجاع يثأر لكرامة وطنه ويقود أهله إلى الموت في سبيله، فينتصر أو ينكسر فتتلاشى آثار العالم والمخترع والأديب والسياسي في موكب واحد من مواكب الفارس، لأن البشر في طبيعته وفي خلقه يفتتن بالفروسية ويمجد الشجاعة ويقدس التضحية أكثر من العلم والفن والاختراع، ففرنسا مثلاً لا تزال تمجد نابوليون وتتحمس لذكراه أكثر من جميع

ذكريات علمائها ومخترعيها وساستها، وقد قادها في نهايته إلى الانكسار، ولكن بطولة نابوليون التي قادت شباب فرنسا إلى النصر قبل الانكسار لا تبرح هي التي تلهب الحماسة في صدورهم وتبعث الشجاعة في نفوسهم، وألمانيا لا تتحمس لذكرى أحد من عظماء رجالها كما تتحمس لذكرى فارسها المارشال هندنبرغ، رغماً عن أنه خسر الحرب في نهايتها، ولكن الألمان ينسون كل شيء ويذكرون في قائدهم الشيخ بطولته وحدها أيام قادتهم إلى الموت في سبيل ألمانيا، فيتحمسون لها ويمجدون صاحبها لأنه لا يذهب بعظمة البطل انكساره فالإنكسار في المعركة أشرف من الهزيمة. وها هم الأتراك ينسون كل علمائهم وشعرائهم وأدبائهم، ويذكرون بطولة مصطفى كمال وحدها لأنها حررتهم وأنقذت وطنهم من الاحتلال الأجنبي.

وسورية اليوم مثل كل الأمم تنسى علماءها وشعراءها ورجال سياستها ولكنها لا تنسى أبداً أن تحتفل بالفارس الشجاع حياً كان أو ميتاً، ومنتصراً كان أو منكسراً، ففي ذكرى واحدة من ذكريات «ميسلون» تتلاشى جميع آثار رجال العلم والسياسة والأدب، وتظل ذكرى الفارس القتيل وحدها مثار حماسة السوريين، ويظل اسم يوسف العظمة أبرز الأسماء، وقد خسر المعركة وسقط قتيلاً، ولكن الانكسار لا يذهب بعظمة البطل لأن البشر يتحمسون للفروسية وحدها مهما كانت النتائج التي تأتي على يدها.

وفي مواكب سلطان نسينا كل شيء، فغرقت الأمة في ذكرى الفارس الشجاع وتحمست لهذه الفروسية ولهذه البطولة، فكان يوم سلطان أمس سيد الأيام، وكان اسمه أبرز الأسماء، فقد تلاشت آثار الظفر والانكسار، وغابت عن العيون صفحات ضخمة من سياسة الماضي ومن سياسة الحاضر، لأن الأمة كانت تحتفل بيوم البطل وبموكب الفارس وبعودة القائد.

لقد تمنى عمر بن الخطاب أن يكون له ملء مسجد المدينة رجال أمناء مثل أبي عبيدة. ونحن تمنينا أن يكون لنا ملء مسجد بني أمية رجال مثل سلطان، لأن الأمانة كانت منذ صدر الإسلام حتى هذه الساعة أبرز صفات الرجل. وإذا كان سلطان فارساً وبطلاً وشجاعاً، وإذا كان رمز كرامة هذه الأمة، ورمز غضبتها الكبرى في سبيل وطنها، فإن سلطان أمين منذ أن خلق وسيظل أميناً حتى يموت.

أجل! لقد كان سلطان أميناً على عهد الوطن يوم كان الترك يفتكون بكل أمين على وطنه، وظل أميناً على هذا العهد حتىْ جاء فيصل بن الحسين، وحينما ضاعت الأمانات عند بعض الرجال الذين عاهدوا فيصل على الأمانة في الجبل، كان سلطان يحفظ أمانته، فما خان عهداً ولا باع ذمة، ولا طعن الوطن في ظهره ساعة محنته.

وجاء الاحتلال والانفصال، وجاء عهد كان القابض فيه على وطنيته كالقابض على الجمر، فظل سلطان قابضاً على كرامة الوطن ووحدته، وظلت يداه تحترقان بهذه الأمانة الغالية، فلم يساوم عليها ظافراً منتصراً، ولم يفرط بها لاجئاً منكسراً، ولم يتعب من حملها في الصحراء منفياً نائياً، حتى عاد بها أمس إلى الوطن كريمة مصونة تخلع على مواكب المجاهدين أشرف ما تخلعه الزينات والرايات والسيوف والبنادق.

هذا سلطان، الوطني الأمين. وهذا سلطان: الفارس الشجاع. وهذه مواكب سلطان وإخوان سلطان: كلها أمانة وفروسية وضحايا. فأهلاً بسلطان وإخوان سلطان، ومرحباً بهذه المواكب التي يقول فيها أمير الشعراء:

انظروا تلقوا عليها شفقا   من جراحات الضحايا ودماها

١٩٣٧/٥/٢١

هوامش

■ **سلطان باشا الأطرش (١٨٩١ ـ ١٩٨٢)**: ولد في القريَّة من أعمال صلخد (سورية). مناضل وطنيّ، ثار على الفرنسيين أولاً سنة ١٩٢٢، ثم كان القائد العام للثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥.

■ **أبو عبيدة بن الجراح (ت ١٨ هـ/ ٦٣٩ م)**: صحابي قرشي فهري. أحد كبار قادة الفتوح. قاد جيش الفتح إلى الشام بعد خالد بن الوليد.

■ **بول ڤون هندنبرغ (١٨٧٤ ـ ١٩٣٤)**: مارشال ألماني انتصر على الروس سنة ١٩١٤. رئيس أركان الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى. رئيس جمهورية الرايخ سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٤.

■ **مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ ـ ١٩٣٨)**: قائد تركيّ ولد في سالونيك. مؤسس الجمهورية وأول رئيس لها سنة ١٩٢٣. قام بإصلاحات اجتماعية، وغيّر كتابة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني.

ياسين الهاشمي
يومان للهاشمي
في الشام

أرأيت إلى هؤلاء الشباب الذين امتدت صفوفهم من بين ظلال الربوة إلى تحت مآذن الجامع الأموي يحيطون بنعش ويطوفون بميت؟!

هؤلاء هم الأطفال الذين حطموا المدارس في أواخر عام ١٩١٩ وخرجوا إلى الشوارع يصرخون بملء أصواتهم: نريد ياسين باشا!

ورأيت إلى الكهول الذين أحنت رؤوسهم الفاجعة كيف كانوا يسيرون وراء النعش متهدمين منهوكين؟

هؤلاء هم أقطاب حزب الاستقلال ورجال حكومة فيصل، ورفقاء ياسين الهاشمي في بناء استقلال سورية والعراق معاً.

أما الشباب الذين أقاموا منهم حرس الشرف في سيارة النعش، والذين قادوا موكب الجنازة إلى مشهد الحسين في الجامع الأموي فقد هتفوا أول مرة منذ سبعة عشر عاماً في دمشق لياسين الثائر المنفيّ، يوم كان في طريقه إلى المعتقل البريطاني في الرملة، يدفع وحده أول قسط لثمن أول ثورة، قامت في العراق في سبيل استقلال العراق، اليوم يهتفون هتفة الحزن في دمشق أيضاً لياسين محرر العراق بالأمس ومنفيه اليوم! فكأن الله أراد أن لا يسمع ياسين

الهاشمي هتاف المجد في بدء زعامته وفي منتهـاها إلا في دمشق ومن أهل دمشق، الذين هتفوا به أطفـالاً وشبابـاً وكهولاً في الحيـاة وبعد الموت.

أما هؤلاء الذين اشتركوا مع ياسين في تحريـر الشام والعراق، فقد وقف رئيس حكـومتهم أمس يودع الـرجـل الـذي كـانت لـه أبيض الأيادي على سورية، أيـام كان وفـدها المفـاوض يناضـل في معركـة الحرية من أجل هذا الوطن الصغير.

لقـد كان من أقصى أمـاني هؤلاء الكهول الـوطنيـين، جميـل مـردم وإخوان جميل مردم، أن يهتفوا للرئيس ياسين الهاشمي الـذي وقف كـل ما في رئـاسة الـدولة المستقلـة من سلطة وقـدرة على مسـاعدة فلسطين في نضالها، وسوريـة في مفاوضـاتها، كـان من أقصى أماني كهول الوطنية والسياسة في سوريـة وفي فلسطين أن يهتفـوا للرئيس في حياته، وأن يبلغوه شكر الوطن في صحته، ولكن الموت أبى إلا أن يبدل شرب النخب بشرق الدمع، فوقف هـذا الوطن أمس تحت قبـة الجامع الأموي وإلى جانب مشهـد الحسين بن عـلي، شهيد العـراق المظلوم الأول، يبكي شهيد العراق المظلوم الثـاني، فما أقسى الشبـه في الموقفين، وما أتعس الخاتمة في الرجلين: كلاهما يحمل إلى الشـام جثة هامدة، يخذله العراق ومن في العراق.

أيتهـا الأوطان! مـا أعقّك عـلى الـذين يحررونك! تخـذلينهم ثم لا تخجلين أن تضمي عظامهم وتبكي عليهم بعد موتهم!

يومان للهاشمي في الشام: يوم الثائر المنفي، ويوم الشهيـد المظلوم! كلاهما من أروع أيام الوطن، وفاء وإخاءً وعطفاً، ولكن يوم الشهيـد كان أبلغ في الروعة، وأعظم في التعزية، وأظهر في الوطنية، فلقد مات ياسين بـين أيدي حكـومة وطنيـة في الشام، وسمـع وهو مسجّى في نعشه صوت رئيس وطني كان رفيقه في جهاده وصديقـه في حياتـه، سمع الهاشمي صوت جميل مردم يودعه في يومـه في آخر سـاعاتـه باسم الأمة السورية حكومة وشعباً، وشهد بعينيه اللتين أغمضـهمـا الموت أن يومه في سوريـة كان يـوم حداد وطني عام، بل كـان يومـاً تجلّت فيه السيادة القومية بـأجمل مظـاهرهـا فتساقطت الحـواجز المصطنعـة من فوق الحدود، وجاء الـوطنيون في فلسطـين يودعـونه الوداع الأخير في دمشق.

ولقد كان يودنا أن تحتفظ دمشق بياسين، وأن تراه يرقد إلى جانب صلاح الدين بجوار خلفاء بني أمية وقوادهم كما قرر رئيس الوزراء أول أمس، لولا الرغبة الملحة التي أبدتها حكومة العراق أمس إلى وزير الخارجية على أن تستقبل الجثمان رسمياً وشعبياً.

لقد مات الرئيس الذي قال يوم عقد المعاهدة السورية لرجال الكتلة الوطنية: لا حدود بيننا بعد اليوم! العراق لكم وسورية لنا، فاكتبوا المعاهدات التي تريدونها ونحن نوقعها، لأن علاقاتنا ببعضنا البعض هي أسمى من الاتفاقات الجمركية ومن جوازات السفر. ها هو العراق مفتوح أمامكم وأمام منتوجاتكم، وها هي سورية وقد تحررت فلتكن للعراق، وليكن العراق لها، وليكن منهما وطناً واحداً يحرر بقية أجزاء الوطن العربي من قنال السويس إلى خليج فارس!

أجل! لقد مات أقوى رئيس عربي في حكومة عربية مستقلة، كان همّه في أيام حكمه أن تحرر سورية وأن تنقذ فلسطين، مات بعيداً عن الحكم، ولكنه لم يمت بعيداً عن الزعامة، فقد كان يومه في طول بلاد العرب وعرضها يوم الوطن المفجوع، ويوم الفقيد الذي لا يعوض، فليس في العراق إلا ياسين واحد سوف يذكره العراق في ساعات محنته وأيام كربته، بل سوف يذكره العرب في العراق كلما تلفّتوا بقلوبهم وعيونهم إلى ماضي الحكم العربي على ضفاف دجلة، فيجدون هذه الآفاق العربية الواسعة التي فتحها لهم ياسين في الشام وفي مصر وعلى سواحل البحر المتوسط، قد أخذت تنكمش عنهم وتحاذر قليلاً من هذه السياسة العجيبة التي قامت في بلادهم، ومن هذه «الوطنية الإنسانية» التي أشاد بها بعض المأجورين في صحافة لبنان على أنقاض سياسة ياسين ووطنيته العربية القومية.

سيدي الرئيس:

لقد كان يومك في الشام أول يوم تساقطت فيه الحدود المصطنعة التي كنت تكرهها بين البلاد العربية، وها هم إخوانك الذين تحبهم يفدون من كل مكان يشيعونك بدموعهم وقلوبهم، وها هي دمشق التي خلدت يومك الأول، وأنت ثائر منفي، تخلد يومك الثاني وأنت شهيد صبور. وها هم شبابها الذين تركتهم أطفالاً يهتفون ببطولتك وثورتك، قد شبّوا اليوم على مبادئك يحملون نعشك على أكتافهم ويسهرون عليك في مسجد خلفائهم، ويؤنسون وحدتك في ظلام الليل،

وها هم كهولهم من إخـوانك ورفـاق جهادك يقفـون إلى جانبـك ومن حول نعشك يسمعونك آيات وفائهم في ساعتك الأخيرة.

أيها الجندي الشجاع والثائر المغامر:

لقد تعبت من الجهاد فاسترح، وشبعت من الظفر فاهدأ.

١٩٣٧/١/٢٤

هوامش

■ **ياسين الهاشمي**: (١٨٨٢ ـ ١٩٣٧): زعيم عراقي، ولد في بغداد، وتعلّم فيها، ثم في الآستانة وبرلين، فتخرّج ضابطاً سنة ١٩٠٥. خاض الحرب البلقانية، واتصل بالشريف فيصل بن الحسين، ودخل معه جمعية «العربية الفتاة». كان رئيساً لمجلس الشورى في سورية أيام الملك فيصل، ثم تقلّد مناصب وزارية في العراق. ألّف حزب «الشعب» في العراق، ورأس الحكومة مرتين. ثم قام بأعمال سياسية وعسكرية مختلفة، إلى أن قامت ثورة بكر صدقي سنة ١٩٣٦، فرحل إلى بيروت وتوفي فيها.

■ **الرملة**: بلدة في فلسطين شمال شرقيّ القدس، عدد سكّانها ٣٥٠٠٠ نسمة.

■ **الإمام الحسين بن علي**: الابن الثاني للإمام علي بن أبي طالب والسيّدة فاطمة، أقام في المدينة، ورفض مبايعة يزيد بن معاوية، فقتل في كربلاء في ١٠ محرّم ٦١ هـ (١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٨٠م).

٤٤

ميشيل زكور
اللبناني العربي
الشريف

حينما ذهبت إلى «الشياح» لأقدم تعزيتي في صريع الأمس، ميشيل زكور، لقيت هناك المحامي الأستاذ عبد الله إسحق، فقلت لـه: «لقد مات ميشيل عـلى حساب سـورية ولبنـان»، فقال لي: «بـل مات عـلى حساب الأخلاق في هذا البلد! فهل فهمت؟!.

إن رجلاً يشتغل في السيـاسة عشرين سنـة في بلاد مثـل لبنان، وفي سياسة مثل سياسة لبنان، ثم يموت شريفاً، جدير به أن «يموت عـلى حساب الأخلاق!».

وغـادرنا «الشيـاح» إلى بيروت، وكـان من سـوء حظي أن نعيت من إدارة «المساء» إلى شكري القـوتلي في دمشق صـديقه ميشيـل زكور فقال لي فوراً: «خسارة على لبنان وعلينا».

اللهم نعم! إن موت ميشيل زكور خسارة عـلى لبنان وعـلى سوريـة، فقد كانت سـورية تجـد في ميشيل وفي من هم في أخـلاقه وعقيـدته وشجاعته من الشباب اللبنانيين، ضمانة سياسيـة ووطنية إن لم تكن على وحدة الأرض بين سورية ولبنان فعلى وحدة الصـداقة والتفـاهم على الأقل! وإني لأقسم بأنه ما تدخل في أمر بين سوريـة ولبنان إلا وهـو مخلص في تدخلـه، ولا طلب طلبـاً إلا وهـو مؤمن بـأنـه لخـير البلدين، وما جرب حلّ مشكلة أو وقف حملة إلا ونجـح في عمله لأن

الوطنيين في سورية كانوا يؤمنـون بإخـلاص ميشيل زكـور، وكانـوا يثقـون بأخـلاقه. وهـذا ما جعلـه محترمـاً في نظرهم، مـوثـوقـاً في أوساطهم وفي كتلتهم وفي جرائدهم.

أيّ رجل في لبنان اشتغـل في السياسـة عشرين سنة ثم مـات شريفاً قبل ميشيل زكور؟!

هذه هي المعجزة التي قال عنها عبد الله إسحق في «الشياح»:

«كاتب صحفي ولبناني ماروني وشاب يفيض قوة ونشاطـاً وطموحـاً يرافق هذه السياسات المختلفـة في سوريـة وفي لبنان، ويغرق في تلك التيارات الجارفـة من الاحتلال الإفـرنسي في بيروت إلى قيـام الحكم الفيصـلي في الشام ويشهـد «مواسم» دار الاعتمـاد العـربي وأيـام المنطقة الشرقية والمنطقـة الغربيـة.. وما في هـذه وتلك من مغـريات الشباب والصحافـة.. ثم يشترك في سيـاسة إعـلان «لبنان الكبـير» ويساهم في إنشاء الجمهورية اللبنانية صحفياً ونائبـاً ثم وزيراً قبـل أن يتخطى الأربعين من شبابـه ـ ثم يموت نظيفـاً في ذمته وفي يـده محتفظاً بكل أصدقائه وبكل سمعته وبكل شعبيته! وأين ذلك كله؟ في لبنان وفي بيروت وفي السراي؟!».

هذه معجزة اكتشفها ابن اسحق في ميشيل زكور يوم الشياح!

قـد يكون ميشيـل زكور من حيث السيـاسة اللبنـانية بـالنسبـة إلى سورية والـوحدة مثـل بقية السيـاسيين اللبنـانيين: استقـلال لبنان والمحافظة على كيان لبنان بحدوده الحاضرة، ولكن لماذا يظل صاحب هذه السياسة وهذه العقيدة صديقـاً لأصحاب سيـاسة الـوحدة من الوطنيين السوريين محترماً عنـدهم، ومحبوبـاً منهم، وغاليـاً عليهم؟ ولماذا لم يستطع غيره أن يكون مثله في نظرنا؟ ذلك لأن ميشيل زكور بـرهن في جميع أدوار حيـاته عـلى أنه رجـل شريف مخلص لتعـاون لبنان وسورية على أساس السيادة الوطنية الكاملة، بـل على أسـاس السيادة السورية اللبنانية العربية، فإذا أحب لبنان وأخلص لوضعه وكيانه فلم يكره سوريـة ولم يبغض أهلها ونهضتهـا وجهادهـا، بل كـان يبارك هذه النهضـة ويؤيد ذلـك الجهاد ويقـول: إن كل مـا تربحـه سورية سيكون خيراً على لبنان. ولكن «بعض» السياسيين اللبنانيين يفهمـون من حب لبنان كـره سوريـة، ومن استقلال لبنـان سيـادة

عنصر على عنصر، وتحكم طائفة بطائفة، واضطهاد جماعة لجماعة، وهم بالتالي يحقدون على كل ما هو سوري وعربي، ويتمنون لو أن الاستعمار المباشر يظل جاثماً على قلب سورية وأهلها ولو بقي لبنان مثلها مستعمرة ذليلة إلى الأبد، ويودون لو أن الصهيونية مثلاً حلّت في الشام وأبادت أهلها، أو أن الأشوريين أو الأرمن، أفنوا الأمة العربية ليتخلص هؤلاء السياسيون اللبنانيون من العرب ومن لغتهم ومن سيادتهم ومن جوارهم!

هذا هو الفرق بين لبناني ولبناني، بل هذا هو الفرق بين ميشيل زكور وبين «غيره». ولو أن جميع السياسيين اللبنانيين يفهمون من استقلال لبنان ما يفهمه ميشيل زكور، ويعملون في ظل هذا الاستقلال ما يعمله هو من سيادة وكرامة وعروبة، ومحبة وإخلاص، لما كان انفصال لبنان عن سورية يعدّ فاجعة قومية على هذا الشرق العربي المجاهد.

لست أدري إذا كنت أستطيع رثاء ميشيل زكور بغير هذا الأسلوب الجاف وأنا الذي عرفته وأحببته وصادقته منذ خمسة عشر عاماً، فوالله ما علمت عنه من سوء لا في وطنيته ولا في نزاهته ولا في أخلاقه.

بأي أسلوب إذن أستطيع أن أخفف من حرقتي عليه وفاجعتي به؟! وكيف أتقدم إلى زوجته التاعسة بكلمات العزاء والمجاملة، وقد انهار عرش ضخم من حب وشباب ومجد وأخلاق، كان ميشيل زكور يجلسها عليه، بعد أن بناه لها وله ولثلاثة أطفال لم ينبت الزغب في خدودهم ولا فهموا من هو أبوهم الذي فقدوه أمس، بناه بعصاميته وعرق جبينه لا بعرق ذمته وكد ضميره!

لا! لن أستطيع أن أهوّن عليك الفاجعة أيتها الزوجة المنكوبة برجل على مثله يُبكى ويُناح، فابكي ونوحي، فهذا يومك ويوم حزنك وبكائك، فلقد كان زوجك كثيراً ما يردد قول طرفة:

إذا متّ فابكيني بما أنا أهله وشقّي عليّ الجيب يا بْنَةَ معبد

١٩٣٧/٦/٢٢

هوامش

■ **ميشال زكّور (١٨٩٣ ـ ١٩٣٧)**: صحافيّ وسياسيّ لبنانيّ، ولد في الشيّاح، وتعلّم في مدرسة الحكمة. حرّر عدداً من الصحف في العهد العثماني، ثم أصدر مجلة «المعرض» في بيروت سنة ١٩٢١، وأتبعها «المعرض الأسبوعي» سنة ١٩٢٩ بالاشتراك مع ميشال أبو شهلا. عضو في المجلس النيابي سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٤، ووزير الداخلية في حكومة الأحدب سنة ١٩٣٧، لكنه توفي في حزيران/ يونيو من العام نفسه.

■ **الشيّاح**: أحد أحياء الضاحية الجنوبية لبيروت.

■ **المساء**: جريدة يومية سياسية أصدرها عارف الغريِّب وأحمد السبع في بيروت في ٨ آذار /مارس ١٩٣٣.

■ **عبد الله إسحق**: سياسي ورجل أعمال لبناني في بيروت. ممثّل بيروت غير مرّة في المجلس النيابي على عهد الانتداب الفرنسي.

■ **طرفة بن العبد (نحو ٥٣٨ ـ ٥٦٤م)**: شاعر جاهلي من أصحاب المعلّقات، ولد في البحرين. ابن اخت المتلمّس. اتصل بملك الحيرة عمرو بن هند، فمدحه ثم أغضبه فأمر بقتله. له ديوان مطبوع.

٤٥

الملك فؤاد الأول
الملك العالم

كثيرون من الرجال تبرز عظمتهم بعد موتهم أكثر من بروزها في حياتهم. أي أن قيمة هذه العظمة التي كانت لهم في الحياة تتجلى كثيراً بعد الموت. ولم يكن المغفور له جلالة الملك فؤاد من الذين لا يشعر الناس بعظمتهم في الحياة، ولكن هذا الشعور سيضاعف كثيراً كلما مرت الأيام على فقده لأنه لم يكن ملكاً فقط بل كان حاكماً أيضاً، حكم مصر وحده منذ أن نفذ تصريح ٢٨ شباط عام ١٩٢٢ حتى مات.

قد يتساءل بعض الناس بشيء من الشك: كيف يحكم بلاداً ملك من أهلها، والاحتلال البريطاني يبسط ظله على هذه البلاد في البر والبحر والجو؟

هذا هو السر في عظمة الملك فؤاد، فقد حكم مصر رغماً عن وجود هذا الاحتلال، فكل سياسة في مصر لم تنفذ برأيه فقط، بل وضعت خططها بأمره وبوحيه وبإرادته، لأنه كان ملكاً شرقياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فقد حمل الإنكليز على احترامه، ومصر على طاعته. وإذا كان عهده قد تخلله كثير من الانقلابات في تبديل الدساتير وتغيير الوزارات وتناوب الأحزاب في الحكم، فإن هذه الانقلابات كلها لم يكن سببها إلا الحؤول دون مشاركة أحد في حكم مصر.

وإذا كان قد تخلى الملك فؤاد في المدة الأخيرة عن هذه السلطة المباشرة، فإن المرض هو الذي حمله على هذا التخلي. والمرض نفسه هو الذي جعل دار المندوب السامي تشعر بأنها صاحبة السيادة في مصر لأول مرة في عهد وزارة توفيق نسيم باشا منذ عام ١٩٢٢، لأن الملك فؤاد عرف كيف يستفيد من تصريح ٢٨ شباط في إثبات وجوده وبسط سلطته ونفوذه.

قال لي رجل مصري كبير: لم يعرف إنسان مصر بقدر ما عرفها الملك فؤاد، ولم يحكم ملك بلاده مثلما حكمها هو، فقد كان كل شيء في يده، وكل مشروع من مشاريع مصر في الإدارة والسياسة من وضعه. ولقد كانت في مصر ثلاث حكومات: البلاط الملكي، ودار المندوب السامي، والوزارة. ولكن حكومة البلاط أو السراي كما يطلق عليها في مصر هي أبرز الحكومات نفوذاً، فقد كان لها تشكيلات داخلية، محكمة الوضع، وكان رجالها المخلصون لها، العاملون على تنفيذ سياستها، منتشرين في كل دائرة من دوائر مصر، وفي كل ناحية من نواحي الحياة السياسية والاجتماعية في الدولة المصرية، فللسراي رجال في الوزارة وفي القضاء وفي الصحافة وفي السفارات وفي الشركات وفي البنوك وفي المديريات وفي الأزهر والأوقاف والجامعة والكليات وغير ذلك، حتى أصبح ملك مصر موجوداً في كل مكان.

هذه ناحية من نواحي عظمة الملك الراحل، أما كفاءته فقد قالوا عنها إنها فوق مستوى الكفاءات في مصر، وكان جديراً بلقب الملك العالم لما ظهر من حبه للعلم وتنشيطه له في جميع فروعه، وأما آثاره العمرانية الإنشائية فقد فاقت آثار كل ملك قبله ما عدا آثار الخديوي إسماعيل. على أن آثار الملك فؤاد في خلال حكمه كانت دائمة النموّ لا تنقطع، ففي كل جهة أثر من آثاره لأنه كان يحذو حذو والده في العمران والإنشاء، وكان شديد الحب له، جمّ الإعجاب به.

أما موقف مصر السياسي اليوم، ووجود الوفد الرسمي المفاوض إلى جانب الوفد البريطاني، فإن الفضل في تأليفه من جميع الأحزاب بهذا الشكل يعود إليه. فقد استدعى زعماء مصر جميعهم وألقى عليهم ذلك الدرس في الاتفاق والحرص على وحدة الكلمة. وكان

مـريضاً متعبـاً ساعـة خطب فيهم خطبته المشهـورة التي بكى فيها وأبكى الحاضرين.

وإذا كان في خاتمة الملك فؤاد ناحية مؤلمة مؤثرة فهي أن الإنكليز في خلال مرضــه أصروا على سفـر ولي عهده الأمـير فاروق إلى إنكلتـرا إصراراً لم يكن مرتاحاً إليه لأنه كان يفضل أن يعلم ولي عهده قربه، وأن يربيه تـربية مصريـة وطنية. ولكن قسـوة السياسـة والتقاليـد جعلت مرض الملك منغصاً جداً لبعد ولده الـوحيد عن عينيـه، فمات محروماً من رؤيته في الساعة الأخيرة.

١٩٣٦/٤/٣٠

هوامش

■ **الملك أحمد فؤاد الأول (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦)**: ابن الخديوي اسماعيل، وسلطان مصر سنة ١٩١٧ خلفاً لأخيه السلطان حسين كامل. اتخذ لقب «الملك» سنة ١٩٢٢.

■ **محمد توفيق (باشا) بن محمد نسيم**: من رجال السراي بمصر. تركي الأصل، مصريّ المولد والنشأة. تخرّج في مدرسة الحقوق، وولي وزارة الأوقاف، فوزارة المالية فرئاسة الوزارة مرتين، فرئاسة الديوان الملكي، فرئاسة مجلس الشيوخ. له عناية بالأدب. شارك عبد العزيز محمد باشا في تأليف كتاب «طلبة الراغبين في بيان حقوق الدائنين». توفّي في القاهرة سنة ١٩٣٨.

■ **الملك فاروق الأول (١٩٢٠ ـ ١٩٦٥)**: ابن الملك فؤاد الأول، وملك مصر سنة ١٩٣٦. أطاحته ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢ وتوفي في روما.

٤٦

الملك غازي
نصير الشام
وأمل العرب

مات غازي!

هـذا هو النبـأ الصادع الـذي نقلته أسـلاك البـرق من بغـداد إلى سورية المعذبة الشقية، فزادت في عذابها وشقائها.

مات غازي!

وأصوات حازمة في العراق تدوي كالرعد القاصف انتصاراً لسورية، واحتجاجاً على سياسة فرنسـة فيها، فليت شعـري ماذا كُتب لهـذه البـلاد حتى تلاقي من قسـوة الأقدار مـا تلاقي ممـا لو صب عـلى الجبال لدكّها دكاً.

لقد كتب لسورية في سجل الدهور أكثر الصفحات سواداً وشدة، فما يكاد يندمل لها جرح حتى ترمى بسهم ينكأ جراحها،ويردي فؤادها كسيراً ذبيحاً.

في الأمس، الأمس القريب، ودّعت سورية مليكها العظيم فيصـل بن الحسين شريداً طريداً، وقد سطت القوة الغاشمة، فأطاحت بـالتاج، وهدمت العرش، وقوضت أركان الاستقلال، واستلبت الحرية، ولكن سورية الصابرة الوفية نصبت في القلوب تاجـه، وأقامت في النفـوس عرشه، ورعت عهده، وحفظت ودّه حتى لاقى وجه ربه، فبكت آمالهـا

فيه، وندبت سوء حظها ما شاء الله لها أن تبكي وأن تندب. وابتسم الدهر يوماً لسورية، فإذا بغازي خليفة فيصل يحمل رسالة والده العظيم، فيولي سورية عطفه وحنانه، ويمنحها وفاءه وإخلاصه، فتتجه إليه القلوب، وترمقه العيون، ويدعو كل من ذاق عذاب الإستعمار ومهانة المستعمرين إلى الله أن يصون للعراق استقلاله ويحفظ له الجالس على عرشه، وكدنا نجني الثمرة المرجوة من الشجرة الطيبة التي غرسها فيصل وتعهدها غازي، ولكن غازي مات قبل أن تنمو هذه الشجرة، فضاعت الآمال، وتبددت الأحلام مرة أخرى، فما أشبه الليلة بالبارحة.

نحن إذ نرثي غازي فإنما نرثي العراق وسورية، القطرين العربيين الشقيقين اللذين يعتزان بتاج غازي، ويتيهان خيلاء وعجباً بهذا المليك، ويوقنان أن السياسة الأجنبية التي أقامت نفسها وصية عليهما حيناً من الدهر فغادرت أحدهما واعترفت باستقلاله واحتفظت بالآخر ونكثت بوعودها وعهودها له، لا بد لها من أن تعترف بحقوق القطر الآخر، فيرجع مثل شقيقه حراً مستقلاً ينير بالحرية والاستقلال اللذين مهرهما مليكان عظيمان وآلاف مؤلفة من الأضاحي الغالية.

في ذمة الله أيها الراحل العظيم فإن لك المكانة الممتازة في قلوب العرب مثلما كانت لأبيك من قبلك، وإن الرسالة التي حملتها سيجمع العرب على تأييدها والموت من دونها.

أما العراق الشقيق الذي بات أمس على هذا الخَطْب الجلل والمصاب العظيم كاسفاً حزيناً، فإن سورية لتناشده بالله أن يتلوذ بالصبر ويعتصم بالأناة فإن الشر كل الشر في أن يضيع صوابه ويفقد رشاده في هذه النكبة الفادحة.

واطمئن يا أبا فيصل في رمسك، ونم قرير العين، فإن الجذوة التي أوقدت في كل قلب سوف لا تخبو حتى تؤدّى الرسالة حقّ أدائها، ويتمّ للعرب ما أراد جدك وأبوك وما أردت أنتَ فتهدأ أرواحكم جميعاً بين يدي الله وبين يدي الدهر.

١٩٣٩/٤/٥

٤٧

مختار ووجيه الأيوبي
مأتمان في بيت

ما حسبنا، ونحن نكتب في «قبس» الجمعة وفي ساعة متأخرة من الليل نبأ مرض مختار الأيوبي، أن هذا المريض الذي توجهنا بقلوبنا إلى الله بشفائه، إنما كان في ساعة الاحتضار وفي معركة الموت الفاصلة! وما دري قراء الجريدة الذين قرأوا الخبر في ذلك الصباح الحزين أن المريض قد مات وأن مصيبة من أقسى المصائب قد نزلت بشاب من أنضر الشباب وبرجل من نخبة الرجال، وبأم من أشدّ الأمهات حناناً وحزناً وأكثرهن فجيعة وثكلاً، وببيت من خيرة بيوت هذا الوطن أخلاقاً ونبلاً وسيرة حسنة، وببلاد توالت عليها النكبات في كل شيء، ولكن مصارع الخيّرين فيها واحداً إثر واحد، وخسارة المخلصين لها رجلاً بعد رجل، فاقت كل نكبة وتجاوزت كل حد.

هكذا كان يوم الجمعة في دمشق فقد كان يوم مختار الأيوبي وحده يوم الشاب الذي لم يكمل الأربعين من عمره، والرجل الذي خدم هذه البلاد بأمانة الموظف النزيه، وكفاءة الإداري الحازم ونشاط العامل المخلص، فما تولى عملاً منذ أن كان مدير ناحية في يبرود حتى أصبح قائممقاماً في انطاكية، إلا وترك من بعده أثراً لم يتركه موظف غيره، لأن مختار الأيوبي لم يكن موظفاً يعمل للوظيفة ومرتبها فقط، بل كانت الوظيفة والمرتب معاً وسيلة لما يريده هو من خدمة

وطنه في نطاق العمران ونشر التعليم والإحسان إلى الناس ورفع ظلامتهم. وإنك لتدهش حينما تلقى سكان يبرود والزبداني ودوما وجيرود وانطاكية الذين كان الفقيد قائممقاماً في بلادهم، يحدثونك أحاديث الرضاء عن حسن معاملته لهم، ويسألونك بلهفة الصديق عن صحته ومرضه، وما أقل الموظفين وخصوصاً رجال الإدارة فيهم الذين يحسنون إلى الناس ويعملون في سبيل البلاد التي يتولون الوظيفة فيها، فإذا فجع آل الأيوبي به فقد خسرت سورية بموته رجلاً من هؤلاء الرجال القلائل الذين كانت تعدّهم لخدمتها الكبرى يوم تملك بعض أمرها في ظل سيادتها وحريتها.

لست أدري علم الله ماذا أقول في مختار الأيوبي، الرجل المهذب والوفي الكريم، بل في هاتيك الشخصية المحبوبة التي تحمل نفساً كلها إباء وعزة، وتواضع ووداعة في وقت واحد، بل في تلك الروح التي جبلها الله على اللطف والرقة والنكتة الحلوة.

أجل! لست أدري شهد الله كيف يكون العزاء بمختار الأيوبي وأنا من أشد المفجوعين به وبأخيه من قبل، بل كيف تكون المواساة لبيت قام فيه بالأمس مأتمان إثنان: مأتم ميت اليوم ومأتم فقيد الأمس؟ إنه يوم الشقيقين الغاليين: يوم وجيه الذي قضى في أنضج العمر وأكمل الرجولة، ويوم مختار الذي ذهب في السن الذي ذهب به وجيه، فكأن القدر القاسي استطاب في قلب هذه الأم لوعة الثكل وحرقة الفجيعة فما يبلى السواد عليها في مصيبة قديمة حتى تتشح سواداً جديداً على مصيبة جديدة، فإذا الحداد على الحداد وإذا بالثكل على الثكل! فوارحمتاه للأمهات ما أتعس الحياة لديهن وما أثقلها عليهن وهن يحترقن بفقد الأبناء في زهرة العمر ونضارة الشباب!

تقول العامة في أمثالها: اللهم أجِرنا من مصيبة تطرد مصيبة. أما أمس فقد كان غير ذلك.. كان يوماً «الأسى فيه يبعث الأسى». فما طردت المصيبة الجديدة بمختار المصيبة القديمة بوجيه، بل ازدوجت المصيبتان وضوعفت النكبتان، وقام في بيت واحد مأتمان لا تدري العيون الباكية على أيهما تذرف دموعها، وما تشعر القلوب المحترقة على من منهما تحترق، وكلاهما غال، وكلاهما عزيز. أعلى وجيه، وفي فقده ثكل أمٍّ وترمل زوجة ويتم أطفال ولوعة إخوة، أم على مختار وفي موته الثكل واللوعة والأسى والحزن؟

اللهم رحمتك وصبرك! شقيقان في عامين، ومأتمان في بيت واحد، وفقيدان اثنان من نخبة الشباب والرجال ومن أمة مثل هذه الأمة؟!

هذه مصيبة لا ينفع فيها غير الصبر، ولا يخفف من لوعتها إلا الإيمان بقضائك وقدرك، فاسبغ على الأم جميل صبرك، وعلى الأهل حسن عزائك. أما هؤلاء الإخوة المفجوعون بالشقيقين الكبيرين، فما أجدرهم في مثل هذا الموقف أن يرددوا قول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي   على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن   أعزي النفس عنه بالتأسي

١٩٣٥/٩/٢٢

هوامش

■ **يبرود**: بلدة سورية تقع عند نهاية سلسلة جبال لبنان الشرقية، وفي منتصف الطريق بين دمشق وحمص.

■ **انطاكية**: مدينة في لواء اسكندرونة، تقع على نهر العاصي في منخفض العمق. من المدن الكبرى في العالم القديم، ومقرّ البطاركة المسيحيين في القرون الأولى. خرّبها الفرس سنة ٥٤٠م، واحتلّها العرب سنة ٦٣٦م، والصليبيون سنة ١٠٩٨، فيها آثار رومانية وبيزنطية.

■ **الزبداني**: مصيف سوري على نهر بردى، ومركز قضاء في محافظة دمشق.

■ **دوما**: بلدة سورية الى الشمال من دمشق، ومركز قضاء في محافظة دمشق.

■ **جيرود**: إحدى قرى ريف دمشق.

■ **الخنساء، تُماضر بنت عمرو الملقبة بالخنساء (ت نحو ٦٤٥ م)**: شاعرة جاهلية. فقدت أخويها معاوية وصخراً فرثتهما، ثم فقدت أولادها الأربعة في معركة القادسية فرثتهم. لها ديوان شعر.

٤٨

إحسان الجابري
عدو الطائفية؟!

ما رأيت رجلاً رسمياً أو شخصاً سياسياً أو موظفاً كبيـراً، حورب في أكثر صحف الفرنسويين واليسوعيين، وفي الدوائر الإفـرنسية بقـدر ما حورب إحسان الجابري في خلال توليه محـافظة الـلاذقية، ولكني مـا رأيت مثـلاً أو قـولاً انطبق في حقيقتـه وفي وقـوعـه وفي نتيجتـه السريعة على إحسان الجابري وعلى أعماله، أكثر من هذا القول: «إن للباطل جولة ثم يضمحل». فلم يكد الرجل يعلن استقالته من منصب المحافظة حتى غشيت جميع هذه الدوائر وكل هاتيك الصحف همدة صامتة، هي همدة الخجل وصمتـة الخزي لأن جميـع ما قـالوه عن إحسان الجابري وكل ما اتهموه به إنما كان افتراءً واختلاقاً، فـإذا بالباطـل هذه المـرة لا يدوم تضليلـه على النـاس طويـلاً، بل كـانت هزيمته أسرع هزيمة أصيب بها أصحاب الباطل ودعاة التضليل!!

وإذا ذكر أهل محـافظة الـلاذقية من علـويين ومسيحيـين وسنيين، متصرفي العهد التركي، وحكام الاحتلال الإفـرنسي، ومندوبي الحكم المباشر، وموظفي الانتداب، ثم «خلفاء» المعاهدة أخيراً... وذكروا إلى جـانب هؤلاء كلهم إحسان الجـابري وعهـده، لوقفـوا أمام حقيقـة واحـدة تهيمن على كـل ذمة وكـل ضمير ويؤمن بهـا سكـان المـدن وفلاحو القرى على السواء، وهي أن إحسان الجابري كان أول رجل

حمل إلى هذه المنطقة إخلاص الوطني السوري، وطموح المنشىء العربي، وتسامح المسلم القوي والمؤمن الحقيقي. بل كان إلى جانب ذلك مثال السياسي المتحمل المتجلد، لا تستثيره حادثة، ولا يستفزه ألم ولا تدنو من نفسه نعرة طائفية مهما كانت ظروفها وأسبابها، لأنه رجل لا يعرف الحقد والكره إلى نفسه سبيلاً. وإذا كان شعار الحكام ورجال السياسة وحتى الزعماء أحياناً، قاعدة «فرّق تسد»، فقد كان شعار إحسان الجابري دائماً وسيظل أبداً: «اجمع ولا تفرق، واعط ولا تبخل، واصفح ولا تنتقم». وأخشى أن تكون هذه الصفات في مثل محيط اللاذقية، هي التي جعلته عدواً للذين لم يعرفوا شعاراً لهم إلا تفرقة الشعب الواحد إلى طوائف، وتمزيق الوطن الواحد إلى أقاليم ومناطق، بل تفريق الطائفة الواحدة إلى عشائر وأفخاذ وبيوت!

لقد هاجموا إحسان الجابري في صحف اليسوعيين من إفرنسية وعربية، فاتهموه بأنه يتجاهل حقوق العلويين! ولكن ليسألوا العلويين هل عرفوا عهداً أجدى عليهم بالخير والمحبة والاحترام والكرم والسخاء أكثر من عهد إحسان الجابري؟ وهل ينكرون بأن مجموع من عيّن منهم في وظائف الحكومة في خلال سنة واحدة هو أكثر من مجموع ما عيّن منهم في خلال عشرين سنة من سني الاحتلال والانتداب؟! وليسألوا السنّيين كيف كان يحضهم على التضحية وكيف كان ينتزع منهم الوظائف والحقوق بنبله ووطنيته وتسامحه، بل كيف كان يحملهم على القناعة والرضاء بعدم طلب أية وظيفة ليبرهنوا على أنهم إنما كانوا يطلبون الوحدة لأجل الوطن لا لأجل الوظائف. ولكن السياسة التي لا تخجل من شيء، والتي لم تحكم منطقة اللاذقية ولم تسد فيها إلا على أساس الطائفية، قد حاربت إحسان الجابري بكل ما استطاعت من قوة ودسائس لأنه حارب الطائفية وعاداها وهدمها. وإذا تلاشت الطائفية من هذه المحافظة فبأية وسيلة يحكم الفرنسويون غيرها؟ وكيف يستطيعون أن يظلوا مرجع الناس إذا أصبح هؤلاء الناس أمة لا طوائف، وسوريين لا علويين أو سنيين أو مسيحيين؟!

إن ذنب إحسان الجابري في نظر بعض الفرنسويين أنه كان عدواً للطائفية، كان يحاربها بإخلاص وعقيدة لأنه يعرف أنها علة شقاء هذه البلاد ونكبتها، ولكن إذا نجحوا في محاربة إحسان الجابري،

وأثاروا عليه عصابات الأشقياء، وشجعوا زعماءها، واستعرضوا جيشها المسلح في حفلات الاستقبال - فهل يستطيعون أن يحاربوا المبادىء السامية التي تركها في منطقة اللاذقية؟ وهل يستطيعون أن ينتزعوا من نفوس الناس ما غرسه فيها من تسامح ومحبة وإخلاص للوطن كله لا لمنطقة أو محافظة؟!

لقد أثاروا عليه فريقاً من العلويين المسلحين، فقطعوا الطرق، وعبثوا بالأمن، وجمعوا ضده كل أنصارهم من الزعماء، ولكن سيذكر العلويون وخصوصاً الذين حاربوه منهم وتآمروا عليه مع الأجنبي، سيذكرون قريباً بأنه كان للعلويين أكثر ممّا كان للسنيين بكثير، لأنه كان لمدارسهم ومصالحهم وثقافتهم وتوظيفهم، ولكن سياسة الزعامات والإقطاع لا ترضى عن هذه السياسة لأنها تريد أن يظل العلويون كما وضعتهم أيديهم، وكما باركتهم يد السياسة الاستعمارية من فوقها: إما تابعون بلا إرادة لزعيم، وإما «مؤمنون» بلا مناقشة لرب!.. وهذا وحده هو الذي عصف بإحسان الجابري، فإذا به ضحية لسياسة يرفع بها رأسه ويفاخر بها الناس أجمعين.

وإذ كان غاندي ذهب في الهند ضحية لتحرير المنبوذين ومحاربة الطائفية، فلا بأس أن يذهب إحسان الجابري ضحية إخلاصه للعلويين الذين حاول أن يحررهم من ثلاثة أنيار: نير الانتداب ونير الزعماء ونير الجهل.

١٩٣٩/٢/٢٧

هوامش

■ **إحسان بن عبد القادر الجابري**: سياسي سوري، ولد في حلب سنة ١٨٧٨، وتعلّم في مدارسها، ثم درس الحقوق في الآستانة. مارس المحاماة في الآستانة، ثم التحق بنظارة الضبطية، فأصبح سكرتيراً للسلطان. تعاون مع العهد الفيصلي. فانتخب عضواً في مجلس الشورى، وشارك في إعلان استقلال سورية. غادر سورية بعد دخول الفرنسيين سنة ١٩٢٠، وشارك في المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف. نائب عن حلب بعد وفاة شقيقه سعد الله الجابري، ورئيس لجنة الشؤون الخارجية في المجلس، ثم رئيس التجمع القومي.

رضا الركابي
الرجل الذي أسس دولة

قد يكون مصدر عظمة الرجال في هذه الدنيا عملاً فذاً يعملونه أو صفة خارقة يتصفون بها فيستحقون من أجلها أن يُعدوا بين العظماء. أما الرجل الذي مات أمس فقد كانت مصادر عظمته متعددة،بل كانت النواحي الفذة في هذه العظمة كثيرة لم توهب لرجل غيره في البلاد العربية كلها.

لقد اشتهر رجال في سورية بكفاءتهم مثلاً أو إخلاصهم أو رجولتهم، ولكن رضا باشا الركابي قد عرف معرفة حقيقية بهذه الصفات كلها، تحيط بها هالة من النزاهة كانت هي وحدها التي ترد عنه مطاعن خصومه مهما كانوا أقوياء، ومهما كانت أسباب هذه المطاعن قوية عندهم. فإذا ذُكر عظماء الأمة العربية في تاريخ نهضتها فإن الركابي يحتل الصف الأول بل يحتل المقام الممتاز في هذا الصف.

لم يظلم القدر سورية يوم جاء بالركابي حاكماً عليها، يحكمها من شاطئ العقبة إلى أبواب انطاكية. ولم تتغلب شهوة النفس على المغفور له الملك فيصل حينما دعاه إلى تأليف أول وزارة دستورية بعد إعلان الاستقلال وتنظيم الدولة السورية، بل ان عظمة الركابي التي فرضها على الملك وعلى كل من يعمل مع الملك من رجال أتت به إلى منصب الرئيس المسؤول في الدولة، فلقد كان في البلاد يومئذ

رجال هم أحب إلى الملك فيصل من الركـابي وأطوع إليـه منه، ولكن مصلحة الأمة كانت في نظر الملك فوق الصداقة وفوق المحبة.

واليوم يموت الركابي، فتمـوت معه ذكـريات ضخمـة من ملك ووطن وتاريخ وحكم.. تموت معه ذكرى الحاكم العسكـري الجبار وذكـرى الرئيس الدستوري الفذ، بـل تموت معـه الخصومـات والأحقاد التي كانت بينه وبين الرجال، وتظل ذكرى واحدة تضفي بهاءها وروعتهـا على بيت الركابي وأبناء الركابي وأحفاده هي ذكرى الـرجل الشريف النزيه العبقري.

يقولون إن الموت ينسي سيئات الموتى، وإن الكاتب الـذي يكتب عنهم لا يجوز له إلا ذكر حسناتهم وحـدها، ولكني أريـد أن أسأل هؤلاء: ما هي سيئات الركابي في حياته؟

إنهم يعرفونها، ويذكرونها همساً بل إنهم تحدثوا بها أمس وهم وراء نعشه. قالوا إن الرجل ما كان يقيم وزناً للصداقة، وإنه كان بطـاشاً قاسياً.

هذا كل ما يذكرونه من سيئات الركابي! ونحن نشهد بأن الرجـل ما كان يقيم وزناً للصداقات حتى ولا للقرابات أيضاً، إذا كانت مصلحة الدولة تقضي بتضحية الصديق والقـريب. فلقد كـان قاسيـاً فعلاً في هذا كله، لا يرحم أحداً إذا خان واجبه، بل كان جباراً على لصـوص الوظائف وتجار السياسة، يطاردهم أينما وجدوا، ويقصيهم عن كـل عمل من أعمال الدولة. وهذه «السيئات» في الحقيقـة هي من أسباب عظمتـه ومن مصادر فخـره. ولكن هل انتفـع هـذا الجبـار القـاسي بسلطته ونفوذه يـوم كان مطلق السلطـة والنفوذ يتمتـع بثقة الملـك والإنكليز في عهد الاحتلال، ثم بثقة الملك والبرلمان في عهد الاستقـلال يوم كانت الملايين تنفق من يده وبأمره والمناصب تُخلى وتملأ بإرادته ورأيه؟

لقد بلغ الركابي أرفع درجة عسكـرية في الجيش، فـوصل إلى رتبـة فـريق، وكان لـه بيت في دمشق يعـدّ أفخم بيت في العـاصمـة منـذ خمسين سنة، وكانت له مزرعة في دوما أيضاً، ولكنـه حينما اشتغـل في السياسة، وبلغ أعلى درجات الحكم والسلطان، وسيطر على أموال الدولة ومقدراتها في سورية وشرق الأردن، عاد إلى دمشق، فباع بيته

ومـزرعته وعـاش بثمنهما، حتى إذا مـات شيعت جنـازتـه من بيت متواضع من بيوت الإيجار.

هذا هو الرجل الذي أسس دولة وأعلن استقلالاً، وتوج ملكاً، وحكم بلاداً، وترأس حكومات، وبلغ رتبة فريق في الجيش، يموت بـلا بيت ولا مزرعة ولا مال! ولكن الركـابي هو الـذي اختار مصـيره بنفسه، وكتب تاريخه بيده.

أجـل! لقد خـيِّر الركـابي بين الثـروة والشرف، فاختـار مـا يختـاره الأبطال في كل عصر، وفي كل بلد. وها هو يـذهب إلى قبره بكـل ما في نفسه من كبرياء النزاهة وعظمة السمعة يردد الذين عرفوه في حياته قول شوقي:

خـيِّرت فـاختـرت المبيت على الطـوى — لـم تبْـن جـاهـاً أو تلـمَّ ثـراء
إن البطـولة أن تمـوت من الظما — ليس البطـولـة أن تـعبَّ المـاء

١٩٤٢/٥/٢٨

هوامش

■ **علي رضا بن محمود الركابي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٢)**: عسكري وسياسي سوري، ولد في دمشق، وتعلّم في مدارسها، ثم في المدرسة الحربية بالآستانة، فتخرج ضابطاً، وتقلّب في عدة مناصب عسكرية. انتمى الى بعض الجمعيات السرّية في العهد العثماني، وبعد دخول الجيش العربي دمشق سنة ١٩١٨ عُيّن حاكماً عسكرياً، ثم رئيساً للوزارة، ثم استقال. بعد الاحتلال الفرنسي، قصد شرق الأردن، فتولى رئاسة الحكومة هناك مرتين. عاد أخيراً إلى دمشق، وتوفّي فيها.

٥٠

فائز الياس نشأ معتدلا وانتهى متطرفا!

في مساء يوم من أيام ١٩٢٤، أطلق الرصاص على زعيم مصر الخالد سعد زغلول في محطة القاهرة وهو في طريقه إلى انكلترا ليفاوض الحكومة البريطانية في عقد معاهدة مع مصر، فارتجّت البلاد من أقصاها إلى أقصاها قلقاً على حياة الرئيس الغالية، وقد كان يومئذ أمل الوطن المرجّى وسيده المطاع.

وفي صباح ذلك اليوم توفي كاتب مصر الأشهر المنفلوطي صاحب «النظرات»،الذي غذّى مصر وبلاد العرب بأسلوبه المبتكر طوال عشرين سنة، فنشرت الصحف خبر وفاته في بضعة سطور موجزة، إلى جانب ما نشرته من الصفحات الطوال عن جرح الرئيس، ونبأ صحته وتفاصيل الحادث وألوف البرقيات وعشرات المقالات التي طغت في تلك الصحف على كل خبر وعلى أبرز حادث. ولما شيعت جنازة المنفلوطي لم يوجد من يمشي فيها سوى أهله وبعض جيرانه لأن مصر في ذلك اليوم كانت مشغولة عن كاتبها وأديبها بجرح رئيسها وزعيمها. وقد صور شوقي في رثائه للمنفلوطي هذا المظهر المتباين فقال مخاطباً الأديب الميت:

اخترت يوم الهول يوم وداع ... ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد ... قدماً تشيع أو حفاوة ساعي

والآن يموت فائز الياس في اليوم الذي جرح فيه الوطن بوحدته واستقلاله ودستوره ورئيسه، وتشيع جنازته في الساعات التي كانت تتساقط فيها معالم السيادة الوطنية واحداً بعد واحد تحت ضغط السياسة وإملاء القوة، وقضاء شهوتها في تفكيك عرى هذه البلاد والعودة بها إلى أيام الانتداب الرهيبة، وعهود التجزئة القاسية والحكم المباشر البغيض، ولكن هذا الوطن الذي نزلت به الكوارث، لم يشيع فائز الياس كما شيعت مصر المنفلوطي، بل شيعه بدموعه وحزنه ومشى في جنازته بروحه ممسكاً بكلتا يديه جراحه النازفة وآلامه الموجعة، لأن موت فائز الياس في حد ذاته إنما هو إحدى كوارثه وفواجعه.

لقد نكب الوطن في سيادته ووحدته ودستوره وحكمه الوطني دفعة واحدة، وفي أسبوع واحد، ولكن الرجال الذين وقفوا أنفسهم على استرداد السيادة المغتصبة والوحدة الممزقة، والدستور المؤوود، يعرفون كيف يستردون هذه الأسلاب كلها لوطنهم إذا قدرت لهم الحياة والصحة. ولكن الكارثة تكون أفجع حينما يفقد هذا الوطن من رجاله أمثال فائز الياس وهو في ريعان شبابه ونضارة صباه، وقوة إيمانه وقناعته بوحدة بلاده واستقلالها، والعمل في هذا السبيل مهما نزل به من إرهاق واضطهاد وتنكيل، لأنه وطّد نفسه على استقبالها وتحملها كلها بابتسامته العذبة، وإبائه الشامخ، وعزة نفسه القوية، لا بل بكبريائه الوطني أيضاً الذي كان يحتقر به كل عبيد القوة وعمال الأجنبي في تلك البقعة الجميلة من بلاده ووطنه.

إن اللاذقية تعود إلى سورية لأنها ستناضل في سبيل هذه العودة كما ناضلت من قبل عشرين سنة كاملة، ولكن فائز الياس لن يعود معها، فقد حطم القدر القاسي هذا الشباب، وقضى على هذه الرجولة، وأخفت ذلك الصوت الذي كان يدوِّي في أنحاء البلاد من على شاطىء اللاذقية إلى جوانب دمشق وبادية الفرات، ينادي باسم الأقليات المسيحية بلا خوف ولا حذر، بوحدة سورية واستقلالها: وحدة في الأرض وفي الشعب وفي القومية.

لقد أريقت على تاريخ الجهاد الوطني في سورية أسطورة من أساطير المستعمرين وتقاليدهم العتيقة، وهي أن الموارنة في هذه البلاد يلبسون دائماً كل ما تفصله لهم فرنسا، ولكن فائز الياس استطاع

أن يقضي على هذه الأسطورة لأنه رفض لبس ثـوب التجزئـة، وتمرد على تقاليـد الحمايـة، وأعلن من فوق منبـر البرلـان وفي قلب دمشق وبـاسم الأقليات التي انتخب نـائباً عنها، أن أعظم خدمـة تؤديهـا فرنسا للأقليات هي أن تتركهم وشأنهم يعيشـون في هذا الـوطن مع الأكثرية عيشة الاستقلال والكرامة والسيادة.

لم يكن فائز الياس عريقاً في السياسة بل هو لم يشتغل بهـا إلا منذ ثلاث سنين، لأنه قضى المرحلـة الأولى من شبابـه في الدراسـة والمحامـاة، حتى إذا نبغ فيها وأصبح علماً من أعلامها، لما وهبه الله من الكرامة والنزاهة والإحترام، وأقبلت عليه بكل ما فيها من خير وبـركة؛ انضم إلى الكتلة الوطنية في اللاذقيـة وانتخب أميناً عـاماً لمكتبهـا، فتجلّت مـواهبه وأخـلاقه للنـاس، فأحبـوه واحترموه، ثم انتخب نائبـاً عن اللاذقية حيث أدى رسالته الوطنية بكل أمانة وإخلاص، فكان يعطي من محاماته لنيابته ولا يأخـذ من نفوذ الثـانية لـلأولى، بل ان فـائز الياس قد يكون في مقدمة النواب الذين خسروا في النيابة أضعاف ما ربحوه منها.

لم يبدأ فائز الياس حياته السياسية وطنياً متطرفاً، بل نشـأ معتدلاً، وانتهى متطرفاً بعد ما شهده من أساليب السياسة الفرنسية في ذلك الجزء من الوطن الذي كان نائباً عنه، وقد عوّدنا رجال السياسة أن يبدأوا متطرفين ثم ينتهون معتدلين!

هذه هي كوارث الوطن في شهر واحـد، وهذا فـائز اليـاس في موتـه اليوم إحدى هذه الكوارث وأفجعها، فإذا بكـاه كل مخلص في هـذه البلاد، فإنما يبكي رجلاً مات، وهيهات أن يعوض.

إن المحامين كثـيرون في اللاذقيـة وفي سوريـة، والخطباء غـير قليلين فيهـا أيضاً، ولكن الـذين يكون فـائز اليـاس إنما يكـون المحامي الشريف والخطيب الوطني والنائب الشجاع.

ولا سبيل إلى تعزية المفجوعين بفائز، فلا أقل من أن يبكوا عليه لأن الدمع أرخص ما يبذل عـلى فقيد مثلـه. بل قـد يكون البكـاء في حد ذاته هو العزاء الوحيـد، وهو الـرحمة التي يـرسلها اللـه إلى قلوب المفجوعين من عباده.

أيها الصديق الوفي:

ما أقصر أيامك في الحياة والشباب؛ وما أسرع خطاك في الرحيل عن هذه الدنيا الذليلة التي تفتخر بها وحدك ويفتخر أبناؤك بك من بعدك، بأنك لقيت فيها رمسك ولم تحن رأسك، فعجلت بالخروج منها عزيزاً كريماً حتى قتلت بيديك نفسك! فما أشبهك في حياتك وشبابك ومصيرك وموتك بقول شاعر الشباب القتيل طرفة:

إذا كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

١٩٣٩/٧/١١

هوامش

■ **فائز الياس**: محامٍ وسياسيّ سوريّ من مدينة بانياس على الساحل السوري (محافظة اللاذقية). عضو بارز في الكتلة الوطنية، ونائب عن اللاذقية في أول انتخابات وطنية جرت بعد توقيع المعاهدة سنة ١٩٣٦.

■ **مصطفى لطفي المنفلوطي** (١٨٧٦ ـ ١٩٢٤): كاتب مصري، ولد في منفلوط ودرس في الأزهر، فتتلمذ لمحمد عبده. من مؤلفاته «النظرات» و«العبرات».

٥١

أمين رويحة
الى متى يظل
في السجن؟!

كنا طالبنا الحلفاء، وبالأخص الدولة البريطانية التي يرتبط معها العرب في أعمالهم، ومصالحهم، بالإفراج عن رجالنا الذين ما زالوا يعانون مرارة السجن في سجونها ومنافيها، وذكرنا فيما ذكرنا: الدكتور أمين رويحة، الذي مضى على سجنه في روديسيا بأفريقيا الجنوبية ما ينوف على الخمس سنوات، بلغت فيها حالته الصحية منتهاها السيىء، حتى بتنا نخشى معها على حياة هذا الرجل، لكثرة ما يصلنا عنها من أنباء مؤلمة ومحزنة.

إننا لا نريد أن يعتبر أمين رويحة من مجرمي الحرب الذين أفرج عنهم، ولا من سياسيي الأعداء الخطيرين الذين تسومح معهم، بل نريد أن يعتبر وطنياً له عقيدته وسياسته.

أما أن يترك في سجنه ومنفاه بعيداً عن أهله وعن إخوانه، ويجعله فريسة المرض، يأكل صحته ويقضي على شبابه، فهذا ما يأباه العدل البريطاني، وهذا ما يأباه الضمير الإنساني الذي ترعاه بريطانيا العظمى بقوتها وعظمتها.

إن إخوان أمين رويحة في سورية وبلاد العرب لم يعودوا يطيقون الصبر على سجن رفيقهم في ساحات الوطنية والجهاد، خصوصاً

بعد ما رأوا الحلفاء وفي مقدمتهم الدولة البريطانية تتسامح مع كبار مجرمي الأعداء الذين دمروا بلادها، وقضوا على نخبة طيبة من شبابها، وقتلوا الآمنين من أبنائها، وبالرغم من أن «جريمة!» أمين رويحة لا يجوز أن نقيسها بجريمة مجرمي الأعداء الخطيرين ـ هذا إذا كانت هنالك جريمة.. ـ فإننا نقبل أن نقول عنه إنه مجرم سياسي بشرط أن يعامل معاملة الذين أفرج عنهم من المخبرين السياسيين، أما أن يترك مسجوناً في منفاه يقاسي آلام المرض المبرحة فهذا ما نعدّه متنافياً مع العدل.

إن قضية أمين رويحة أمام حلين لا ثالث لهما. فإما أن يكون مجرماً فيحال إلى القضاء، وإما أن يكون بريئاً فيفرج عنه، أما أن يترك في السجن من دون سؤال أو إفراج فهذا ما نعدّه منتهى الظلم والقسوة،لأن الدولة البريطانية تظهر دائماً في معاملتها من التسامح ما يشهد لها به أعداؤها قبل أصدقائها.

١٩٤٥/١١/٢١

هوامش

■ **أمين بن محمود رويحه**: ولد في دمشق سنة ١٩٠١، وتعلّم في مدارسها، ثم درس الطب في جامعات ألمانيا، وتخصّص في الجراحة من جامعة ميونيخ. مارس الطب في مصر والحجاز والعراق، وعاد إلى سورية، فعُيِّن رئيساً لأطباء المستشفى العسكري بدمشق. اتّهم بالتجسّس في الحرب العالمية الثانية، فاعتقله الحلفاء في روديسيا (أفريقيا). اتّهم بمحاولة اغتيال العقيد أديب الشيشكلي، فاعتقل وحوكم ثم أُخلي سبيله في أيار ١٩٥١. له عدة مؤلّفات طبّية.

روزفلت أعظم رجل في أعظم حرب

في اللحظة التي كان مذيع محطة لندن ينعىَ بها إلى العالم في صباح الجمعة الباكر موت عظيم من أكابر عظماء الدنيا، ويعلن وفاة رجل لم تفجع به بلاده وأمته ووطنه فحسب، بل فجعت به بلاد الديمقراطية وشعوبها ودولها في العالم كله. في تلك اللحظة الخاطفة الرهيبة، وقبل أن يلفظ الناعي بها باسم الرئيس روزفلت كاملاً، وبعد أن لفظه، ذكرت مهيار الديلمي حينما رثى الشريف الرضي في صورة من أروع صور الشعر، وفي مقدمة تشبه هذه المقدمة التي سمعناها من مذيع لندن، فقد قال مهيار في مقدمته التي مهد بها للنعي:

يا ناشد الحسنات طوف قالباً	عنها وعاد كأنه لم ينشد
اهبط إلى مضر وسل حمراءها	من صاح بالبطحاء يا نار اخمدي
بكر النعي فقال أردي خيرهم	ان كان يصدق فالشريف هو الردي

ذكرت هذا الموقف الرائع في نعي الشريف الرضي، وقابلت بينه وبين مقدمة نعي لندن للرئيس روزفلت، ثم سمعت رثاء المحطة فإذا به قطعة من أبلغ قطع الأدب، وصورة من أجمل صور البيان. وهل يستغني الخطيب أو الكاتب في مثل هذه المواقف عن الأدب والبيان؟ وهل الرثاء في حدّ ذاته، نثراً كان أم شعراً، إلا من روح الأدب في

مختلف اللغات؟ وهل هـذه البرقيـات التي بعث بهـا ملـوك العـالم ورؤساء الدول في تعزية أميركا برئيسها الراحل، إلا مقـاطع ممتـازة من الأدب العالي؟

إن الذين يعزون أو يرثون رجالاً مثل الرئيس روزفلت، لا يستغنون في تعازيهم ومراثيهم عن الأدب وأسلوبه، ولا عن البيـان وسحره، ولكن هيهـات أن يتاح لنـا أن نكتب عن هذا الـرجـل الـذي مـات أمس، بالأسلوب الذي نريده أو بالبيان الذي نتمناه، ولكن الذي نستطيـع أن نقوله، هو أننا نكتب عنه بحزن وعاطفة لا بمجـاملة سيـاسية ولا بتقليد دبلوماسي، لأننا نشعر بأن بلادنا فجعت بوفاة الرئيس روزفلت الذي كان له في هذا الاستقلال الذي نلناه أثر بارز ويد بيضاء.

لقد مات أمس في الدنيا رجل واحد، فشغـل موتـه كل من عـلى ظهر الأرض، وذكره الأصدقاء والأعداء، وتحدث عنه الرجال والنسـاء في سـورية، حتى الأطفـال الـذين كـانت تـوزع عليهم صـور الـرئيس روزفلت والتي كـانوا يلعبـون بها، ذكـروه وحزنـوا عليه لأن وجهـه الجميل وابتسامته الحلوة ونظراته الوديعة، كانت تحبب صورتـه إلى هؤلاء الأطفال.

لقد مات الرئيس الأميركي أمس! عفواً: بل لقـد مات أعظم رجـل في أعظم أمـة في أعظم حرب. مـات بعد أن عبـأ كل مـا في الـولايـات المتحدة من رجال ونساء وحديد ونار في سبيل قهر دول المحور. ولقد ظل حياً يقود جيوشه إلى النصر بروحـه وعزيمتـه حتى بلغه، ولكنـه كما قال المارشال ستالين: إنـه رأى النصر ولكنه لم يبتهـج بـه. ولكن هل ذاق الرئيس وهـو يجود بنفسـه غصة المـوت مريـرة؟ إنه مـات باسماً فرحاً، مات عن أمة، وعن دولة تدق جيوشها الظـافرة البـاسلة أبواب برلين، ولا يفصل بينها وبين العـاصمة الألمـانية إلا أربعـون ميلاً.

لقد أعلن الحرب فأنقذ أوروبا من الكارثة، وها هو يموت وقد تحررت كلها من حكم الطغيان.

قد يذكر رجال الدول الكبرى وقادة الأمم العظمى مساعدة أميركا في ظـل الرئيس الـراحل لهـذه الدول، ولكن الأمم الصغـيرة تذكـر لـه بـإجلال واحتـرام وبكثير من معـرفة الجميل، أنـه صـاحب بـراءة

الأطلسي التي ألغى فيها تحكم الأقـويـاء بـالضعفـاء، والتي نـالت سورية بفضلها استقلالها وحريتها، ودعيت في عهد رئاسته السعيدة إلى أعظم مؤتمر عالمي تجتمع فيه الدول المستقلة على قدم المساواة.

سـيراق كثير من المـداد في رثاء الـرئيس روزفلت، وستملأ صفحـات الجرائد والمجلات في القارات الثلاث بذكر مناقبه وأخلاقه وصفاتـه، ولكن بلاداً صغيرة لا تتجاوز الثلاثة ملايين نسمة، وصحفاً هزيلة لا تزيد حجـومها عن حجم اعـلانات السينمـا في أميركـا، إن سوريـة وصحفها تنحني كلها أمام موت الرئيس روزفلت معترفـة بالجميـل، يخيم الحزن على وجوهها ويملأ الأسى نفوسها.

ستكتب كل أمة وكل صحيفة في الدنيا عن فقيد العالم أمس بالنسبة إلى ما أداه إليها وإلى بلادها من خير وسلم، أو ما جلبـه عليها وعـلى بلادها من شرّ وحرب، ولكن سورية ستظل أمينة على ذكـر الأميركي العظيم الذي نظر إليها نظرة أمة تستحق الحرية وتليق بالاستقلال.

١٩٤٥/٤/١٥

هوامش

■ **فرانكلين روزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥)**: رئيس الـولايات المتحـدة من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٥.

■ **مهيار الديلمي (ت ١٠٣٧ م)**: شاعر عباسي من أهل بغداد، وتلميذ الشريف الـرضي. له ديوان شعر.

■ **محمد بن الحسين الملقب بالشريف الرضيّ (٩٧٠ ـ ١٠١٦ م)**: شـاعر عبـاسي، ولد وتوفي ببغداد. نقيب الأشراف الطالبيين. له ديوان شعر تغلب عليه العـذوبة والنفحـة البدوية على شيء من قوة وجزالة، وأشهر ما فيه «الحجازيات». جمع «نهـج البلاغـة» للإمام عليّ.

■ **دول المحور**: هي ألمانيا وإيطاليا واليابان.

■ **جوزيف ستالين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣)**: سياسي روسي من رجال الثورة. أمين عام الحزب الشيـوعي سنة ١٩٢٢، وخليفـة لينين في زعـامة الحـزب والدولـة سنة ١٩٢٤ وحتى وفاته. أبعد تروتسكي سنة ١٩٢٧، وقضى على منـاوئيه في الحـزب والجيش. من قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. أطلق الحـرب الباردة ضـد الدولـة الرأسمـالية في مطلع الخمسينات. دانه مؤتمر الحزب سنة ١٩٥٦.

■ **بـراءة الأطلسي**: أو ميثـاق الأطلسي. تصريـح مشتـرك صـدر في ١٤ آب /أغسطس ١٩٤١ عن كلّ من فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة وونستـون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا بعد اجتماع عقداه في نيوفاوندلاند أو الأرض الجـديدة، وهي جـزيرة كندية في المحيط الأطلسي.

الملك فيصل الثاني
هل يحقق اسم
فيصل الأول؟

استقبلت دمشق منذ عشرين سنة رجلاً واحداً، كان أعظم استقبال عرفته في حياتها، ذلك هو فيصل الأول ملكها العظيم وسيدها المحبوب يوم دخلها فاتحاً من الصحراء.

واليوم وبعد عشرين سنة أيضاً، تستقبل دمشق طفلاً واحداً يعد حتماً أروع استقبال شهده الأحياء فيها، ذلك الطفل هو فيصل الثاني مليك العراق وأمل سورية المرتجى وحفيد الرجل الذي حلم بتأسيس دولة عربية واحدة للعرب جميعهم، وظل يغذي هذا الحلم في نفسه وفي نفوس النخبة المختارة من أبناء القضية العربية حتى لقي وجه ربه.

ويظهر أن ذلك الحلم الفيصلي الضخم لم يكن مجرد عقيدة في نفس فيصل الأول، بل كان حقيقة واقعة حتى في نفوس بعض الدول الأوروبية، فقد كتبت جريدة «الطان» الإفرنسية يوم وفاته تقول: «لو أن هذا الرجل بقي حياً خمس سنوات أخرى لما استطاع الانتداب الإفرنسي أن يعيش على حدود العراق أبداً».

ولعل هذه الجموع السورية التي تظللها الراية العربية الأولى ذات النجمتين الاثنتين، نجمة الشام ونجمة العراق ـ لعل هذه الجموع الزاخرة المحتشدة من على أبواب الضمير إلى روابي ميسلون،

تجتمع اليوم في موكب الطفل الذي ورث عرش فيصل، لتهيب به أن يرث حلمه أيضاً.

فهل يفهم رجال السياسة الأجنبية الذين استكثروا على سورية أن تكون اللاذقية وجبل الدروز والجزيرة أجزاء منها؛ ان سورية نفسها تستصغر أن تؤلف دولة شبه دولة من هذه البلدان التي بقيت لها، بعد أن وهبت فرنسا ما وهبته لتركيا، واحتفظت لنفسها ولحكمها المباشر بما احتفظت به في تلك المحافظات ـ هل يفهم رجال السياسة أن كل ما تعبوا به من أوضاع وتدابير وانفصالات وحدود، ينهار في سرعة البرق أمام موكب طفل هاشمي صغير يحمل اسم فيصل وحلم فيصل؟

لقد أصبح السوريون يعتقدون، ويؤمنون بما يعتقدون، بأن قضيتهم لن تنجح، وبلادهم لن تتحرر، إذا ظلت أساليبهم القديمة في السياسة عبارة عن معاهدة تطلب، ومحالفة تعقد، مع دولة لا تكاد تبرم العقد في الصباح حتى تنقضه في المساء، فهم اليوم يطلبون ويريدون ويقررون أن تحل قضيتهم ضمن نطاق عربي واسع تكون الدول العربية فيه طرفاً واحداً وفرنسا طرفاً آخر، ولذلك تراهم يتوجهون نحو العراق ويتساءلون بقناعة وقوة: لماذا لا يكون العراق هو «بروسيا» العرب كما كانت بروسيا في الأمة الألمانية، بل لماذا لا يفرض العراق نفسه على العرب كما فرضت بروسيا نفسها على ألمانيا كلها؟

وإذا حال الموت بين غليوم الأول ملك بروسيا وبين تحقيق حلمه بالوحدة الألمانية، كما حال أيضاً بين نجله فريدريك وبين حلم أبيه، فقد استطاع حفيده غليوم الثاني الذي حمل اسمه وحلمه أن يحقق وحدة ألمانيا.

وإذا كان هذا الموت حال بين فيصل الأول وبين تحقيق حلمه في الدولة العربية الكبرى، كما حال بكل لوعة وحزن بين نجله غازي وبين تحقيق حلم أبيه، فقد أورثه فيصل الثاني حفيده.

وها نحن في هذه الساعة أمام حفيد يرث حلم الجد ورجولة الأب، وكل ما خلفه الحسين من ميراث بني هاشم، في الحجاز والشام

والعراق، وها هي سورية تحتشد رجالًا ونساءً وأطفالًا من الصحراء إلى البحر، لتغذي في نفس الهاشمي الصغير وتطبع في ذاكرة الطفل المفدى هذا الحلم وهذا الميراث.

١٩٣٩/٧/١٣

هوامش

■ **فيصـل الثاني هـو فيصل بن غـازي بن فيصل الهـاشمي (١٩٣٥ ـ ١٩٥٨)**: وليّ العهد، ثم ملك العراق سنة ١٩٥٣. قتل في ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨.

■ **الطـان Le temps أو الوقت**: صحيفـة سياسيـة فرنسيـة صدرت في بـاريس سنـة ١٨٦١، وتوقّفت تلقائياً سنة ١٩٤٢.

■ **الضَميْر**: موقع في سورية على مشارف البادية، والى الشرق من دمشق.

■ **غليـوم الأوّل Guillaume (١٧٩٧ ـ ١٨٨٨)**: ملك بـروسيا سنـة ١٨٦١، وأمبراطـور ألمانيا سنة ١٨٧١، اتخذ بسمارك وزيراً، وأنشأ جيشاً قـوياً. انتصر عـلى الدانمـارك سنـة ١٨٦٤، وعلى النمسـا سنة ١٨٦٦، وعـلى فرنسـا سنـة ١٨٧١ وانتـزع منهـا الألزاس واللورين، وحقق الوحدة الألمانية، فنـودي به أمبـراطوراً لألمـانيا في فـرساي سنة ١٨٧١.

■ **غليوم الثاني (١٨٥٩ ـ ١٩٤١)**: حفيـد غليوم الأول، وملـك بروسيـا، ثم أمبراطـور ألمانيا سنة ١٨٨٨ ـ ١٩١٨. أبعد بسمـارك وحكم بنفسه، ثم حـالف النمسا وتـركيا، ودخل الحرب العـالمية الأولى سنـة ١٩١٤. تنازل عن العـرش بعد هـزيمة ألمـانيا في الحرب العالمية الأولى.

٥٤

الملك فيصل الثاني
ابن غازي وحفيد
فيصل

في مثل هذا الشهر من عام ١٩٣٩ استقبلت دمشق الملك فيصل الثاني ملك العراق في طريقه إلى لبنان لقضاء فصل الصيف، واليوم تستقبله في طريقه إلى بريطانيا لدخول إحدى مدارسها لتعليمه وتثقيفه.

لقد استقبلت دمشق منذ ثماني سنوات فيصل الطفل الذاهب للاصطياف واللهو، وها هي تستقبل اليوم فيصل الشاب الذاهب إلى العلم والدرس، فما أشد الاختلاف بين الاستقبالين بعد تلك السنين التي مرت على هذه البلاد مملوءة بالأحداث والذكريات.

ففي الاستقبال الأول كان علم فرنسا يخفق على مخفر أبي الشامات رمزاً للاستعمار والذل، واليوم لا يخفق على هذا المخفر إلا علم سورية المستقلة رمزاً للسيادة والعز.

لقد خجلنا يومئذ حين استقبلت دمشق ابن غازي وحفيد فيصل في موكب كان قائده مندوب فرنسا، وكانت أعلامه وراياته وجنوده وحرسه من رايات العدو ومن جيش احتلاله، ولكننا اليوم نفخر إذ نستقبل سيد العراق وحفيد باني استقلاله ومشيد مملكته، في موكب كل حرسه وراياته وجنوده من صنع هذا الوطن ومن إنشائه ومن نعمة استقلاله. ونحن في ظل هذه المواكب وفي ملتقى تلك الذكريات

نذكر بكثير من الفخر والوفاء يـد فيصل الكبير، التي ألقت في تربـة الشـام منذ سبـع وعشرين سنة بـذور الاستقلال والسيـادة، فكانت غالية على أهل سورية لم يهملوها ويتجاهلوها بل تعهـدوها وسقـوها بدمائهم حتى أثمرت وأينعت، فكان استقبال اليوم ومواكبه ومهرجانه وابتساماته من تلك البـذور التي باركتهـا يد الجـدّ، حتى يشهدهـا الحفيد شاباً في طريق الرجولة إلى العلم وإلى الحكم وإلى العرش.

لئن رحبت بلاد الشام بملك العراق وصاحب عروشـه ووريث الحكم فيه،فإنما ترحب بالشعب العراقي الشقيق في شخص مليكه الشاب، وتـرى في وجهـه وفي طلعتـه وجـه العـراق الـذي كـان لـه في هـذا الاستقـلال الذي ننعم بـه في سوريـة أثر كبـير من العطف والعون، يفـرض علينا الـوفاء أن نسجلـه له في مهـرجان فيصـل الثاني ابن غازي الأول وحفيد فيصل الكبير بكثير من الشكر ومعـرفة الجميـل، فنحن لا نستقبـل ملـك بـلاد مجـاورة ولا رئيس دولـة حليفـة، بـل نستقبل قطعة ثمينة من تاريخنـا، ونرحب بـذكرى غـالية من مجـد ذكرياتنا، تتعانق من حـولها دمـاء زكية أريقت في صحـراء الحجاز وبوادي الشام وتحت نخيل العراق ليس في سبيـل استقلال سـورية أو العـراق أو الأردن فقط، بل في سبيـل بعث دولة عـربيـة أصيلـة تنتظم فيها الصحاري والبـوادي والأنهار والبحـار من عريش مصر إلى خليج البصرة.

بهـذه الروح وفي ظـل تلك الـذكريـات وأمام ذلـك التاريخ، تستقبل دمشق عـاصمـة فيصـل الأول؛ الملـك الحفيـد ووريث أعـرق بيت في العرب وأشرف أسرة في الإسلام، إنها تستقبل البضعة الطاهـرة من عترة الحسين بن علي بن هاشم، معترفة لأولئك الآباء والجدود بأنهم كانوا أصحاب الصرخة الداوية في بطحاء مكة، التي أهـابت بالعـرب إلى الثورة وإلى الشهادة وإلى الاستقلال.

لقد قضينا في الحجـاز وفي الشام وفي العـراق أيامـاً تؤلف في ذاتها تاريخنا المشترك وحاضرنا المتحد، ونـريد أن تكـون هي نفسها التي تؤلف مستقبلنا، حتى يلتقي مع ذلـك المـاضي الـذي نعتـز بـه رغم الحدود ورغم اختلاف الأسماء والألوان، لأننا دفعنا الثمن متكافئين في البذل والجود، فمن الـواجب أن ننال كلنـا من السيـادة والمنعـة والحرية الكاملة في أوطاننا ما يتكافأ مع ذلك الثمن.

لقد التقينا نحن والعراق في دمشق هذه منذ سبع وعشرين سنة في ظل استقلال وملك وراية حتى فرقتنا «ميسلون»، فذهب أبناء العراق يقاتلون المحتلين المغتصبين على ضفاف الفرات ودجلة، وخرج أبناء الشام إلى الغوطة وجبل الدروز وجبل الزاوية، يجعلون من تلك الروابي وبطون الأودية ساحات ومقابر لأعدائهم ولشهدائهم معاً، وها نحن اليوم نلتقي مرة ثانية على ميثاق الجامعة العربية، وفي موكب تخرج به دمشق لتستقبل حفيد ذلك البطل الذي جمع العراق والشام في مطلع تاريخنا في العاصمة التي تبتسم اليوم لهذا الحفيد العزيز. فإذا نحن والعراق في موكب اليوم نردد معاً قول شوقي:

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنّ بالعراق مريض لمس الشرق جنبه في عمانه

١٩٤٧/٧/٢٩

هوامش

■ **مخفر أبو الشامات**: هو مركز شبه حدوديّ، يقع عند مشارف البـادية الى الشرق من دمشق.

■ **جبل الزاوية**: كتلة جبلية في سوريـة شرقي الغاب، تعلـو ٩٣٥ م، وتشرف على وادي العاصي.

■ **ميثاق الجامعة العربية أو بروتوكول الاسكندرية**: اتفـاق تضامني عـربي، وثمرة اجتماع عقده في الاسكندرية مندوبو الدول العربية المستقلة وممثـل لعرب فلسطين. صـدر في بيـان أذيـع في ٧ تشرين الأول / اكتـوبـر ١٩٤٤، وعُـرف بـ «بـروتـوكـول الإسكندرية»، وهو ينصّ على إنشاء جامعة الدول العربية.

الملك فيصل الثاني
تحية الشام

تستقبل دمشق أصيل هذا اليوم الملك فيصل الثاني ملك العراق وحفيد فيصل الأول مؤسس استقلال العراق وابن غازي فارس العراق، ولكن استقبال اليوم وتحية اليوم، لن يكونا كاستقبالات الماضي ومهرجاناته، ذلك لأن حديث الحروب والفروسية والدم والشهادة هو الذي يطغى على المجاملات وعلى المهرجانات والاحتفالات، فدمشق وبلاد الشام كلها تحيي رمز العراق وسيده، بل هي تحيي في شخص هذا الملك العريق الشعب العراقي بأمجاده وبطولاته،وكل ما ضمه تاريخه من شجاعة ورجولة وجدّ. وهي إذ تلقي بهذه التحية منحنية أمام هذا الملك وهذا الرمز، تتساءل بكل صراحة وبساطة: أترى هل يُلقى عبء فلسطين وكارثة الدولة اليهودية وحفظ بلاد العرب من شرها، هل يلقى هذا كله على السوريين والعراقيين وحدهم، أم هو يلقى على هذين الشعبين في الدرجة الأولى؟ وهل يعيد التاريخ نفسه فيجمع بين السوريين والعراقيين في القضاء على الدولة اليهودية وتحرير فلسطين منها،كما جمع بينهما في تحرير البلاد العربية من النير التركي يوم قضى أن يمتزج دم الشام والعراق، في صحارى الحجاز، وعلى مقربة من الأردن والبحر الميت. ففي فلسطين أيضاً خسرت تركيا بلاد العرب حين خسرت الاحتفاظ بفلسطين.

أترى يعيد التاريخ نفسه مرة ثانية، فتجمع كارثة فلسطين بين السوريين والعراقيين في ظل اتحاد قومي وحكم عربي لدفع عدو مشترك؟.. وهل كان السوري والعراقي يفكران وهما يحاربان تحت راية المنقذ الأعظم الملك حسين، أن تكون لكليهما دولة أم أنهما كانا يفكران تفكيراً عربياً صحيحاً واحداً بأنهما يعملان ويحاربان من أجل إنشاء دولة عربية، تضم بلاد العرب وسكانها وشعوبها من البحر الأحمر إلى خليج البصرة؟

أجل، إن عام ١٩١٨ الذي حارب أهل الشام وأهل العراق فيه من أجل أخذ الاستقلال، يطل اليوم من خلال عام ١٩٤٨ ليوحد بين هذين الشعبين في سبيل حفظ هذا الاستقلال من خطر يهدده، لأن الدولة اليهودية لم تعد كارثة على فلسطين وحدها، بل توشك أن تصبح كارثة على العراق وعلى الشام معاً.

إننا اليوم في ظل ملك العراق الذي يحمل في طفولته أمجاد أمة عظيمة وأحداث تاريخ مجيد ووقائع شعب أبيّ، سجلها على ضفاف الفرات ودجلة طوال عشرين سنة أو تزيد، ينتقل من ثورة إلى ثورة، ومن نضال إلى نضال، ومن وثبة إلى وثبة، إننا في ظل هذه الذكريات، نهيب بالشعب العراقي وبالشعب السوري معاً، أن يعتبرا نفسيهما بأنهما هما المسؤولان بالذات وأكثر من غيرهما بل وقبل غيرهما أيضاً عن شرف العرب وكرامتهم في دفع الخطر اليهودي والقضاء على الدولة الصهيونية. فهل يظلان على هذا الوضع العجيب في السياسة الخارجية والقيادة العسكرية والانكماش وراء الحدود التي فرضها علينا الأجنبي الافرنجي رغماً منا؟

إن سورية والعراق هما اللذان احتجّا على وعد بلفور منذ ظهوره وإعلانه، وهما اللذان كانا منذ عهد فيصل الأول العظيم سواء في الشام أو في بغداد، يعملان من أجل فلسطين ودفع الشر عنها والاحتفاظ بعروبتها على مختلف العهود والحكومات والسنين، فلماذا لا يبحثان بجدّ أمرهما على ضوء الوقائع والحقائق والصراحة؟ بل لماذا لا يتألف من الشام والعراق اتحاد عسكري وسياسي؟ وما هو المانع بأن تكون للبلدين الشقيقين الجارين صاحبي التاريخ المشترك في الثورات والاستقلال والحوادث والرجال، قيادة عسكرية واحدة ووزارة خارجية واحدة أو تمثيل خارجي واحد على الأصح؟

إن اليهـود يجتمعون في سبيـل إيجاد دولـة لهم من أعراق مختلفـة وأجنـاس ولغات متبـاينة، إنهم عـلى هذا التبـاين الغـريب والخليط العجيب قد اتفقوا على غزونـا في عقر دارنـا، أفنعجز عن أن نتحـد سوريين وعراقيين فقط في قيادة عسكرية وتمثيل خارجي، لندفـع هذا الغزو عن الشام والعراق أو عن بلاد الهلال الخصيب على الأقل؟.

١٩٤٨/٨/٢

هوامش

■ **١٩١٨**: انطلقت شرارة الثورة الكبرى من الجـزيرة العـربية عـام ١٩١٦، واستمرت حتى عام ١٩١٨ حين هزم الاتراك وجلوا عن الاقطار العربية.

■ **وعد بلفور**: هو الوعد الذي قطعه اللورد بلفـور وزير خـارجية إنكلتـرا، في ٢ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩١٧، للمليونير اليهودي اللورد روتشيلد، بالتعاطف التامّ مع أمـاني الصهيونيين، وبالمساعدة في إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.

٥٦

فوزي القاوقجي
السجين الشريد

لقد أشرنا في أكثر من مناسبة إلى ما يلقاه الرجال العرب المعتقلون والمشردون في ديار الغرب من ظلم وجور وتعسف، وأهبنا بجامعة الدول العربية لأن تؤدي واجبها تجاه هؤلاء، فكان منها أن أوفدت مندوباً عنها لجمع المعلومات عن هؤلاء المشردين والمعتقلين، والعمل على التفريج عنهم، فشكرنا لها هذا العمل بالرغم من أنه يعتبر من أولى واجباتها تجاه هؤلاء البؤساء، لأنها المسؤولة الأولى عن حياتهم ورفاهيتهم، باعتبارها الحفيظة على حقوقهم ومصالحهم، ومن أولى منها بالدفاع عنهم ورعايتهم؟!

إن هناك رجالاً من هؤلاء أرخصوا كل شيء في سبيل قضايا العرب، وفي طليعتهم المجاهد الكبير فوزي القاوقجي، الذي لم يبخل على الأمة العربية في البذل لها، وقيادة مختلف المعارك الوطنية للذب عن حريتها ومبادئها، وهو الذي لم يتخلف عن كل معركة وثورة للعمل في سبيل بناء مجد هذه الأمة، وبسط سلطانها وتحريرها من ربقة الذل وعار الاستعمار.

لم يأت آتٍ من ديار الغرب إلا ويردد أنات قائد المجاهدين في عرينه، وما يلقاه في سجنه من هول وعذاب لأن الروس الذين اعتقلوه وسجنوه في منطقة الاحتلال الروسية في ألمانيا، لم يقدّروا هذا

المجاهد، ولم يعرفوا - على ما يظهر - الأسباب السياسية التي حدت به لهذا التشريد في الديار الأوروبية، فعاملوه معاملة الجناة المجرمين وزجوه في أعماق السجون، ونحن نعتقد بأنه لو وجد من يدافع عن هذا المجاهد الكبير، ومن يفهم السلطات الروسية سبب تشريده وغربته، وأنها إنما كانت من أجل كفاحه في سبيل استقلال بلاده وحريتها، لكانت هذه السلطات التي تتغنى بالحريات، قدرت القاوقجي وعاملته بما يستحقه دعاة الحرية وحملة مشعلها، ولكن الحكومة السورية - فيما نظن - لم تبذل في سبيل هذا المجاهد المساعي الواجبة لإنقاذه، وإعادة حريته إليه، وهذا إن صح، يكون - وايم الحق - عقوقاً كبيراً للذين عملوا في إشادة صرح استقلال هذه البلاد، وكان لهم حظ كبير فيما تحقق لها من أسباب السيادة والمجد.

إن الرجال المسؤولين في الحكومة السورية الوطنية، وفي طليعتهم سعد الله الجابري أخو المروءة والجهاد، مسؤول هو وحكومته عن حرية القاوقجي السجين المضطهد، ومن أولى بالسيد الجابري بالدفاع عن حريات المجاهدين الوطنيين، والذبّ عنهم، وهو الذي كان أحد قواد هذه الأمة في جهادها وحركة تحريرها وعانى مرارة السجن ووجعة الحرمان وأسى الاضطهاد؟!

أليس من الواجب أن تخاطب المفوضية الروسية بشأن هذا المجاهد الكبير، وتعمل بواسطتها على إعادة الحرية إليه، وهو الذي كان له حظ كبير فيما تنعم به البلاد السورية من حرية وسيادة واستقلال!

إننا نهيب بسعد الله الجابري وإخوانه أن يهبوا لنصرة القاوقجي السجين المعذب، بما يملكونه من وسائل مجدية لأنه يكفي ما أصاب هذا المجاهد من غربة معذبة، قيدت فيها حريته، وفقد فيها أعزّ ما يملك في هذه الحياة: ولده الشاب وابنته، أفلا يستحق - على الأقل - أن يدافع عن حريته في ظل عهد الاستقلال الذي عمل له وضحى من أجله؟! وهل من الوفاء أن لا تهتم الحكومة بأمره، فتنقذه من وهدة الذل، وأسى السجن، وعذاب التشريد؟!

١٩٤٦/٩/٨

هوامش

■ **فوزي القاوقجي**: سياسي ومناضل عربي، ولد في طرابلس (لبنان)، واشترك في الثورة السورية الكبرى، فحكم بالإعدام وهرب إلى بغداد. شارك في ثورة الكيلاني في العراق سنة ١٩٤١، وبعدها سافر إلى برلين، ثم عاد إلى سورية عند انتهاء الحرب. عيّنته الجامعة العربية سنة ١٩٤٨ قائداً لجيش الإنقاذ المؤلّف من متطوّعين من مختلف الأقطار العربية.

٥٧

جبران التويني
الرجل الذي خسره البلدان

حين تغيب شمس هذا اليوم الحزينة، يزدحم مرفأ بيروت بجموع اللبنانيين الذين وفدوا لاستقبال جثمان جبران التويني وزيرهم المفوض في الأرجنتين، وكاتبهم الشجاع ومواطنهم الكبير الذي طالب باستقلال بلادهم يوم كان طلب الاستقلال في لبنان وجلاء الأجنبي عنه، عملاً لا يقدره إلا القليلون ولا يقوى عليه إلا أصحاب العقائد من المخلصين الزاهدين بعطف الأجنبي ورضاه.

وإذا كان لبنان يعدّ جبران التويني فقيده، ويعتبر موته خسارة له، فإن سورية لن تكون دون لبنان، لا في الحزن على جبران التويني ولا في بُعدها عن الخسارة به، فلقد مات هذا العربي المؤمن على حساب سورية ولبنان، فلا ندري علم الله أي البلدين أشد حزناً وأفدح خسارة، لأن الخسارة إذا كانت تقدر بمقدار ما أدّاه إنسان لوطن من الأوطان من خدمة خالصة وجهد كبير، فإن سورية لتعترف بأن جبران التويني كان في أحلك ساعات جهادها ضد الأجنبي، صوتاً داوياً من أصواتها وقلماً نزيهاً قوياً من الأقلام التي دافعت عنها ووقفت بجانبها لا تطلب على ذلك أجراً ولا شكوراً، فخسارة سورية إذن بجبران التويني لن تكون أقل من خسارة لبنان به ولا أقل منه حزناً عليه.

لقد جاءت الجموع إلى هذا المرفأ لتنحني أمام نعش الرجل الذي ودعته منذ أمد قليل، سفيراً لبلادها لدى أكبر الجمهوريات الأميركية ورسولاً من لبنان المقيم إلى لبنان المغترب، فكان خير سفير لدولة مستقلة ناشئة، وأشرف رسول لأبناء هذه الدولة الذين هجروا بلادهم محكومة أسيرة، ليستقبلوا في شخصه ممثلها سيدة حرة كريمة، فما أحلى الوداع بالأمس وما أمرّ الاستقبال اليوم!

إن لجبران التويني ديْناً على سورية لا يقدّره إلا الذين عرفوا الأيام القاسية، التي دفع بها هذا الفقيد ما ضنّ به الكثيرون من أبنائها، وما جبن عن تأدية مثله أو بعضه المتبجحون اليوم بالدفاع عن الاستقلال والعهد الوطني، حين كان الأجنبي الغاصب يبسط على هذا الوطن وبكلتا يديه، الترهيب والترغيب. فما أغرى جبران التويني ترغيبه، ولا أخافه ترهيبه بل مضى يدافع في شجاعة نادرة ومنطق سليم وكفاءة منقطعة النظير عن النهضة الوطنية ورجالها، وعن الثورة السورية وأبطالها، فيحمي شهداءها، ويواسي السجناء من الوطنيين في سجونهم، ويمجد المنفيين في منافيهم، ويحمس المدافعين عن وطنهم في ساحات وميادين الحرب، فإذا قدّرته هذه البلاد وذكرت له مواقفه منها وحيته تحية الإجلال والإكبار حين يوسد في قبره، فإنما تعبر عن عاطفة الوفاء لمن استحقها يوم موته بعد أن كان مثال الوفاء لها في حياته.

لقد امتاز جبران التويني بمزايا كثيرة جعلته محترماً في نفوس السوريين واللبنانيين، ذلك لأن الوقت الذي رفع صوته فيه في وجه فرنسا وفي بلد مثل لبنان كان لا يعرّض صاحبه إلى نقمة المحتلين فقط، بل ربما كان يعرضه لسخرية الكثيرين ممن كانوا يوالون أولئك المحتلين، ويجدون فيهم الأصدقاء والحماة والمرشدين. وهنا تجلّت عظمة جبران التويني وبدا إخلاصه وشجاعته لأنه كان يومئذ يحارب خصمين: خصماً في الداخل وخصماً في الخارج.

فما بالى حين حارب فرنسا وحيداً في الساحة، ولا رهب الذين كانوا إلى جانبها في وسط بلاده. وفي قلب وطنه، ولعل جبران التويني كان الصحافي الوحيد في لبنان الذي نادى بعروبة اللبنانيين وعراقتهم في هذه العروبة، كما كان أول كاتب في صحيفة يومية كبرى قال لفرنسا إننا شعب جدير بالاستقلال فمن حقنا أن نناله. وإذا كان هذا

الجيل في لبنان ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين لا يتهمون بالعقوق، فمن واجبهم أن يذكروا بأن مقالات جبران التويني في «الأحرار» وفي «النهار» كانت أبلغ دروس في الوطنية وفي العزة القومية والتضحية من أجل الاستقلال، بل كان صاحب مدرسة طُبعت بطابعه وتميزت بأسلوبه في الصحافة العربية في لبنان، تخرّج كثيرون من الكتّاب فيها من اللبنانيين وبعض السوريين أيضاً. أما رجال السياسة من الوزراء والنواب القدماء والجدد، فلعلهم لا ينسون أن جبران التويني كان من النواب القليلين الذين ما استثمروا نيابتهم ولا ربحوا منها في بلد كانت النيابة فيه وما برحت أربح تجارة وأخصب صناعة، أما وزارته في ذلك العهد فقد كانت فتحاً وطنياً بالنسبة إلى كثيرين من الوزراء فيه، إذ وقف جبران التويني في وجه المستشارين والمندوبين الفرنسيين يدافع في وزارة المعارف عن التعليم القومي بلغة البلاد وعن وجود «البكالوريا» اللبنانية العربية بعد أن كانت «البكالوريا» الفرنسية وحدها هي شهادة التعليم الثانوي في لبنان كله.

وحسب جبران التويني أن يكون عظيماً في الحياة وبعد الموت أنه إذا ذكر اليوم فلا يقال: مسكين جبران فقد مات، بل يقال مسكين لبنان الذي خسر جبران. وإذا كان فقده فاجعة في حد ذاته، وكان موته في ديار الغربة يضاعف من هذه الفاجعة فإنه كما قال أمير الشعراء:

يموت في الغاب أو في غيره الأسد   كل البلاد وساد حين تتّسد

١٩٤٧/١٢/٢١

هوامش

■ **جبـران بن أندراوس التـويني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٧)**: ولد وتعلّم في بـيروت. سافـر إلى فرنسا حيث أقام في باريس ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى مصر فأقام فيها ١٢ سنة. عاد إلى بيروت سنة ١٩٢٣. شارك في إصدار جريدة «الأحرار»، ثم أصدر «النهـار». وزير المعارف سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢، ونائب في المجلس سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩، ووزير مفوّض في عهد الاستقلال. توفّي في سانتياغو (تشيلي).

■ **الأحرار**: جريدة يومية سياسية أصدرها في بيروت سنة ١٩٢٤ جبران التويني وخليل كسّاب وسعيد صباغة.

■ **النهار**: جريدة يومية سياسية أصدرها جبران تويني في ٤ آب /أغسطس ١٩٣٣.

٥٨

مظهر رسلان
رجل الادارة والاقتصاد

من الرجال البارزين في الحزب الوطني والمرشحين في قوائمه فئة منهم تحبك الدعاية من حولهم في كل مكان، ويلح خصومهم على تهديمهم والطعن بهم بصورة منتظمة مستمرة، كأن هناك «رسالة» يؤديها هؤلاء الخصوم في سبيل النيل من سمعة هؤلاء الرجال ومن كراماتهم وأقدارهم، وكأن الدافعين هذه «الرسالة» يقلقهم أن يعود هؤلاء إلى مقاعد النيابة وإلى كراسي الوزارة، فيريدون أن يكون البرلمان القادم والحكومات التي تتألف في ظله من الأشخاص الذين لا خطر لهم على أصحاب تلك «الرسالة» ذات المغزى السياسي البعيد.

ولعل في طليعة أولئك الرجال مظهر رسلان نائب حمص في كل دور انتخابي، من عهد الجمعية التأسيسية حتى عهد البرلمان الحاضر، فهذا الرجل يحارَب اليوم حرباً غير شريفة، ويهاجم هجوماً في بعض الصحف وفي بعض النشرات وعلى ألسنة بعض الخطباء من المرشحين، فيقال عنه إنه بطل الإعاشة ووزيرها الأول الذي قامت الضجة عليه في البرلمان، ولكن مظهر رسلان لم يحاول أن يدافع عن نفسه رداً على الهجوم، بل وقف متحدياً خصومه بكل ما في التحدي من قوة. ونحن نقف اليوم لا لندافع عن الرجل فقط، بل لنتحدى معه

أيضاً كل كاتب ومرشح في هذه المعركة الانتخابية من أولها إلى آخرها، ولنقول لهم جميعاً بالقلم العريض وباللهجة القاسية: إذا كنتم صادقين وشجعاناً فهاتوا لنا حادثة واحدة تنال من نزاهة مظهر رسلان أو تحطّ من قيمته أو تمسّ به كرجل إداري وسياسي ووطني، ولكننا نحن نقدم لهم عن مظهر رسلان كل ما يرفع قدره، ويبيض وجهه، ويجعله مرفوع الرأس، موفور الكرامة لأنه جدير بأن يعرف الناس عنه ما خفي عليهم من تاريخه ومن سيرته.

تولى مظهر رسلان وزارة الإعاشة في أول حكومة تألفت في هذا العهد برئاسة سعد الله الجابري، فدخل مؤسسة يقبض عليها مستشار فرنسي وخبير بريطاني ومجلس مؤلف من بعض اللبنانيين والسوريين، يعملون كلهم بوحي المفوض السامي في بيروت ومندوبه في دمشق، ويتلقون الكلمة الأخيرة من مجلس الحلفاء الاقتصادي في القاهرة المؤلف من البريطانيين والأميركيين وقواد الجيش ورجال التموين.

وكان التجار السوريون لا يطمعون من وزارة الإعاشة بأكثر من أن يعتبرهم هذا المجلس مشترين في مجموعهم أو مستوردين في أفرادهم بالنسبة لتجار لبنان الذين كان تصنيفهم في نظر الفرنسيين والبريطانيين أو حتى الأميركيين أنهم وحدهم أسياد التجارة وأصحاب الحق في الاستيراد، أما السوريون فلا يخرجون عن كونهم أكثر من مستهلكين ومشترين. فإذا وزعت مقادير الكوتا بين البلدين فإن السوريين إذا نالوا ربع هذه المقادير فسيكونون من أصحاب الحظوظ العظيمة، ولكن مظهر رسلان في عهده وفي وزارته وبكفاءته استطاع أن يقلب الآية، وأن يجعل مجالس الحلفاء في بيروت والقاهرة ودمشق تعتبر السوريين في الإستيراد بنسبة الدولة التي ينتمون إليها، فإذا بأرقام الكوتا تقفز مرة واحدة إلى نيف وسبعين في المئة لسورية وأقلّ من ثلاثين للبنان، وإذا بمستشار الإعاشة الفرنسي وخبيرها البريطاني وبقية الموظفين الذين انتدبتهم دوائر المفوضية، يصبحون أصفاراً على الشمال لأن عهداً وطنياً يكون مظهر رسلان من وزرائه لا يقبل أن يكون السيد فيه إلا الوزير الوطني وحده دون سواه.

وهكذا رفع مظهر رسلان شأن التجارة السورية، وسما بالتجار من

أبناء هذا الوطن إلى مرتبة المستوردين الكبار، حتى أصبحت هذه الثروة الضخمة في الاستيراد والتصدير التي تنعم بها سورية اليوم مدينة لكفاءة مظهر رسلان ورجولته وغيرته على مصالح البلاد التي يعمل وزيراً باسمها، ولكن مظهر رسلان كان عيبه أنه لا يستطيع أن يجعل من بعض الدخلاء على التجارة ومن وسطائهم أو شركائهم من بعض النواب أصحاب حقّ في الاستيراد، وأصحاب حصة في الكوتا والقطع النادر، فكانت الضجة في البرلمان، وكان التحدي منه ومن إخوانه بتأليف لجنة تحقيقية من كبار القضاة والمديرين ورجال الدولة. وقد عملت هذه اللجنة بعد أن ترك مظهر رسلان الوزارة، وقدمت تقريرها إلى مجلس النواب مطبوعاً وموزعاً، فمن هو النائب الذي استطاع أن يناقش هذا التقرير أو يردّ عليه أو ينسب لأول وزير للإعاشة ما يشينه أو يعلق به غباراً؟

لقد كان هذا التقرير في حد ذاته رداً على كل من حاول أن يتهم مظهر رسلان، بل كان تحدياً صارخاً لأصحاب الضجة المصطنعة، وها هو اليوم يرشح نفسه للنيابة في حمص، فلا يجد الذين تطغى عليهم شعبيته وثقة الناس به، إلا أن يلوحوا له بأنه كان بطل الإعاشة.

أجل، إنه كان بطل الإعاشة المنتصر الظافر، وكان رجل الاقتصاد الأمين الشريف، كما كان الإداري الكفء والوطني المتواضع الذي لا يمنّ ولا يتبجح بما عمل في حياته.

فإذا كانت وزارة الإعاشة في نظر خصوم مظهر رسلان الحادث الذي يحاولون أن يطعنوه به، فقد وقف الآن يتحداهم: ونحن معه أيضاً طالبين أن يدلّونا على حادثة أو معاملة لا يرتفع بها رأس مظهر رسلان ويعتزّ معها أهله وحزبه وإخوانه.

أما وطنية مظهر رسلان ورجولته، فليسألوا عنها المجاهدين الأولين الذين عرفوه في عمان رئيساً لحكومة الوطنيين المناضلين، وأما إدارته، فهذه محافظة اللاذقية التي عرفته في عهد الاستقلال وفي عهد الانتداب تشهد بأمانته وكفاءته وقوته. ولو أراد مظهر رسلان أن يظل محافظاً ولم يفضل النيابة على المحافظة لكان المحافظ الذي لا ينازعه أحد في هذه البلاد.

هـذا هو أحـد الرجـال البـارزين في الحــزب الـوطني الـذي تحبـك الدعايات من حولهم، وتؤدى «الرسائـل» السياسيـة البعيدة المغـزى للطعن بهم ومحــاولـة تهـديمهم، ولكننـا نحن اليــوم في معــركــة الانتخابات التي يكال الطعن فيها بلا حساب نشير إلى مظهر رسلان ونقول لخصومه إنه يتحداكم ونحن معه أيضاً في هذا التحدي.

١٩٤٧/٧/٢

هوامش

■ **الحزب الوطني**: من أحزاب الاستقلال في سورية، ووريث الكتلة الوطنية. أُسِّس في نيسان /ابريل ١٩٤٧، وأُسندت رئاسته إلى سعد الله الجابري، وبعد وفاته إلى نبيه العظمة.

■ **مقادير الكوتا**: أي نظام الحصص.

٥٩

مظهر رسلان
السياسي المظلوم
والوطني المقمور

إذا كان موت سعد الله الجابري خسارة لا تعوض، فإن مـوت مظهر رسلان كان خسـارة مثلها، هيهـات أن تظفر سـورية بـرجل بعـده يعوضها عنها في عشرات من السنين!.

ولعل الشيء الفاجع في هاتين الخسـارتـين أن الرجلـين يموتـان بعلَّة واحـدة، بقطع النظـر عن المرض المـادي ونوعـه، وهـذه العلـة هي العقوق وعدم تقدير قيمة الرجـال الذين وقفـوا حياتهم عـلى خدمـة بـلادهم، حتى إذا أصبحـوا أمـل الشعب ومنـاط رجـائـه، ولمعت أسمـاؤهم واقترنت بـأحداث جسـام من الإصلاح والخير والإنتاج، تنكرت لهم النفوس الحاقدة من جهة، وتخلَّت عن نصرتهم وتأييـدهم الأيدي القادرة عـلى التأييـد من جهة أخـرى... فإذا بهم يصـابون بتلك العلة القـاتلة التي تهـد الجبال هـدّاً وهي خيبة الأمـل ونكران الجميل، فيموتون مقهورين مظلومين، ويخـرجون من هـذه الدنيـا في الأيام التي لا يوجد فيها من يملأ فراغهم، فإذا بالذين كانـوا السبب في موتهم يصبحون أول النادمين، ولكن ساعة لا ينفع الندم!

وهكذا مات مظهر رسلان سياسياً مظلوماً ووطنياً مقهوراً، فلقد كان من ألمع رجال الدولة في كل منصب تقلده، وكـان نائبـاً يملأ النـدوة بعلمه وفهمه وإنتاجه، لم تخذله بلاده في حياتـه خلال ثـلاثين سنـة

مرة واحدة، أيام كان يناضل الأجنبي ويلقى منـه الاضطهاد والنفي والسجن والحـرمان، ولكنـه خذل في عهد الاستقلال، وبـوسائـل لا تشرف المزورين ولا تهنأ عليها حكومة أشرفت على ذلـك التزوير، فلم تحـل دونه أو تُقصي الـذين باشروه من مـوظفيها، فكـان سقوطـه في الانتخـابات الأخـيرة صدمــة قاسيــة أصابتــه في الصميم من قلبه، وخيبة أمل تمثل فيها العقوق والخيانـة بالنسبـة إلى فريق مخـاصم كما تمثل فيها الجبن والضعف بالنسبة إلى فريق صديق!

إن مظهـر رسلان لم يغمض المـوت عينيه قبـل أن يقف في البرلـان ليقول للذين اتهموه في وزارة الإعاشة إنه يتحداهم أن يذكروا حادثة أو يسمـوا اسماً ينـال من سمعته، ثم قـذف بتقريـر لجنة التحقيق التي ألِّفت بطلبهم في وجوههم قائـلاً إن هـذا التقـرير الـذي يشرفه موضوع أمـامهم فليردوا عليـه بحرف، فنكسـوا رؤوسهم، وأصيبت ألسنتهم الطويلة بالخرس!

ولكن ليس هذا الموقف وحده هو الذي برهن فيـه مظهر رسـلان على أمانته ورجولته وقـوته، بـل إن الله انتقم له من أولئـك الذين قـادوا ضـده حملة البـاطل والاتهـام في البرلـان، فقد صـاروا بعده وزراء ووزراء مفوضين، ولكنهم لم يخرجوا من مناصبهم إلاّ بعد أن أثقلت الشبهات والتجارات والصفقات والتهم المخزية كواهلهم، ونـالت من ذممهم، وجعلت سمعتهم وكراماتهم في الطـين والوحـل! ذلك لأن الله كـان أعدل من أن يتـرك خصوم مظهـر رسـلان يمعنـون في اتهـام الشرفاء من الرجال من غير أن يفضحهم بين الناس!

واليوم تتلفت حمص فلا تجد رجلها الفذّ، وقائدها المهذب المتواضـع إلاّ محمـولاً عـلى الأكف إلى القبـر بعـد أن حملتـه هـذه الأكف إلى البرلمان طـوال عشرين سنة، ولكن الخسـارة بمظهر رسـلان تتجاوز حمص إلى سورية كلها، لأنه لا يوجد فيها مثله إلاّ القليلـون الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليـد الواحـدة. فلقد كـان هذا الفقيـد رجلاً يحسب حساب عقله وحساب كفاءته وعلمه، ولكنه مات وهـذا الوطن وخصوصاً الآن وفي هذا الأسبوع بالذات ـ يتلفّت إلى الذين هم من طرازه فلا يجـدهم أو لا يجدون أنفسهم في وضـع يمكّنهم من تلبية دعوته، لأن الذين تولـوا أموره وأوصلـوه إلى هذا المصـير، عليهم أن يتحملـوا نتائـج عملهم وحـدهم، وأن يـذوقـوا مـرارة الخطـة التي

وضعوها بأنفسهم وطبقوها بكل قواهم بالنسبة للانتخابات الماضية ولما بعد الانتخابات أيضاً!

إن المصاب بمظهر رسلان يجلّ عن العزاء، فلقد خسر هذا الوطن وهذه الدولة بفقده رجلاً عظيماً فذاً. ولن ينفع البكاء والألم إخوانه المفجوعين به شيئاً. أما الذين شعروا اليوم بأن موته كان خسارة للوطن ولهم شخصياً، فما أجدر روح مظهر رسلان أن تقول لهم عاتبة مؤنبة ما قاله الشاعر:

لأعرفنَّك بعد الموت تندبني وفي حياتيَ ما زوَّدتني زاداً

١٩٤٨/٥/٣٠

٦٠

معروف الأرناؤوط
الأديب والمؤرخ
والصحفي والانسان

«نقابة الصحافة تنعىَ إليكم بمزيد من اللوعة والأسف الأديب الكبير والصحفي القدير الفقيد الغالي المرحوم الأستاذ معروف الأرناؤوط صاحب جريدة «فتى العرب» وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، ومؤلف «سيد قريش» و«عمر بن الخطاب» و«طارق بن زياد» و«فاطمة البتول»، وغيرها من المؤلفات الكثيرة التي تزدان بها خزائن التاريخ والأدب العربي.

لقد توفاه الله في الساعة الثانية من صباح اليوم الجمعة في ١٩ ربيع الأول ١٣٦٧ و٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨، وسيحتفل بتشييع جثمانه في الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم ـ السبت ـ في ٢٠ ربيع الأول ١٣٦٧ و٣١ كانون الثاني ١٩٤٨ من منزله (دارة سيد قريش) في شارع البرلمان إلى المسجد الأموي للصلاة عليه،فمقبرة باب الصغير حيث يوارى مقره الأخير، تغمده الله برحمته، ولكم طول البقاء..».

هكذا ننعي إلى الناس الزميل الكبير والصديق العزيز المرحوم الأستاذ معروف الأرناؤوط صاحب أقدم جريدة عربية في دمشق صدرت بعد جلاء تركيا، وأول كاتب عربي اقترن تاريخه بتاريخ سورية السياسي ونضالها الوطني منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨، فقد انطوى بموته تاريخ حفل بأروع الحوادث وأعجب الانقلابات.

كـان الفقيد في جـريدتـه وفي مؤلفاتـه وفي قلمه سجـلاً ضخمـاً لـه ولنهضـة بـلاد الشـام السيـاسيـة والصحفيـة والأدبيـة ودولهـا وحكوماتها. ولقد عاجلته المنية في أبان الكهـولة النـاضجة، والعقـل الكامل والأدب الصحيح، فمات وهو لم يكمل الثالثة والخمسـين من عمـره في الوقت الـذي انصرف فيه عن السيـاسـة إلى العلم والأدب والتاريخ، بعد أن ملأ هذا الجيل الحـديث مؤلفات وكتبـاً هي لا ريب أثمن ما خلفه رجل في مثل سنه وفي مثل ظروفه.

لقـد مات مؤلف «سيـد قريش» أو صـاحب أجمـل قصـة كتبت عن الدولة العربية قبل الإسلام إلى حين ظهوره، كتبها معروف الأرناؤوط في شبابه وحماسته القـومية والإسـلامية، فكـانت أثمن مؤلف صدر عن بـلاد الشام إذ نـالت إعجـاب الأدبـاء في جميـع بـلاد العـرب، وخلدت اسم صاحبها في عداد علماء الأدب والتاريـخ، فانتُخب عـلى أثرها عضواً في المجمع العلمي العربي الذي كان لا يفخر بلقب غـير لقبه، ولا يعتز بنسبة أكثر من اعتزازه بهذه النسبة العلمية العالية. ثم كتب بعد «سيد قريش» طائفـة من المؤلفات الأدبيـة والتاريخيـة مثل «عمر بن الخطاب» و«فاطمة البتول» و«طارق بن زياد»، امتـازت كلها بأسلوب الفقيد الواضح وديباجته المشرقة الضاحكة.

اشتغل الفقيد في الصحافة ثلاثين سنة، فأنشأ «فتى العرب»، ودافع فيها عن العرب والإسلام والوحدة العربية دفاعـاً متصلاً لم ينقطـع لحظـة في حيـاتـه، فقـد كـان معـروف الأرنـاؤوط أوسـع الكتّـاب والصحفيين قومية، ذلك لأن خيـال الامبراطـورية العـربية وحلمهـا الضخم وتاريخها المجيد كانت كلها مسيطرة عـلى شعوره وتفكـيره، فما دافع يوماً ولا مرة عن هذه الـدول الصغيرة الضيقة، لأن نفسه السمحـة وروحه الإنسـانية ونضجـه العلمي والتاريخي شفتـه من مرض الإقليمية، وبرّأته من النعـرة المحلية والضغينـة البلديـة التي تتسلط على عقول الكثيرين من رجال السيـاسة والصحـافة في بعض البـلاد العربيـة، فعاش صـديقاً حبيبـاً لجميع رجـال السياسـة في مختلف الدول العربية وأقطارها، كما كان في جريدته حتى توفاه الله، من أعـزّ الكتّاب والأدبـاء على رجـال سوريـة من مختلف الأحـزاب والطبقات.

ولم يكن معروف الأرناؤوط يمتاز بأدبـه وعلمه فقط، بـل كان يمتـاز

بصفات طيبة كثيرة، من طهارة القلب ووداعة الخلق وصفاء النفس والسريرة، فما حقد على أحد ولا حمل غلاً لإنسان.

ففي ذمة الله معروف الأرناؤوط الصحفي والأديب والمؤرخ والإنسان، الطيب القلب، النقي السريرة، وعزاء للأدب الرفيع والقلم الناضج والأسلوب الواضح والديباجة الضاحكة، بهذا الفقيد الذي لا يعزَّى به أحد من ولد أو أهل، بقدر ما تعزى به بلاد الشام التي كان مفخرة من مفاخر أدبائها وكتابها طوال ثلاثين سنة كاملة.

١٩٤٨/٢/١

هوامش

■ **فتى العرب**: جريـدة يوميـة سياسيـة أصدرهـا معروف الأرنـاؤوط في دمشق في ١٨ شباط/ فبراير ١٩٢٠.

٦١

سعيد الجابي
المصلح الذي أدى
رسالته!

شيعت مدينة حماه عالماً من فحول العلماء ورجلاً من شجعان الرجال، ومصلحاً من كبار المصلحين، أدّى رسالته بصبر وأمانة، ووطنياً مخلصاً خدم ربه ودينه ووطنه خمسين سنة أو تزيد، فما شكا تعباً، ولا أظهر عجزاً، ولا طلب معونة إنسان، ذلك هو الشيخ سعيد الجابي مدرّس حماه الأول وفقيدها، الذي مشى في جنازته من أهلها كل من استطاع السير على قدميه من رجل وامرأة وطفل، خرجوا يودعونه الوداع الأخير بقلوبهم ودموعهم، وفاءً له، وبراً به واعترافاً بفضله، لا زلفى لعائلة، ولا مجاملة لأهل أو ولد. فقد كان ملء أسماعهم وأبصارهم يحبونه ويحبهم محبة خالصة لوجه الله والوطن.

لقد عاش الشيخ سعيد الجابي حوالى الثمانين عاماً، وذاق من الحياة حلوها ومرّها، فما أبطره حلو الدنيا ومجدها، ولا أذله مرّها وشقاؤها. دانت له زعامة البلد الدينية، فما استغلها في سبيل الدنيا، ولا طلب منها منصباً أو وظيفة، بل زادته هذه الزعامة تواضعاً فزاده الناس عليها حباً وطاعة.

ولعل الصفة البارزة فيه إلى جانب صفاته الكثيرة، هي وطنيته الصريحة العنيفة التي كان يلقيها على العامة والخاصة في دروسه

الدينية طوال عهد الاستعمار الفرنسي، فقد كان يفسّر القرآن تفسيراً ينفذ منه إلى نفوس الناس وعواطفهم، فيلامس روحهم ويثير فيها حب الجهاد في سبيل الله والوطن، ويقرأ من الحديث النبوي الصحيح ما يمسّ الأنفة القومية ويحرّك في القلوب حب الاستقلال وكره الاستعمار، ويقول في كثير من الصراحة والقوة: إن الدين الإسلامي يتنافى مع الجبن والرضاء بحكم الأجنبي.

لقد كان وطنياً وسياسياً طوال حياته، ولكن ميدان وطنيته وسياسته كان منحصراً في المساجد، وفي حلقات الدروس الدينية فقط، حتى إذا خرج من هذا الميدان، انصرف إلى القراءة والدرس، فلا يزاحم رجال السياسة في ساحاتهم، ولا ينافس القادة الوطنيين على زعاماتهم لأنه كان راضياً بأداء واجبه في الأوساط التي كانت تفهمه ويفهمها، حتى ظفر بإعجاب جميع الأحزاب، ونال محبتها وثقتها في بلد مزقت الحزبية به العائلات والبيوت والطبقات.

وليس الشيخ سعيد الجابي فقيداً للشيوخ أو الشباب، بل هو فقيد كل طبقة وجيل ممن عرفه وعاصره، دعا إلى الدين من أبسط الطرق وأسهلها، على اعتبار أن الدين الإسلامي دين يسر وسهولة، وقاوم البدع والخرافات، وأزال عن وجه الإسلام النقي الصبوح غبار الجمود والحرج، فقد كان متديناً بلا تعصب، وورعاً بلا تورع، يؤمن بالقضاء والقدر، ويحارب الكسل واليأس، ويدعو إلى السعي والعمل. شارفت سنه على الثمانين فما شبع من العلم، بل مات ولم يلق من يده القلم ولا طوى من أمام عينيه الكتاب. ولعلّ من نعمة الله عليه أنه مات في أبان صحته وقوته ونشاطه، فما مرض يوماً واحداً حتى لا يكون عالة على أولاده أو أهله، بل ذهب إلى قبره كأنه ماشٍ على قدميه، وهو الرجل الذي قضى عمره الطويل يحمل أعباء غيره من أهله وذوي رحمه.

لقد أدّى الشيخ سعيد الجابي رسالته في الإصلاح الديني والاجتماعي على خير ما يؤديها إمام مصلح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فخدم ربه ودينه ووطنه خدمة سيظل الأحياء من أهل حماه يذكرونها له بالخير والحب والإعجاب، فكان العالم العامل والوطني الشجاع الذي ما حنى رأسه إلّا تحت أبواب المساجد.

١٩٤٨/١/٢٢

هوامش

■ **سعيد الجابي (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨)**: واعظ سوري، ولد وتوفّي في حماه، أقام بضع سنوات في الآستانة، واتصل بالشيخين الأفغاني ومحمد عبده. مدرّس عامّ في المساجد إلى أن توفّي. له كتب مطبوعة.

٦٢

فارس الخوري يعود الى وطنه

بهذه الكلمات البسيطة المتواضعة نضع عنواناً لمقالة نحاول أن نكتبها عن الرئيس فارس الخوري بعد غياب سنتين كاملتين عن وطنه الذي رفع رأسه إلى السماء، ونهض باسمه عالياً إلى الجوزاء، وبيّض وجهه بما قدمه للعرب جميعاً في أعظم مؤتمر دولي وفي رئاسة محكمة الدنيا بأسرها من كفاءة وشجاعة عزّتا في مندوبي دول العالم الكبيرة والصغيرة.

أجل! من هذه الكلمات البسيطة وحدها، نؤلف عنواناً للترحيب بالرجل العظيم فارس الخوري، لأنه أكبر وأعظم من كل فصاحة وبلاغة، ولأن ما أداه لوطنه وللعرب جميعاً لا توجد له في اللغة ألفاظ أو كلمات تؤدي المعاني التي يحاول الكتّاب أن يسبغوها عليه أو يصفوا أعماله بها.

إنه يعود إلى وطنه كما يعود الفارس الشجاع من المعركة، جريحاً غير منهزم، ومقهوراً غير يائس أو منكسر، وعزيزاً غير ذليل، فلقد ثبت وحده في أعظم معركة وأمام عدو تناصره الدنيا ويؤازره العالم بالسلاح والمال والتأييد، بينما انهزم أولئك الذين ملأوا السماء والأرض كلاماً فارغاً وتهديداً كاذباً وخطباً للشارع وأقوالاً للعامة، لأنهم كانوا أقل كفاءة وشجاعة من أن يعملوا بتوصيات الرئيس العظيم فارس الخوري.

إنه كان عظيماً كالاستقلال الذي دافع عنه، وعزيزاً كـالكرامـة التي غضب لها، أما أولئك الذين خلفهم وراءه لا في سـورية فقط، بـل في معظم بلاد العرب، فقد كانوا أصغر من الاستقـلال الذي لم يـرعوا حرمته، وكانت نفوسهم أضعف من أن تحمل روح السادة أو القادة بعد أو ورطوا شعوبهم وجيرانهم بالحرب، ولم يكونوا أهلاً لقيادتهـا أو حماة لسيادتها، فإذا بالمأساة لا تنتهي حين قدومك، بـل هي تبدأ بكل أسف وخجل. وها هي ذي مصر بعد أن تركوها وحدها تناضـل عدوهم وعدوها مرتـين متواليتـين في خلال شهـر واحد، هـا هي ذي تفاوض العدو مباشرة بعد أن رأت من عمان وبغداد ودمشق ما رأته من عقـوق وخذلان وجبن. كمـا أن شرق الأردن يستعـد لمثـل هـذه المفاوضة ويمهد لها منذ أمس.

إن المأساة القومية العربية قـد بدأت اليـوم، ولا ندري كيف تنتهي، وإلى أي مـدى سـوف تنتهي، وذلـك لأن الملـوك ورؤسـاء الـدول والحكومات والوزراء والقواد لم يعملوا بنصائحـك، لا في إراقة الـدم فقط، بل ضنّوا عليك وعلى وطنهم حتى بإراقة البترول، فقد بعثوا بك لتهدد بجيوشهم وسلاحهم، حتى إذا هددتَ وتـوعدتَ خـذلوك لأنهم كانوا ينظرون إلى هذه الحرب نظرة تظـاهرة في الشـارع أو احتجاج تعودوا في حياتهم السياسية إتقانه بخطب جوفاء وأصوات عريضـة وعقول جاهلة وعزائم خائرة، أمـا الجيش والسلاح فمـا عبأوه ومـا حشـدوه بـل حشـدوا أنصـاراً للتصفيق، وعبـأوا أمـوالاً للجيـوب والمحاسيب من أقارب وهتافين وشركاء ومصفقين.

يا سيدي الرئيس العظيم:

ماذا أحدثك عن المهازل والمآسي والفضائـح والفواجـع التي جرت في غيابك طوال عامين كاملين؟ هل أحمد الله لك على أنك كنت بعيداً عن مواطنها لم تشهدها عيناك ولم تقارفها يداك، أم كنت أتمنى لـك أن تكـون هنا لعلـك تحول بقـوة شخصيتك وكبـر عقلك دونها، بعد أن أعوزتنا العقول الكبيرة والنفوس القوية والأعصاب المتينة والمقاصـد النزيهة؟

لا أدري أي الحالين أتمنى لك، ولكني أقول منذ الآن إن هذه البلاد التي سجـل جـلاء الأجنبي من أراضيهـا استقـلالهـا السيـاسي، وسجلت أنت بعظمتك وعقلك وعلمـك كفاءتهـا لهذا الاستقـلال ـ إن

هذه البلاد نفضت يدها من الـرجال، فكنْ أنتَ رجلهـا الذي تـرقبه بعيون دامعة وقلـوب خافقـة، وترفـع بما وصلت إليـه من ظفر دولي وسياسي لم ينل مثلـه رجل في الـدنيا قبلك، ترفـع عمّا يتـزاحم عليه هؤلاء الرجال من رئـاسات ووزارات وزعـامات، فـإن لك من نفسـك ومن تاريخك وفي بيتك ما ليس لهم جميعاً.

إن هذه البلاد أصبحت اليوم أكثر من كـل يوم مضى تفتش بقلـوبها وعيونها عن الزاهدين المتصـوفين، فكن أنت يـا سيدي هـذا الزعيم الصـوفي، ولتكن خاتمـة أعمالـك السياسيـة بعد اليـوم أن تصبـح رجـلاً للجميع وفـوق الجميع، فتعيـد إليهم نيابتهم ورئـاستهم لأنك أصبحت أكبر من الرئاسة ومن النيـابة وتقـول لهم ما قـاله الإمـام الغزالي حين لم يفهموا قوله ولم يتذوقوا روحه:

غـزلت لهم غزلاً رقيقـاً فلم أجـد لغـزليَ نسـاجـاً فكسّرت مغـزلي!

١٩٤٩/١/١١

هوامش

■ **أبو حامد محمد الغزالي (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)**: متكلّم ومتصوّف وفيلسوف شهير. من آثاره «إحياء علوم الدين»، و«المنقذ من الضلال» و«تهافت الفلاسفة».

ميخائيل أليان
الرجل الذي لم ينحن أمام الاضطهاد

من أسمـــاء المعتقلين في حلب اليـوم، اسم يذكـر كثيراً في الصحف ولكنــه لا يحاط بـالألقاب والنعـوت السياسيــة الضخمة، فـإذا ذكر المرشحون للنيابة كان هذا الاسم مطـوياً من قـائمة المـرشحين لأن صاحبه ليس منهم! شاب في الخامسة والعشرين من عمره، أنعم الله عليه في هذه الحياة بكل ما يطمح إليـه الشباب الـرافهون. وجيـه في قومه وفي غير قومه، وعلى صغـر سنه يلقب بـالوجيـه الكبير. وطنيـة صـامتة تعمـل ولا تعلن عن نفسها، وإخـلاص حقيقي يثبت وجوده دائماً من غير أن يتبجح، بذل في سبيـل كل عمـل شريف لا يرافقـه المنّ ولا تحيط به الدعايات، وخلق كالماء العذب، لا يشتم ولا يعربـد، ولا يرمي الناس بضعف الإيمان، وطني ولكنه لا يعني في وطنيته أن غـيره خائن! متجـرد ولكن لا يقول للنـاس إنه وحـده المتجـرد، وإن الآخرين أصحاب أغراض، مترفـع عن أي وظيفة ولـو شاءهـا لنال كبرياتها. لقد قالوا له كثيراً: ما لك ولهذه الوطنية وأنت وحيد والدك، ومصالحك في الحكومة مطاردة، واسمك في الدوائر الإفرنسية أسود؟

أيها الصديق الوفي:

لئن كنت جديداً في اعتقالك فقـد كنت قديمـاً في وطنيتك، فـالاعتقال وحـده لا يجعل النـاس وطنيين، وإذا كـان المظلومـون في السجـون كثيرين، فإن «المظلومين» في الوطنية أكثر!

لقـد دخلت السجن وأنت لا تنتظر أن ينتخبـوك نـائبـاً لأنـك لست مرشحاً لتدافع عن أصـوات قد تخسرهـا إذا قبعت في بيتك. ولكنـك دخلت السجن لأنـك تستحقه في نظـر المستعمرين مـا دمت وطنيـاً شريفاً، وأنت تعلم أن طريق الوطنية وعر شاق ومع ذلك فقـد عملت وتعمل وسوف تعمل.

القبس: ٣٠ كانون الأول ١٩٣١

هـذه مقالـة كتبتها في «القبس» منـذ أربعة عشر عـاماً، عن الشــاب الوطني ميخائيل اليان لا عن معالي الوزيـر السيد ميخـائيل اليـان! كتبتها يوم دخل ذلك الشاب السجن لأول مرة في حياته، حينما كانت فرنسا بقوتها وأنصارها وجيشها وشرطتها ودركها تطارد الوطنيين في حلب، وتضطهد رجالهم وشبـابهم لتجعل من أصـدقائهـا ومؤيديهـا نواباً ووزراء؛ يوم زيفت الانتخابات وسرقت أصوات الناخبين وقالت: لقد سقط الزعيم إبراهيم هنانو وسعدالله الجـابري، ونجـح صبحي بركات ولطيف غنيمة!

في تلك الأيام كتبت عن ميخائيل اليان هذه المقالة التي نثبتهـا اليوم في صدر «القبس»، كتبتها عن شـاب كان في الصف الأول من حمَلـة الراية الوطنية، كـان من رفقاء إبـراهيم هنانـو المختارين. وهـا هي أربعـة عشر عامـاً تنقضي على ذلـك الحـادث، فمـاذا كـان من أمـر ميخائيل اليان في خلال هذه السنين؟ لقـد دخل السجن عـدة مرات، وشرد عن بيتـه وبلده إلى جميـع المنافي والمعتقـلات، ووقف في وجـه الطغيان الإفرنسي شجـاعاً قـوياً، لم يحن رأســه لقوة أجنبيـة، ولم يضعف إيمانه أمام كل اضطهاد نزل به، فما مشت قافلة وطنيـة إلى مفخـرة أو إلى عـراك إلّا وكـان في الصف الأول منهـا لا في الصف الثاني، وما دخلت نخبة كريمة من رجال الـوطن سجناً إلّا وكـان في الطليعـة، ولا أوذيت صفوة مختـارة إلّا وكان معهـا يحمل النصيب الأوفى من ظلم الأجنبي وبطشه.

لم يكن يطمع ميخائيل إليان وهو يكافح ويضطهد ويسجن وينفى في نيابة أو وزارة، ذلك لأنه من طائفة لم يكن لها مقعد في البرلمان طـوال عشرين سنة مضت، ولكنه كان يعمل لاستقلال بلاده وتحريرهـا من سلطـة الأجنبي، فقد كـان فخوراً بجهـاده الوطني في ظـلّ عقيدتـه

المتينة وتحت راية ذلك الزعيم الجبار إبراهيم هنانو، وظل أميناً على هذه العقيدة، لم يتغير ولم يتبدل، فانتخب أميناً عاماً للكتلة الوطنية في حلب، فكان طوال بضعة عشر عاماً وما برح، ذلك الرجل الشجاع والوطني الأبي، حتى إذا أعطي للطائفة الأرثوذكسية مقعد نيابي في حلب في الانتخابات الأخيرة، كان هو صاحبه لا لأنه وجيه هذه الطائفة فقط بل لأنه صاحب هذا الماضي وابن تلك العقيدة. وها هو اليوم يدخل هذه الوزارة فيكون الوجه الجديد فيها، ثم يكون هدفاً لحملة ظالمة وشائعات غير صحيحة، فيقولون عنه مثلاً إنه أرمني، وهم يعلمون أنه الأرثوذكسي العربي الصافي وابن أعرق بيت في الأرثوذكس،الذين هم أقدم أهل البلاد من قبل الإسلام حتى اليوم. ولكن ميخائيل إليان رجل قوي الشكيمة، شديد الوفاء لمبادئه ولرفقائه الوطنيين ولحزبيته القديمة، دخل عضواً في الكتلة الوطنية في ظل زعامة إبراهيم هنانو فظل أميناً لهذه الكتلة ووفياً لهذه الحزبية حتى يوم قيل إنها تلاشت وضعفت وتخلى عنها أو تبرأ منها بعض أبنائها ممن رفعت من شأنهم وأعلت من قدرهم.

وما برح فخوراً بها وبمبادئها وسياستها منذ عشرين سنة حتى هذه الساعة. فإذا كان له من يهاجمه أو يحمل عليه فإن رجلاً له ماضٍ مثل ماضيه، ومكانة مثل مكانته، جدير به أن يهاجَم وأن يتهم، فلقد هوجم واتهم قبله من هم أكبر منه سناً وأعرق منه عملاً في الماضي السياسي والسيرة الوطنية، هوجموا زعماء ووزراء ومعتقلين ومشردين، وما برحوا مهاجمين لأن الرجال الذين يضطلعون في هذه الحياة بالمسؤولية السياسية والقيادة الوطنية، لن يكون لهم شأن إذا لم يهاجموا ويُنتقدوا ويكون لهم أعداء وأصدقاء، فإن العقوق من مستلزمات العمل السياسي في كل أمة على ما يظهر!

وماذا يهاجمون في ميخائيل إليان؟ أيهاجمون ضعفه الوطني وقد أثبت في هذه السنين الطويلة أنه من أصلب شبابنا ورجالنا عقيدة، ومن أقواهم أعصاباً وأشدهم شجاعة؟ أم يهاجمون جهله وقد درس في أكبر جامعة، وأتقن ثلاث لغات أجنبية عدا اللغة العربية، وعاش في أرقى الأوساط الاجتماعية والعائلية فكان موضع احترامها وإعجابها؟

يقولون عنه إنه لم يتمرن على السياسة والحكم وإن وزارة الخارجية

كبيرة عليه! ولكن كم وزير للخارجية في هذه البلاد وفي غيرها دخل الوزارة ولم يسبق له عهد بها ولا بغيرها من الوزارات، ثم نجح أو أخفق؟ وميخائيل إليان رجل من هؤلاء وضع ماضيه الوطني وكفاءته وتاريخه في الامتحان، فليس من الإنصاف أن يهاجم رجل لم يُختبر، فضلاً عن أن الذين تولوا وزارات الخارجية لم يولدوا من بطون أمهاتهم وزراءا! فهلا صبر هؤلاء على الرجل حتى يجربوه قبل أن يهاجموه؟

هذه كلمة أكتبها اليوم عن ميخائيل إليان الوزير المسؤول، بعد أن كتبت مثلها منذ أربعة عشر عاماً عن ميخائيل إليان الوطني السجين، وأنا فخور بأنني منسجم فيما أكتب بين ماضي وحاضري وبين ماضي وحاضر الذين أكتب عنهم.

١٩٤٥/٩/٤

هوامش

■ **ميخائيل يورغاكي اليان**: سياسي سوري، ولد في حلب سنة ١٩٠٧، وتلقى علومه في مدارسها، ثم في الجامعة الأميركية ببيروت. خاض المعترك السياسي وهو فتى، فانتسب إلى الكتلة الوطنية واعتقل عدة مرّات. نائب عن حلب سنة ١٩٤٣ و١٩٥٤. وزير الخارجية سنة ١٩٤٥، والأشغال العامة والمواصلات سنة ١٩٤٦، فالاقتصاد الوطني سنة ١٩٤٨، من مؤسّسي الحزب الوطني وأمينه العام في حلب.

■ **صبحي بركات**: سياسيّ ورجل دولة سوري من أصل تركي. ولد في انطاكية، أواخر القرن التاسع عشر، من عائلة إقطاعية. تقلّب في مناصب إدارية بين الإسكندرونة وحلب. ثار على الفرنسيين في جبل بيلان (انطاكية) سنة ١٩١٩، فحكم عليه هؤلاء بالاعدام سنة ١٩٢٠، ثم عفوا عنه بعد أن هادنهم. انتقل إلى حلب، وعُيّن عضواً في المجلس التمثيلي لدولة حلب، ثم انتُخب في ٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٢٢ رئيساً لمجلس الاتحاد السوري. رئيس الحكومة السورية سنة ١٩٢٤، وعضو الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨، ثم عضو المجلس النيابي ورئيسه سنة ١٩٣٢. عُرف بتعاونه مع الفرنسيين بين ١٩٢٠ و١٩٣٢.

■ **لطيف بن بطرس غنيمة**: محامٍ وسياسي سوري. ولد في حلب سنة ١٩٠١، وتعلّم في مدارسها، ثم درس الحقوق في الجامعة السورية. ممثّل حلب في الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨، وفي المجلس النيابي سنة ١٩٣٢، و١٩٤٣، و١٩٤٧، وأخيراً في الجمعية التأسيسية سنة ١٩٤٩. وزير الأشغال العامة سنة ١٩٣٢. عضو في الكتلة الدستورية.

٦٤

الجنرال سبيرس
الممثل النبيل

شهدنا في هذه البلاد كثيرين من رجال السياسة الأجانب تقام على شرفهم حفلات الوداع والتكريم حينما يغادرون بلادنا ويتخلون عن مناصبهم، ولكننا لم نشهد حفلات تقام في سورية وفي لبنان بالروح التي تقام بها حفلات الوداع للجنرال سبيرس، الذي يتخلى عن منصبه ويعود إلى بلاده بعد أربع سنوات قضاها بين سورية ولبنان، يعمل في سياسة هذين البلدين عمل الوطنيين المخلصين أكثر من عمل السياسيين المحترفين.

ولقد قرأنا خطباً كثيرة لسياسيين ووزراء مفوضين من مختلف الدول الأجنبية التي تعاقبت على هذه البلاد، فلم نقرأ مثل الخطب التي قرأناها للجنرال سبيرس في طرابلس وبيروت ودمشق، فقد كانت هذه الخطب دعماً جديداً وقوياً لاستقلال سورية ولبنان، وحضّاً مملوءاً بالحيوية والنشاط على التمسك بهذا الاستقلال الذي اعترفت به الحكومة البريطانية بواسطة هذا الممثل النبيل الذي تودعه دمشق وداعاً منقطع النظير لم تودع بمثله من قبل أيّ رجل أجنبيّ مرّ بهذه البلاد، فالجنرال سبيرس هو أول وزير مفوض لأول دولة ديمقراطية كبرى اعترفت باستقلال سورية وسيادتها الكاملة التامة لا يمتاز بهذه الصفة الرسمية فحسب، وإنما يمتاز بأنه كان مخلصاً لاستقلال سورية، مقتنعاً بأهليتها للحرية والسيادة، ولذلك، فنحن

نـودعه بهـذه العاطفـة القوميـة وبهذا الشعـور المخلص الخالي من التقاليد والمجاملة.

على أن ذهاب الجنرال سبيرس من بلادنا لا يعني كما قال هـو وكما قالت الحكومة البريطـانية في بـلاغها الـرسمي أيّ تغيير في سيـاسة بريطانيا العظمى نحو هذه البلاد التي اعترفت باستقلالها، وتعهدت بدعم هذا الاستقلال، وهي باقية على عهدها، فالأشخاص يتبدلون في بريطانيـا ولكن السياسـة العليا التي تقـرر لن تتبدل البتـة، غير أن الذي يجعلنا نأسف على سفـر الجنرال سبـيرس أنه كـان متحمساً لاستقلال البلاد الصغيرة وحريتها وحقوقها الكاملـة، فلم يسبق لأي رجـل سياسي غـيره أن يقول كمـا قـال هـو في صـوفـر يـوم حفلـة «السبيتفـاير» من أنـه ستكون مهـزلة مـريرة إذا لم تنـل الشعـوب الصغيرة استقلالها في هذه الحرب.

إن السير إدوارد سبيرس لم تكن مهمتـه في سوريـة ولبنان التمثيـل السيـاسي فقط، ولكنه كـان كالمبشرين المؤمنـين يبشرون بـاستقـلال سورية ولبنـان تبشيراً مملـوءاً بالصبـر والاستمرار والنشـاط. وكم نحن في حـاجـة إلى مثـل هؤلاء المبشرين المخلصين، الـذين يبشرون النـاس بحب استقـلال بـلادهم لا بحب دولهم هم أو مصـالحهـا الاستعمارية أو المذهبية.

لقد كانت خطب الجنـرال سبيرس في ســورية ولبنـان حديث النـاس ومواضيع تعليقاتهم في هذا الأسبـوع، بل كـانت بالنسبـة إلى لبنان نصائح ثمينة قيّمة لا يقولها إلا رجل ملأ قلبه حبّ لبنان، فقد أهاب باللبنانيين جميعاً أن يتمسكوا بالتعاون مع جيرانهم بالبلاد العربية، إذ قـال لهم بمنتهى الصراحة: إن تعـاون لبنان مـع جـيرانـه يعني رخاءه وثراءه وسعـادته بينمـا عدم التعـاون لا يجرّ عليـه إلا الفقر والخراب. كما أهاب بممثلي الطـوائف اللبنانيـة أن يبشروا بالتفـاهم ويعلّموا الناس التسامح لأن لبنان في نظر الجنرال سبيرس لا يعيش إلا متفقاً، لأنه ليس لطائفة واحدة معينة بل هو لجميع الطوائف، ولا تستطيـع طائفـة بالـذات أن تفرض فيـه سياستهـا وإرادتهـا عـلى الطوائف الأخرى.

لسنا مبالغين حينما نقول إن الجنرال سبيرس كان مبشراً بـاستقلال بلادنا أكثر ما كان وزيراً مفوضاً لبلاده، وهذه جملته التي ألقاها في

حفلة الصحافة اللبنانية بالحضّ على إنشاء مكتب صحفي للبلاد العربية في إنكلترا وأميركا، إذ يقول: «وإنه لمن دواعي سروري أن أعلم أن الأقطار العربية تفكر تفكيراً جدياً في إنشاء مكتب صحافي لها في إنكلترا وأميركا، إذ إنه من الأهمية بمكان عظيم لأبناء البلاد العربية أن يتفهم القوم في الديمقراطيات الكبيرة مشاكلهم، كما تكون الأقطار العربية قد أدّت خدمة للديمقراطيات في مساعدتها على تجنب الأغلاط بعرضها مصالح العرب عرضاً عادلاً».

وهل نحن في حاجة سياسية قصوى إلى أكثر من أن تعرض قضايانا العادلة على شعوب إنكلترا وأميركا؟ أوليست المشكلة الصهيونية بالنسبة للأميركان ولبعض الإنكليز غامضة على هؤلاء إلا بسبب فقدان الدعاية العربية في هاتين الدولتين؟ وهذا ما يبشر به الجنرال سبيرس ويحضّ عليه في سبيل مصلحة البلاد العربية، فإذا سميناه المبشر الوطني فلا نكون بالغنا في هذه الصفة بعد ما رأيناه من أعماله وما سمعناه من أقواله.

إن دمشق عاصمة البلاد العربية الأولى وقلبها النابض تودع الجنرال سبيرس وداعاً لا تقتضيه الزلفى السياسية ولا المجاملة الدبلوماسية ولكنها تودعه بعاطفتها وقلبها وشعورها.

١٩٤٤/١٢/٨

هوامش

■ **الجنــرال إدوارد سبيرس (١٨٨٦ ـ ١٩٧٤)**: جنـرال إنكليـزي، وسفـير إنكلتـرا في لبنان سنة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤. ناصر حكومة الاستقلال، وسـاعدهـا في مواجهـة النفوذ الفرنسي.

■ **صوفر**: قرية في قضاء عاليه بجبل لبنان، ومصيف مشهور.

■ **السبيتفاير (Spit-Fire)**: نوع من الطائرات التي استخدمها الإنكليز في الحرب العالمية الثانية.

٦٥

الجنرال سبيرس
الأجنبي الوفي

في هذا اليوم يوجه الجنرال سبيرس النائب البريطاني في مجلس العموم سؤالاً إلى وزير الخارجية يسأله فيه: هل تحقق العهد المقطوع باستقلال سورية الذي أعلن في أيلول ١٩٤١، وهل أن فرنسا ستسلم لسورية قواتها الوطنية وصلاحيات الحكم والاستقلال؟ وهل وزير الخارجية البريطانية مقتنع بأن هذا العهد قد تحقق؟ وإن لم يكن مقتنعاً بذلك فهل قام أو سيقوم بمساعٍ لدى الحكومة الإفرنسية بهذا الصدد؟ ذلك لأن الحكومة البريطانيةً قد أيدت ذلك العهد، ثم هل قامت الحكومة السورية بأي سعي لدى وزير الخارجية طالبة مساعدة الحكومة البريطانية بذلك؟ وإذا لم تفِ فرنسا بتعهداتها فما هو موقف إنكلترة؟

ليس هذا السائل المتحمس نائباً من نواب مجلس العموم البريطانيين الذين يحبون أن يوجهوا الأسئلة إلى الوزراء إعلاناً عن أنفسهم أو حباً بالكلام، بل إن صاحب هذا السؤال قبل أن يكون نائباً هو رجل من أكابر رجال بريطانيا الذين لمع نجمهم في هذه الحرب، والذين حملوا رسالة التحرير والاستقلال للشعوب الصغيرة ولا سيما سورية وبلاد العرب، فالجنرال سبيرس لا يحتاج إلى تعريف في هذه البلاد ولا تنقصه الخبرة عنها، ولكن الذي يجب أن يعلق عليه الكاتب الصحفي هو هذا الوفاء الذي يبدو من الرجل

الذي كان أول سفير لأول دولة أوروبية كبرى اعترفت باستقلال سورية اعترافاً صحيحاً.

إن الجنرال سبيرس يسأل وزير الخارجية البريطانية عن موقف إنكلترا من عدم الوفاء لسورية بتعهدات الاستقلال والسيادة، كما يسأل حكومته لماذا لم تسلم فرنسا القوات السورية الوطنية للحكومة السورية المستقلة، كما يسأله عن موقف هذه الحكومة نفسها وهل تقدمت بطلب وساطته لحمل فرنسا على تسليم الجيش لأهله؟

نحن نفهم من سؤال الجنرال سبيرس مثلاً من أفضل أمثلة الوفاء السياسي لأمة صغيرة وثقت ببريطانيا يوم تعهدت هذه الدولة الكبرى في أيلول عام ١٩٤١ بأن الانتداب الإفرنسي قد ألغي وأن الاستقلال قد أعلن، ولقد كانت ثقتنا عظيمة لأن رجلين من أكابر رجال بريطانيا قد تعهدا باسم بلادهما تعهداً صريحاً بأن بريطانيا «تكفل» ما تقطعه فرنسا المحاربة لسورية باسم الجنرال ديغول من وعود وعهود في الحرية والاستقلال، أما الرجلان البريطانيان فهما رجل عسكري كبير كان القائد الأعلى للجيوش التي حررت سورية من حكومة فيشي وهو الجنرال ولسن، الذي ألقى من طيارات بريطانية حلقت في جو دمشق منشوراً يحمل توقيعه يعلن فيه استقلال سورية وإلغاء الانتداب، وأما الرجل الآخر فهو السير لامبسون «اللورد كلين اليوم» سفير بريطانيا في مصر الذي وقّع هو الآخر منشوراً أيّد فيه استقلال سورية وسيادتها وإلغاء الانتداب عنها من غير أن يشترط شرطاً أو ينص على قيد سوى الانضمام إلى الحلفاء.

فنحن إذن نفهم من موقف الجنرال سبيرس في البرلمان البريطاني نوعاً جميلاً من الوفاء السياسي والأخلاقي لا لسورية فقط، بل لبريطانيا أيضاً، لأن الذين حملوا سورية والسوريين على الثقة بعهود الاستقلال والحرية إنما كانوا بريطانيين، ولولا أن يكونوا كذلك لما وثق أحد بأن الانتداب سيلغى، والاستقلال سيصير أمراً واقعاً، فلطالما ألغي هذا الانتداب وعقدت معاهدات وعدلت نصوص وصيغت ملاحق وحورت اتفاقيات ثم لا يلبث الأقوياء أن يقولوا إن الانتداب باقٍ لأن عصبة الأمم لم تقرر إلغاءه، فضلاً عن أن الجنرال سبيرس كان البريطاني الكريم الذي حمل كتاب مليكه

وحكومته بالاعتراف باستقلال سورية وسيادتها. وهو الذي أخلص لهذا العهد الذي يحمل اسم ملك بريطانيا وشرفها وتقاليدها، فإذا وقف اليوم في البرلمان البريطاني بصفته نائباً لا وزيراً ولا سفيراً، يطالب حكومته بأن تحقق لسورية استقلالها، فإنما يفعل ذلك حتى لا يصاب السوريون بخيبة أمل ثانية من بريطانيا كما أصيبوا في الحرب الماضية.

إن الجنرال سبيرس يذكر جيداً مصير الكولونيل لورانس وموقفه من العرب وموقف العرب منه، فهو حريص على أن لا تكون حكومة عام ١٩٤٤ كما كانت عام ١٩١٩، وأن لا يكون هو وعهوده ووعوده وحماسته كما كانت عهود ووعود الكولونيل لورانس.

إن للجنرال سبيرس ناحية خاصة قلّ أن تكون لرجل سياسي آخر، وهي ناحية الوفاء الشخصي للذين عرفهم ووثق بهم، فقد عرف السوريين وأحبهم، فوثق بهم، وها هو يدافع عنهم وعن استقلال بلادهم بكل رجولة وإخلاص.

لقد قال لهم وهو يودعهم إنه لن ينسى سورية تحت قبة البرلمان البريطاني. وسرعان ما أثبت الرجل أنه شريف وصادق، وها هي مواقفه منذ أن وصل إلى لندن، فتارة هو خطيب في البرلمان، وأحياناً محاضر في إحدى الجمعيات السياسية، ويوماً يدلي بتصريحات للصحافة، وهو في كل هذه المواقف إنما يدافع عن سورية واستقلالها، ويشيد بمكانتها وجدارتها بالحرية والاستقلال.

تقول العرب في أمثالها: ربّ أخ لم تلده أمك.

ولقد ربحت سورية هذا الأخ العظيم الذي لم تلده أمّ سورية أو عربية، ولكنها كم تتمنى لو ولدت العشرات من أمثاله، لأنه يكاد يكون الأجنبي الوحيد الذي وفى لها هذا الوفاء المنقطع النظير في هذه الحرب.

ورحم الله شوقي إذ يقول:

ورب امرىء لم تلده البلاد نماها ونبه أنسالها
وليس اللآلىء ملك البحار ولكنها ملك من نالها

١٩٤٥/١/٢٥

هوامش

■ **شارل ديغول (١٨٩٠ ـ ١٩٧٠)**: قائد فرنسي ورجل دولة كبير. دعا إلى مقاومة الألمان بعد هزيمة سنة ١٩٤٠ في نداء أطلقه من لندن. رئيس الحكومة الموقتة سنة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦، ورئيس الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩. له مذكرات.

■ **حكومة فيشي**: هي الحكومة الموالية للاحتلال النازي في فرنسا بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤، ومقرّها مدينة فيشي (Vichy).

■ **السيرلامبسون (اللوردكلرن)**: هو السفير البريطاني في القاهرة خلا الحرب العالمية الثانية. أذاع سنة ١٩٤١ بياناً جاء فيه أنّ حكومة صاحب الجلالة فوّضت إليه أن يعلن ضمانها للاستقلال الذي منحه الجنرال كاترو سورية ولبنان.

الجنرال سبيرس
صديق العرب

أطلّ على دمشق ظهر أمس رجل من الجو، أحب دمشق، وأخلص لها، فقد فارقها منذ أكثر من سنة ونصف محتلة بجيوش العدو وجيش الصديق معاً، فعاد إليها اليوم، وليس فيها أحد من الجيشين. سافر منها ومطارها وسماؤها بيد المحتل فعاد إليها والمطار بيد جيشها والسماء موطن لطياريها.

عرفها بلاداً يموت من التعذيب في سجن الأجنبي من أبنائها شيوخ وشباب، فعاد إليها ليلقاها بلاداً يموت في سبيلها شباب يتطوعون للموت من أجل الجيش والطيران، فقد كان لها شهداء يموتون في نضال الغاصب ثائرين، فأضافت إليها نسوراً يموتون في الجو مختارين فخورين.

إن هذا القادم أمس إلى دمشق إنما هو الجنرال سبيرس أو السر ادوارد سبيرس صديق العرب الوفي، وأول وزير لأول دولة اعترفت باستقلال سورية حين كان هذا الاستقلال مشكوكاً فيه، وحين كان الاحتلال الإفرنسي بجنوده وضباطه وموظفيه الحاكم المطلق لهذه البلاد في ظل الحراب والسجون والإرهاب والفزع، وأيام كانت كرابيج «المليس» أو عسكر المستشارين وضباط الاستخبارات تقوم مقام القضاء والبرلمان والوزارة. ففي ذلك الوقت المملوء باليأس

والخـوف والاحتلال، حمـل الجنرال سبـيرس إلى سوريـة اعتـراف بريطانيـا العظمى بالاستقـلال والسيادة، ثم تبعتهـا الدول الأخـرى بهذا الاعتراف من عربية وأجنبيـة. فإذا بهـذا البريطـاني الموظف ينقلب من وزير مفوض يمثـل دولته، إلى صـديق مخلص يدافـع عن الـدولة التي حمـل إليها اعتـراف حكومتـه في الاستقلال بحمـاسة وشجاعة. حتى صار حبه لهذه البلاد سبباً في نقمة فـرنسا واليهـود عليه. فاحتج الجنرال ديغول على وجـوده في سوريـة أكثر من مـرة، وحاربه اليهود في الانتخابات حرباً هائلة، حتى حملوا بعض نـاخبي دائرته في «كارليل» أن سألوه هـذا السؤال المحرج: «هل ستكون في مجلس العموم ممثلاً لهذه الدائرة أم ستكون ممثلاً لسورية ولبنان»؟!

لقد ودعت دمشق الجنرال سبيرس يوم عاد إلى بلاده وداعاً لم تودع أجنبياً بمثله في تاريخها، ومنحته لقب «مواطن» لها فكان أول أجنبي ظفر بهذا اللقب من المدينة التي مـا أحنت رأسها لفـاتح ولا أذعنت لمحتل ولا هادنت غاصباً ولا خافت من قوي. منحتـه صفة المـواطن مختارة عن حب وتقدير لا عن خوف وإكراه، لأنها اعتقدت بأنه جدير بهذا اللقب وبهذا التقـدير. كمـا كان هـو أيضاً نفسـه فخوراً بلقب «المـواطن الدمشقي». فقـد برهن بنبـل وإخلاص عن أنـه خليق به وأهـل لحمله، فلطـالما وقف ينـاصر سوريـة ويدافـع عن استقلالهـا ويؤيدها في الجلاء الإفرنسي والبريطاني عـلى السواء، فكان المواطن الوفي للبلد الذي حمل اسمه وتقلّد شعاره. كان وفيـاً بما قطعـه على نفسه من خدمته والدفاع عنه بكل قوته واستطاعتـه، كما كـان وفياً أيضاً بما وعده من زيارتـه. وها هـو اليوم يفي بـالوعـدين، ويمتاز بالخلقين: خلق الوفاء السياسي وخلق الوفاء الشخصي.

أمـا وفاء دمشق لهـذا المواطن فهـو أنها تستقبلـه اليوم بـالعاطفـة نفسها التي ودعته بها من قبل، فقد ودعته نـائباً في مجلس العمـوم ورجلاً بارزاً في حكومة المحـافظين. وهي تستقبلـه اليوم لا نـائباً ولا وزيـراً ولا من حزب الحكـومة، ولكنهـا تستقبل فيـه الأجنبي الوفي والمواطن الكريم والرجل الذي يشبه في أخـلاقه وشجـاعته فـرسان القرون الوسطى الذين كانوا يضعون الوفاء والشرف فوق كل شيء.

١٩٤٦/١٠/١٨

هوامش

■ **كرابيج الملّيس**: سياط ليّنة ناعمة الملمس.

عبد الله سيف الاسلام
رسول أول دولة
عربية مستقلة

تستقبل دمشق عاصمة بلاد الشام ساعة صدور هذا العدد حضرة صاحب السمو الأمير عبدالله سيف الإسلام نجل حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ملك اليمن وإمامها الشرعي.. تستقبل هذه المدينة العربية سيداً من سادات العرب الأوائل، رسول أول بلاد عربية تحررت من الحكم العثماني التركي وأعلنت سيادتها واستقلالها، بعد أن قاتلت في سبيل حريتها سنين طويلة، وتستقبله حفية به، فخورة بزيارته، مشيدة بما لوالده العظيم من مزايا غالية وصفات كريمة وعلم غزير وشجاعة نادرة، يزينها إيمان قوي وعزيمة ماضية وتقى وصلاح.

تستقبل دمشق أول رسول يماني يمثل أعرق دولة في الحضارة وأول مملكة انتزعت استقلالها قبل أن تفكر أية بلد بالاستقلال، وبالانسلاخ عن الدولة العثمانية. بل إن بلاد الشام إذ ترحب برسول اليمن فإنما ترحب بقطر عربي عزيز ضرب المثل الأعلى قبل غيره من بلاد العرب بالاعتماد على النفس، فانتزع استقلاله بسيوف أبنائه وبقيادة إمامه من غير أن يعتمد على أية معاونة أو مساعدة، أجنبية أو عربية. فكانت الدولة اليمانية أول دولة عربية أنشأت لها جيشاً وطنياً مدرباً على الأصول العسكرية النظامية، وقد عاشت في عزلتها الطويلة نيفاً وأربعين سنة، محتفظة باستقلالها، مطمئنة إلى

سيادتها، لم تخدعها أحابيل السياسة، ولم تطمئن إلى وعودها الخلابة،فكانت عزلتها قوة لها في تدعيم استقلالها وحفظ كيانها. وها هي اليوم تخرج من هذه العزلة القديمة لا لتنضم إلى دول أجنبية ولا لتتعاقد مع حكومات أوروبية، ولا لتمنح امتيازات خاصة أو مراكز ممتازة لأية دولة من الدول، وإنما خرجت من تلك العزلة لتنضم إلى جامعة الدول العربية بعد أن تألفت هذه الجامعة وبعد أن استقلت دولها، فكان انضمام اليمن إلى ميثاق الجامعة قوة لها وتأييداً للفكرة العربية القومية التي أصبحت في هذه الظروف وحدة قومية يحسب حسابها إذ تمثل نيفاً وأربعين مليوناً، من العرب يمتدون من شاطىء الخليج إلى شاطىء عدن.

لقد مثل ضيف دمشق العظيم بلاد اليمن في مجلس الجامعة العربية، فكان مثال الوطني الصميم والسياسي الحاذق والعربي العريق. وليس عجيباً أن يكون مندوب اليمن وابن إمامها متصفاً بهذه الصفات الكريمة وهو الرجل الذي يرمز وجوده في جامعة الدول العربية إلى ملك قديم وحضارة عظيمة وعلم غزير ودين قويم، وإذا رحبت بلاد الشام به فإنما ترحب بجزء عزيز من بلاد العرب وبرسول كريم من أحب أمراء العرب إليها.

لم يشأ سيف الإسلام، أن يمثل بلاده في جامعة الدول العربية وينضم إلى هذه الدول وهو يجهل بلادها وأقطارها، فقام برحلة طويلة من مصر إلى فلسطين فشرق الأردن، فالعراق زائراً باحثاً مطلعاً، وها هو اليوم يصل إلى دمشق بعد أن مر بأكثر مدن سورية فيجمع إلى وجوده في الجامعة خبرته ببلاد هذه الجامعة. ولا ريب أن زيارة سيف الإسلام لهذه البلاد تعتبر بادرة من أبرك بوادر الإخاء والتضامن بين العرب جميعاً. فنحن نرحب به ونسجل اغتباطنا بهذه الزيارة التاريخية التي نرجو أن تكون وسيلة من وسائل إنشاء العلاقات السياسية والدبلوماسية بين بلاد الشام وبلاد اليمن.

قد يكون من حسن حظ هذه البلاد أن كثيراً من أبنائها يعرفون بلاد اليمن، بل إن فريقاً منهم عمل في حكومتها وفي جيشها، فمنهم العسكريون والزراعيون الذين استدعاهم جلالة إمام اليمن، فنعموا بعطفه ورعايته، وعادوا إلى بلادهم يحملون لجلالته عاطفة الإعجاب

والامتنان والتقدير، بل إن رجالاً من هؤلاء كان لهم شرف الاتصال بضيف سورية صاحب السمو سيف الإسلام عبدالله حيث عملوا تحت رئاسته، وانتفعوا بعلمه وإرشاده وخبرته. فإذا جاء اليوم إلى دمشق فإنما يأتي إلى بلد يجد له فيه أهلاً وأصدقاء ومعجبين.

ودمشق التي كانت وما برحت مصدر الفكرة العربية، وموطن المجاهدين في سبيلها والمستشهدين من أجلها، ترحب مغتبطة فخورة بأكرم رسول وبابن أعرق إمام حمل راية الجهاد في سبيل الاستقلال وفي سبيل العرب.

١٩٤٥/١٢/٧

هوامش

■ **عبد الله سيف الاسلام هو عبد الله بن يحيى حميد الدين الحسني (١٩٠٧ - ١٩٥٥)**: نجل الإمام يحيى ملك اليمن، و«سيف الإسلام». ولد في صنعاء، وتعلّم فيها. مندوب بلاده لدى الأمم المتحدة، ووزير الخارجية على عهد أخيه الإمام أحمد. قاد ثورة على الإمام أحمد، لخلاف على ولاية العهد، فانتهت بهزيمته ومقتله.

مظهر البكري ممثل سورية في تطورها

يوم ودعت دمشق محافظها السابق مظهر البكري منذ خمسة عشر شهراً قال لي بعض الناس: «هذا أول محافظ يخرج من دار البلدية بلا شماتة ولا تهم... بعد أن أقام فيها سنتين كاملتين»، فقلت له: «ولعله آخر محافظ يخرج مأسوفاً عليه ويتمنى معظم سكان هذه المدينة لو بقي محافظاً لها ولم يعين وزيراً مفوضاً». فمظهر البكري كان يمثل وجه دمشق الجديد بعد الاستقلال كما كان يمثل نهضة سورية وتطورها بعد أن تمتعت بكامل حريتها وجميع سيادتها، فلقد ملأ أرض العاصمة إنتاجاً وعمراناً، كما ملأ جوها ابتساماً ومرحاً. ولكن هذا الوجه الجديد الجميل وقد توارى في التراب فتوارى معه شباب حلو وحديث عذب وخلق كريم، مجموعة كاملة من الصراحة والوفاء ومن المروءة والحنان.

هذا هو الرجل الذي ودعته دمشق منذ سنة محافظاً ناجحاً في إنشاء المدن وعمرانها ليكون سفيراً أشد نجاحاً في تمثيل بلاده لدى أعظم جمهورية لاتينية تقيم فيها أكبر وأغنى وأرقى جالية سورية، ولكنها تستقبله رفاتاً هامدة بعد أن ودعته ينبوعاً لا ينضب من الحيوية والذكاء واللياقة، فخبا اليوم هذا الينبوع وقال أهل دمشق بدموع وحزن: «لقد مات مظهر البكري!».

لقد كان مظهر البكري ممثلاً سياسياً لوطنه من الطراز الأول، وليس

نجاحه لأنه كسب محبة الجالية السورية في البرازيل أو نال احترام حكومة تلك البلاد فقط، بل إنه ربح محبة الجالية اللبنانية وثقتها واحترامها أيضاً، بحيث صارت المفوضية السورية داراً للجاليتين بلا تفريق أو تمييز. ولعله أول وزير سوري ومسلم يلقى ما لقيه من هذه الجاليات كلها من الحب والاحترام والثقة.

لقد نجح بذوقه السليم ولياقته النادرة وتهذيبه العالي، ونال هذا الإعجاب وذلك الحب ببساطته وصراحته بعيداً عن التصنع والغموض. يضاف إلى هذه المزايا كلها كرم وسخاء مثل السحاب، ووطنية عاقلة مخلصة، متواضعة، لا تمنّ على الوطن بجهاد، ولا تستغل هذا الجهاد لأغراض حقيرة ولا تغدر بالناس لمآرب وضيعة، فقد صانه عن جميع هذه الدنايا كلها، ذلك الخلق البارز فيه وهو الوفاء، كما رفع شأنه بين الناس وأعلى قدره بين أصدقائه تهذيبه العالي وعفة لسانه المتناهية.

إن مظهر البكري عرف كيف يمثل سورية المستقلة أصدق تمثيل، فقد كان صورة صادقة لتحررها السياسي وتطورها الاجتماعي. فهو من هذه الناحية يعتبر بحقّ وجه دمشق الجديد، لأنه كان من أنصار التطور، ولم يكن من أنصار الطفرة، وها هي سورية بعد الاستقلال النموذج الصحيح لهذا التطور الذي نقلها من الاستعباد إلى الحرية، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الخراب إلى العمران.

والآن يعود أصدقاء مظهر البكري من دفنه ومن تشييعه، وما أكثرهم في هذه المدينة وفي غيرها، إنهم يعودون مفجوعين يحتاجون إلى من يعزيهم ويواسيهم فيه فما كان موته خسارة لعائلة أو طائفة. بل كان فاجعة لمدينة وبلاد ودولة وإذا كان مات بعيداً عن بلاده أو غريباً عن وطنه فلقد مات في ذروة النجاح وفي قمة المجد، فهو في موته كما قال أمير الشعراء:

يموت في الغاب أو في غيره الأسد   كل البلاد وساد حين تتّسد

١٩٤٨/٨/٣

هوامش

■ **مظهر البكري**: سياسي ودبلوماسيّ سوري، ولد في دمشق، وتلقّى علومه في معاهدها. شارك في الثورة على الفرنسيّين، وانتسب إلى الكتلة الوطنية. تقلّب في مناصب إداريّة قبل أن يُعيَّن محافظاً لدمشق، فوزيراً مفوّضاً لدى البرازيل، وهناك توفي سنة ١٩٤٨.

٦٩

مات سعد الله الجابري!

هذا هو العنوان الوحيد الذي يستطيع الآن أن يضعه كاتب مثلي، فجع اليوم بمثله الأعلى في الوطنية والسياسة والأخلاق، لمقالة يكتبها عن موت سعدالله الجابري، فأية جملة أو عبارة أو كلمة يزخر بها الأدب العربي ولغته الخصبة الغنية، تليق بأن تكون عنواناً لخبر أو مقال ينطوي على ذكر هذه الكارثة القومية، سوى هذه الجملة القاسية الموجعة الصاعقة: مات سعدالله الجابري؟! لأني أخشى أن أسيء إلى عظمة الرجل وتاريخه وذكراه إذا حاولت أن أضيف إلى عنوان الموت القاهر عنواناً آخر من عناوين الحياة.

إنه يكفي أن يقال فقط: مات سعدالله الجابري، ليردد السامعون والقارئون في هذه الدنيا العربية كلها: «مات رئيس حكومة الاستقلال والجلاء والإباء»، وأن يصيح الناس في جميع المدن والريف والبادية: يا للفاجعة التي لا تحتمل، ويا للخسارة التي لا تعوض! ويا للوطن الذي ظفر في خلال سنتين بأعظم نعمة من نعم الدنيا وهي الاستقلال، ثم نكب بأقسى نكبة من نكبات الحياة وهي موت سعدالله الجابري!

أفبعد هذه الجملة الحزينة التي تبكي من نفسها، وتبكي من يسمعها، يحتاج نعي سعدالله الجابري في خبر أو مقال إلى عناوين أو سطور أو كلمات؟!

ماذا يستطيع كاتب مثلي صحب سعدالله الجابري خمساً وعشرين عاماً أو تزيد، وعرفه في سرائه وضرائه وسجونه ومنافيه ونضاله وسلمه وسياسته وحكمه ورئاسته وزعامته، وخبره في الشارع وفي الحزب وفي البرلمان أن يكتب عنه اليوم؟! بل ماذا ينتظر القراء مني أن أكتب لهم وأقول عن رجل حملتُ لواءه، وبشرت بزعامته، واعترفتُ برئاسته طوال هذه السنين ثم تلقيت خبر موته الآن؟

وما هي الصفات التي يطلب إلي أن أشيد بها والمزايا التي أعرّف الناس عليها؟! أأكتب عن وطنيته ورجولته لهذا الجيل من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين وقد قادهم إلى معركة النضال قيادة كلها تضحية وشجاعة وأمانة، وبذل في سبيل هذا العهد كل ما كان يملكه من شبابه وعقله وصحته ونفسه؟! وهل كان يملك إلا هذه الثروة الغالية الكريمة التي أعطاها كلها لبلاده؟!

إن الشباب لا يحتاجون إلى من يقصّ عليهم قصص هذه التضحية لأنهم أوفياء بخلقهم وطبعهم، ولكن هناك آخرين غير الشباب يجب أن يقال لهم: إن سعدالله الجابري بدأ حياته مناضلاً وانتهى ضحية. دخل معركة السياسة غنياً ومات فقيراً. عامل الناس بالوفاء فكافأوه بالعقوق. جعل من بعض الأشخاص نواباً ووزراء وتخطّى بهم المراتب والدرجات فما زالوا به يطعنونه ويهدمونه حتى انتهى هو إلى الموت وانتهوا هم إلى الاستغلال والشهرة.

ماذا أقول للناس عنك بعد موتك وقد قلت لهم الكثير عنك في حياتك؟!

كيف أكتب لهم أنك ذهبت إلى القبر؟ ولطالما كتبت لهم خلال عشرين سنة أنك ذهبت إلى السجن أو عدت من المنفى تتحدى الموت فلا ينالك، ثم قدت معركة سورية خلال أربع سنين إلى النصر، فكانت وزارتك الأولى وزارة النضال والإباء، وكانت الثانية وزارة الاستقلال والجلاء، وحاولت أن تجعل الثالثة وزارة الاستقرار والإنشاء، فكانت وزارة العقم والداء والعياء!

قل لي يا فقيداً لن يعوض! أأقول للعالم إنك كنت رجل دولة من الطراز الأول، وبرلمانياً فذاً لا يجارى، وحاكماً نزيهاً فوق الشبهات، ورئيساً أميناً لا تطال الظنون، بل رجلاً كانت صداقته ظفراً وخصومته فخراً، وهل يحتاج العالم إلى من يعرفه بمثل هذه الصفات فيك؟

لقد ذهبت على حساب الأصدقاء والأعداء لأنك كنت رجلاً كفؤاً للخصومة والصداقة معاً. فما حقدت على خصم ولا ضعفت أمام صديق، بل كنت تقسو على أصدقائك فتعطي حقوقهم لأعدائك، لأنك كما فرضت التضحية والحرمان على نفسك فقد فرضتهما على أصدقائك وأهلك أيضاً.

يا زعيمي ورئيسي!

لست شاعراً فأرثيك وأصوغ لك الرثاء من كبدي ودمعي، فلقد وددت أن أقول فيك ما قاله أمير الشعراء:

خيرت فاخترت المبيت على الطوى   لم تبن ملكاً أو تلمّ ثراء
إن البطولة، أن تموت من الظمأ   ليس البطولة أن تعبّ الماء!

لأنني لا أجد في رجال السياسة والحكم من يفتخر بهذه المزايا أكثر منك؛ ولكني كاتب صحفي جاف؛ هجرتني رقة الأدب، وعافني سحر البيان، ثم جاء خبرك اليوم فإذا بي أمامه جامد الفكر والقلم والدمع! وهل الدموع إلا مروحة الحزين كما تقول العرب؟ ولكن مصابي بفقدك حبس حتى الدمع عن عينيّ! أما مصاب الوطن بموتك فإذا كان اليوم شديداً فقد يكون غداً أشد، يوم تتلفت الرؤوس وتشرئب الأعناق فلا تجد سعدالله رجل الدولة وسيد الحكم وزعيم البرلمان، يلبي إذا دعي، ويجيب إذا نودي.

يقولون إن المصيبة تبدأ كبيرة ثم تصغر، ولكن مصيبة سورية بموت سعدالله الجابري، ستكبر كلما مرت الأيام ومضت الأعوام، وسيظهر عظم هذه المصيبة حين تطلب البلاد من ينقذها من ضعف الحكومة وميوعة الرجال وفوضى الإدارة وطغيان الشارع، فلا تجد سعدالله ولا رجلاً مثل سعدالله! وحينئذ فالمصيبة لا تكبر فقط بل تنقلب إلى كارثة!

والآن! فقد مات سعدالله الجابري فأيّ كاتب يقوى على أن يفيه بعض حقه من القول في مقالة أو صفحة أو كتاب، وهو الذي أوحت سيرته وصفاته وأعماله للكتّاب من الأصدقاء والخصوم على السواء أن يكتبوا عنه نيفاً وعشرين سنة.

فعفواً يا زعيمي ورئيسي إذا عجزت اليوم أمام موتك عن الوفاء

ببعض حقك على هذا الوطن في عهد نضاله وفي عهد استقلاله، وحسبي أن أعلن هذا العجز متعزياً بقول شوقي:

أيـن مني قلـم كنـت إذا سمعتـه أن يرثي الشمس رثـاها
خـانني في يـوم «سعد» وجـرى في المـراثـي فكبـا دون مـداهـا

١٩٤٧/٦/٢٢

سعد الله الجابري
أراد انشاء دولة
فَحُلنا دونه

أيّ رجل هذا الذي تجتمع بلاد العرب في دمشق لتذكره وتؤبنه؟ وأيّ فقيد هذا الميت الذي تتزاحم دول العرب على الاشتراك برثائه والإشادة بمناقبه؟

إنه زعيم النضال الشعبي وبطل التضحية بالنفس والرئيس الذي تولّى الوزارة والاستعمار باسط شبحه المرعب على كل شيء في هذه البلاد، فما غادر الحكم إلا وقد محيت آثار هذا الاستعمار وتلاشت ظلاله من الأرض والجو والبحر، إنه سعدالله الجابري الذي كانت وزارته الأولى وزارة الهجوم والقتال، وكانت وزارته الثانية وزارة الجلاء والاستقلال، ولقد أراد أن يجعل من وزارته الثالثة وزارة الاستقرار وإنشاء الدولة، فحِيل بينه وبينها، فخرج من الحكم والعقوق يحز في نفسه، والاستهتار بأعماله يزيد في آلامه، فذهب ضحية لنكران الجميل الذي نحاول اليوم جميعنا أن نكفر عنه بما نقدمه له في ذكراه من بكاء ورثاء وتقدير.

لننظر في جوانب هذه الدولة ونواحيها، ولنمد البصر في آفاقها، ولنستعرض ما في هذه الجمهورية من ازدهار وعمران ومرافق للاقتصاد وصروح للعلم ومستشفيات وطرق، فهل نجد إلا مشاريعه وضعها سعدالله الجابري في وزاراته الثلاث؟

فلقد كان رجل حكم ورجل جدٍّ ورجل عمل، يفهم الدولة إنتاجاً وحركة، ويعرف الحكم تنفيذاً وبتّاً، ويضع روح القانون فوق كل شيء، ويعتبر إرادة الدولة أمراً مقدساً.

لقد أراد في وزارته الثالثة أن يجدد في القوانين والصلاحيات ويوزع المسؤوليات على الوزراء والمديرين والموظفين، فعكف على وضع تلك الملاكات الممتازة المنسقة لكل دائرة من دوائر الدولة، فقالوا إنه يسلب مجلس النواب صلاحياته، ويضعف من السلطة التشريعية ليزيد في قوة السلطة التنفيذية، وإنه يخالف الدستور وهم يعرفون أنه كان في مشاريعه وملاكاته يكافح العجز والفوضى والخيانة، ويحاول تدعيم أسس الدولة بعد أن جلا الأجنبي عنها، وصار من حقّ أهلها وحكامها أن يكونوا أقوياء ومحترمين. ولكن الذين عارضوه وأقاموا المظاهرات احتجاجاً عليه، هالهم أن يخسروا شعبية رخيصة لهم ويفقدوا عطف الشارع وزلفاه، فترك الحكم بعد أن تخلى عن تأييده رجال كثيرون فقدوا شجاعتهم في مجابهة الباطل ورد طغيان الشارع.

وها نحن اليوم نبكي الرجل الذي لم نحسن تقديره في حياته، ونشيد بمناقب الحاكم الذي ما عرفنا كيف نستفيد من قوته وتجرده وأمانته شأننا بل شأن جميع الشعوب التي تطمع في الأحياء من رجالها وتزهد بالأفذاذ من أبطالها، حتى إذا طواهم الموت وقفوا يبكونهم ويندبونهم وهم في الحقيقة إنما يبكون عقوقهم لهم ويكفرون عن سيئاتهم نحوهم.

توجد في هذه البلاد أسطورة سيطرت على عقول الكثيرين من الناس، وهي أن الأشخاص لا قيمة لهم إذا زالوا، وإنما القيمة للمبادىء وحدها التي يضعونها، في حين أن الصواب هو أن الأشخاص في الأمم الناشئة والدول المبتدئة يجب أن يكونوا فوق المبادىء، لأنهم هم الذين يحمون بأنفسهم ما وضعوه منها لدولهم وبلادهم، وأن من واجب الذين يعيشون في تلك البلاد أن يحرصوا على الأشخاص، وأن يحسنوا الاستفادة منهم في حياتهم حتى لا يصابوا بالندم بعد موتهم. وها هو سعداالله الجابري أحد أولئك الأفذاذ الذين تظفر بهم البلاد الناشئة مرة في كل جيل فيضعون لها أحسن المبادىء وأفضل القواعد، ولكنهم إذا ماتوا لا يوجد من يستطيع حماية هذه المبادىء وتثبيت تلك القواعد. ونحن في سورية لم نفجع بشخص سعداالله

الجابري بل فجعنا به وبمبادئه معاً، فإذا بنا أمام مصيبة مـزدوجة ونكبة فادحة، وخسارة لا تعوض.

أتـرى أية قيمـة تكون للمبـادىء والأسس وحدهـا لو لم يـوجـد في الإسلام بعد وفـاة النبي أشخاص عبـاقرة أفذاذ، استطاعـوا بقوة أشخاصهم وعظمة عقولهم وكبر نفوسهم أن يحموا مبادىء الإسلام ويثبتوا أسسه باللين والحكمة حيناً والسيف والدم حيناً آخـر؟ وهل كانت تعيش المسيحية وتنتشر لو لم يوجد بعد السيـد المسيح رجـال استعذبوا المـوت وطلبوا الشهـادة في سبيل الـدين الذي تـركه لهم صاحبه وسيده؟

فلنقلع إذن عن تلك الأسطـورة، ولنحرص عـلى الأشخاص القـلائل الذين تظفر بهم بلادهم في أيام حاجتها إلى القيـادة والزعـامة، فـلا تهـدمهم وتسيء إليهم ونقول إن الأشخـاص يجب أن يـزولـوا، وأن المبادىء والقواعد هي التي يجب أن تخلد. لأن التجـارب أثبتت أن الأشخاص قبل المبادىء.

قـد يتعب الكاتب ويضيق ذرعـاً حـين يحـاول أن يكتب عن شخص قليل الصفات فقير المواهب، لأنه لا يجد فيه مادة يقدمها لقرائه عنه، ولكن هذا الكاتب بالذات قد يلاقي التعب نفسه والضيق نفسه حين يكتب عن رجل عظيم في خلاله، غني في صفاتـه، خصب في مواهبـه، وحـافـل في تـاريخـه، وإني لأشعـر الآن حـين أكتب عن سعـد الله الجـابري بعجـز يملك عـليّ فكري لكثـرة ما أجـد فيه من خصب في القول، وتعدد في المزايا، فأحار في سرد نـواحٍ أقدمهـا على الأخـرى فإذا بي ألجأ إلى الأدب، فلا ألقاه في نفسي، وإلى البيان فلا أجده في قلمي، فـأهرع إلى الشـاعر العبقـري الفذ الـذي وهبه الله المقـدرة الفـائقة عـلى وصف الـرجـال ورثـاء العظمـاء. ومن أولى من رجـل كسعدالله الجابري بشعر شاعر كأحمد شـوقي؟ فقد قـال في وصف رجل الدولة ما ينطبق على الرجل الذي نؤبنه ونذكره ونرثيه:

يا باني الصرح لم يشغله ممتدح — عن البنـاء ولم يصرفـه منتقـد
أصم عن غضب من حوله ورضي — في ثـورة تلـد الأبطـال أو تئـد
فتـأت في جبهة الـدنيا وفي فمهـا — يدور حيث تدور المجـد والحسد
نَمْ غير آس على ما شدت من أسس — ما شيد للحق فهـو الخالد الأبد
طوى حمايتـه المحتل وانبسطت — حمـاية الله فـاستذرى بهـا البلد

١٩٤٨/٤/٦

سعد الله الجابري
بعد ثلاث سنوات

إن ثلاث سنين تمر على موت رجل في أمة من الأمم مهما كان عظيماً، تكفي على الغالب لنسيانه واحتسابه عند الله. أما أن تظل المصيبة به بعد هذه السنين كلها، كما بدأت بموته، بل تبدو أقسى وأشد، فمعنى ذلك أن هذا الرجل هو من طراز غير طراز الرجال، أو أن هذه الأمة هي من الفقر والعقم، بحيث تعجز عن إيجاد من يخلفه ويملأ مكانه، فالفاجعة القومية بالنسبة لسورية ليست إذن هي بموت سعدالله فقط، بل هي في هذا الفراغ الكبير الهائل الذي أحدثه موته، بل لعلها أوجع وأدمى في الذين حلوا محله و«ورثوا» ألقابه ولبسوا ثيابه... وتوازعوا أسلابه، ولكنهم ظلوا محرومين من مواهبه ورجولته وأخلاقه، فهم كالدمى الخرس أو تماثيل الشمع الرخوة.

يا لفاجعة الدولة برجلها الفذ الذي لا يعوض! ويا لخسارة الوطن بزعيمه الأمين، الشجاع، وخادمه الصوفي، الذي ظل يخدمه رغم عقوق الكثيرين من أهله، حتى لقي وجه ربه، دامي القلب، مقروح الكبد! ولكن الصوفي في السياسة، مثل الصوفي في العبادة: هذا يعبد ربه ولو عذّبه، وذاك يخدم وطنه ولو عقّه!

إن الذين يحتفلون اليوم بذكرى سعدالله الجابري أو يشتركون بها،

لا يحزنون على رجل مات، فالموت مصير كل حي، ولكنهم يحزنون على وطن حالت المنية بينه وبين رجل عرف كيف يخدمه ويرفع من شأنه، ويوحد بين طبقاته وعناصره، رجل جعل وحدة الشعب فوق مصلحة الحزب، وهيبة الدولة فوق البغض والحب، وسمعة البلاد أضوع من العطر، ووجهها أنضر من الزهر. فقد كان سعد الله يضحي بحزبيته وحزبه في سبيل الدولة، بينما الذين ورثوا مكانه يضحون بالدولة في سبيل حزبيتهم وحزبهم، ولا يبالون بسمعة البلاد ساءت أم حسنت، ولا بهيبة الدولة عزت أم ذلت، ولا بكلمة الأمة توحدت أم تفرقت، ولا بعناصرها وطوائفها ائتلفت أم اختلفت.

لقد طلبته الشعبية من غير أن يطلبها، وسعت إليه الزعامة من غير أن يسعى لها، فما بالى في سبيل وحدة الأمة وكرامة الدولة، بشعبية يخسرها أو زعامة يفقدها لأنه وضع هذه الوحدة، وتلك الكرامة، فوق رضاء الحزب وزلفى الجماهير وتملق الدهماء. ذلك لأنه كان متديناً غير متعصب، ورجل دولة لا رجل شارع، وحاكماً قومياً لا حاكماً حزبياً، فسخّر حزبه وعائلته وسلطته وأصدقاءه لأجل عظمة الدولة وطيب سمعتها ووحدة عناصرها وجمع كلمتها.

إنه حاول أن يؤسس في هذه البلاد دولة محترمة، فوضع أسسها، وسهر على قوانينها، وحشد كل كفوء في مشاريعها، فلما أخرج تلك المراسيم التشريعية، التي لا تقوم دولة بدونها، وفي مقدّمتها المرسوم ٥٠، وقف معارضو الأمس وحكام اليوم يتباكون على الحريات العامة التي داسوها بأقدامهم الآن ويندبون حرية الصحافة والاجتماع التي وأدوها بأيديهم بالأمس، ويثيرون الشارع ويقودون المظاهرات... حتى إذا تخلّى عنه الذين أراد أن يبني لهم تلك الدولة القوية المهابة لتحمي حرياتهم وسلطاتهم في النيابة والحكم والقانون وأرواحهم وأموالهم وطمأنينتهم، من العبث والعدوان والتسلط، ولينعم بظلها أولادهم وأحفادهم من بعدهم، ترك الحكم مجروحاً، وغادر البلاد يائساً، فكان في مرضه وفي موته صورة للإمام الغزالي القائل:

غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسَّرت مغزلي

١٩٥٠/٧/٢٨

سعد الله الجابري
سيظل فوق الشبهات
وفوق الظنون

قيل إن محاسباً نزيهاً في إحدى دوائر الدولة وجد ذمّة المغفور له سعدالله الجابري مشغولة للخزينة بألفي ليرة، وسخر أناس ـ لا من المحاسب العبقري ـ بل من الطريقة التي أذيع فيها الخبر، وقال آخرون إن الفقيد العظيم أعاد إلى الخزينة قبل وفاته بشهر واحد تسعة آلاف ليرة سورية هي رصيد المبلغ الذي حمله معه إلى القاهرة كرئيس لوفد سورية فيها، ولم يسبق لرؤساء الوزارات أن أعادوا من هذه المبالغ شيئاً من قبل، ولا من بعد.

وإذا كان محاسبو العهد الماضي قد غفلوا عن مطالبة رجل سورية العظيم بهذا المبلغ، وجاء محاسبو العهد الحالي لينقبوا عن الهنات والتوافه وليبحثوا عن الصغائر، فإننا نرجو أن يخجل الذين دفعوهم إلى هذا التنقيب أمام ذكرى الرجل الذي نهض بأبهظ الأعباء الوطنية، والذي له في أعناق المواطنين ديون... له أكثر منها في أعناق زعماء حزب الشعب بالذات، فهو الذي تخطى بهم صفوف شيوخ القضية الوطنية، ودفعهم إلى المقدمة ـ بعد أن لم يكونوا فيها ـ وجعلهم زملاء له وأنداداً، على بُعد ما بينه وبينهم من الصفات والمزايا... بل وكان رحمه الله يقيلهم من عثراتهم، ويصحح أخطاءهم، حتى إذا انتقل إلى جوار ربه لم يتورعوا أمام ذكراه

الغالية من أن يجعلوه بين الناس مديناً للخزينة بألفى ليرة سورية كأنما هم يجزونه على حسناته، ويسددون حساب تخطّيه الصفوف بهم.

لقد أعطى سعدالله الجابري وطنه كل شيء... أعطاه صحته وشبابه وثروته، ثم تولى الحكم في ظل الاستقلال والسيادة والكرامة ورخاء الدولة. وكان مجلس النواب نفسه يصدق على موازنة رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية وفيهما حوالي المليون ليرة باسم النفقات السياسية والخاصة، وقد وضعت لتنفق بلا حساب، وكانوا ـ وما زالوا ـ جميعاً يعرفون أن الجابري العظيم الرشيد لم ينفق منها شيئاً على نفسه ولم يترك بعد رحيله عن هذه الدنيا، إلا هذا الدين الذي عثر عليه محاسب صاحب ذمة وغيور على مصلحة خزينة الدولة، وهم يعرفون أيضاً أن مخصصات رئاسة مجلس النواب التي قبضها جميع رؤساء مجالس النواب، كان الجابري وحده يوزعها على الآذنين دون أن تدخل جيبه أو يطّلع على حسابها.

إن رجلاً، مثل سعدالله الجابري تطأطىء الرؤوس أمام نزاهته، وتنحني الرقاب أمام إبائه وكبريائه، يجب أن يخجل جميع الذين يحاولون غمزه أو النيل منه... عليهم أن يخجلوا من التاريخ أولاً، ثم من المواطنين المعاصرين، فالتاريخ سيقول من هو سعدالله الجابري، والمواطنون يعرفونه وينكرون النكرات الذين كانوا يمثلون في مجلسه بخشوع في حياته، ثم تمردوا عليه بعد موته. وعلى أصحاب قصة الدين «غير المسدد»، أن يتأكدوا أن ذمة الجابري وأمانته وترفّعه كانت وستظل دائماً فوق الشبهات. وأين هو الزعيم الكبير أو السياسي المرموق الذي لم يلق خصومه عليه علامات الاستفهام ويثيروا حول ذمته إشارات التعجب؟

قد يخطىء المحاسبون، وقد يكون الجابري مديناً للخزينة... ولكن ألا توجد مروءات في هذه الدولة، وألا يوجد خجل في وجوه بعض الناس، بل وألا يوجد ذوق سياسي يحول دون كتابة محاسب ما لدوائر الطابو متسائلاً عما إذا كان يوجد لسعدالله الجابري أملاك يُحسَم منها الدين؟

لقد ورث سعدالله الجابري أضخم الأملاك وأغنى الأوقاف، ورثها عن أبيه وعن جده، ولم يبددها على موائد القمار، ولا أنفقها في

المـرابع والمـلاهي، ولكنه بـذلها في سبيـل وطنه، أفلم يكن الـواجب يقضي أن يحال دون كتابة المحاسب إلى الدوائر العقارية؟ وترى، هل كتب المحاسب من تلقاء نفسه أم أنه كتب بوحي من وزيره؟ ثم هـل تراهم يتنصلون اليوم من هذه الإساءة إلى الأمة في شخص زعيمهـا وبطلها ورجلها الفـذ، كما تنصلـوا من دعوى الـدكتور عبـدالرحمن الكيـالي رئيس الحزب الـوطني وألصقـوهـا بمحـافظ حلب وحمّلـوه وزرها؟

إن رجال هذه الدولة إذا كانوا لا يـريدون أن يبـرئوا ذمـة الرجـل، وكان مجلس النواب لا يحب أن يصدر قراراً بالبراءة، وكانت عائلتـه ـ لا سمح الله ـ لا تريد أن تفي هذا المبلغ ـ وطالما وقت عنه عشرات الألوف ـ فنحن على استعداد لأن نفتتح اكتتـابا في «القبس» لنقـدم لحكومة حـزب «الشعب» ما لهـا في ذمة زعيم الشعب الفـذ، الغالي، العظيم.

إننا نسأل وزراء حزب الشعب ورؤساءه عما إذا كانت هـذه القضية قد أثيرت بعلمهم أم بدون علمهم. ونحسب سلفاً أن السؤال سيظل بلا جواب. وليسمحوا لنا أو ليسمح لنا الوزير الذي أثار القضية أن نردد على مسامعه قول الشاعر:

إن كنت لا تـدري فتلك مصيبـة   أو كنت تـدري فـالمصيبـة أعظم

١٩٥٠/١٢/١٠

هوامش

■ **حـزب الشعب**: حزب سيـاسيّ سوريّ أسّسـه سنـة ١٩٤٧ عـدد من المنشقّـين عن «الكتلـة الوطنيـة»، وعلى رأسهم هـاشم الأتـاسي. معظم مؤسّسيـه من حلب وحمص وحماه، وهم يمثّلون طبقة الإقطاعيين وكبار الملاّكين. أحـرز فوزاً في انتخـابات ١٩٤٧ و ١٩٤٩، وحكم عدّة سنوات.

■ **عبـد الرحمن بن عبـد القـادر الكيـالي**: ولـد في حلب سنـة ١٨٨٧، ودرس الطب في الجامعة الأميركية ببيروت. نائب حلب في الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨، وعضـو في المجلس النيـابي السوري، فـوزير ذو حقيبـة أكثر من مـرّة. كان من مؤسّسي الكتلـة الوطنية سنة ١٩٢٨. له عدّة مؤلفات منها «الجهاد السياسي».

محمد ظفر الله خان
المسلم الذي خدم العرب

استقبلت دمشق في هذا الصباح محمد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان ومندوبها في الأمم المتحدة، ماراً بها في طريقه إلى بلاده فكانت سعيدة بأنها تستقبل مع الفجر الرجل الذي أحسن إلى سورية وإلى العرب وإلى الإسلام، إحساناً كان موضع إعجاب العالم ومثار تقديره واحترامه، فقد أبلى هذا الباكستاني النابغة في الدفاع عن العرب بلاءً تحفظه له قلوبهم وتسأل الله أن يكافئه عنهم، لأن ألسنة العرب وأقلام كتّابهم قد لا تفي بالشكر الذي يستحقه هذا السياسي الذي انحنت أمام كفاءته وبلاغته رؤوس الساسة في أعظم مؤتمر دولي يضم أفذاذ الدول ونوابغها، فقد أدهشهم بعلمه وشجاعته ودهائه. فإذا رحبت به دمشق فإنما ترحب برجل تطوع للدفاع عن قضية فلسطين وعن قضايا العرب في ليبيا وفي أفريقيا وفي كل مكان يحتاجون فيه إلى الدفاع القوي وإلى المحامي الوفي وإلى الوكيل الأمين، وقد اجتمعت هذه الصفات كلها بالمسلم الذي حلّق في أفق السياسة الدولية، وأصبح ندّاً لوزراء الدول العريقة باستقلالها وقوتها وعظمتها، فربح به العرب أخاً لم تلده أمهاتهم، واعتز الإسلام بدوله وشعوبه بسياسي يجمع إلى العلم الغزير، الإخلاص والتقوى والعقيدة الروحانية التي جعلت من الإسلام في العصور الغابرة أبطالاً وعلماء وفاتحين.

هذا هو الرجل الذي هبط من سماء دمشق هذا الصباح إلى الأرض التي طالما أحبها واعتز لتاريخها واعتز بأمجادها، هذه الأرض التي وقف الصليبيون من فوقها منذ ستة قرون، وانتشرت جيوشهم على هضبات المزة، وفي وادي الربوة، يهددون قلب الشام بالاجتياح والغزو، فحماه منهم نور الدين وصلاح الدين وأبطال الإسلام الذين يعرف ظفر الله خان تاريخهم، ويقدس ذكراهم، فيقف في الأمم المتحدة ليهيب بالعرب والإسلام أن يقفوا في وجه الصهيونيين كما وقف أسلافهم في وجه الصليبيين، فيلقي عليهم وعلى ملوكهم وعلى رؤسائهم درساً لو وعوه وعملوا به لحفظوا شرف العرب، ولصانوا سمعتهم من الذل الذي بلغت إليه في المحافل الدولية، ولكنهم استطابوا التراجع والانكفاء، وتخلّوا عن النصر الذي كان في قبضة أيديهم ليعطوه لأعدائهم انصياعاً لأوامر مجلس الأمن الذي كان وما برح يصفق لكل قوي يعتدي على الضعيف.

إننا ونحن نرحب برجل الباكستان العظيم ونقدم له شكر العرب في إحدى عواصمهم الكبرى، نعتقد من أعماق قلوبنا بأنه سيجيب على هذا الترحيب وهذا الشكر بما أجاب على مثلهما في العام الماضي حين زار دمشق قائلاً: أشكروا الغريب الذي يدافع عنكم، أما أنا فلا أقبل شكراً عن بلاد وعن قضية وعن حقّ، اعتبرها بلادي وحقي وقضيتي، فهل بعد هذه الروح السامية يترك لنا ظفر الله خان مجالاً لشكره أو الترحيب به؟

يقول المثل العربي المشهور: «ربَّ أخ لم تلده أمك»، وها هو ذا الأخ الذي لم تلده أمهات العرب، يعمل عمل الشقيق والصديق والمحب، فتستقبله دمشق حكومة وشعباً كما تستقبل ابناً من أبرّ أبنائها، ورجلاً من أفذاذ رجالها لأن ظفر الله خان لا يفرق بين العرب والإسلام ولا يقبل الحدود المصطنعة التي تجعل العرب شيئاً والإسلام شيئاً آخر، فهو ملْك العرب والإسلام كما هو ملك الباكستان، لأن قيمة كل رجل بالنسبة لأي وطن أو قبيلة أو عرق، إنما تقاس بقدر ما يقدمه لها من عمل وخدمة وبلاء. فإذا رحبت سورية بظفر الله خان فإنما ترحب برجل تعتبره ملكاً لها. وطيب الله ثرى شوقي القائل:

وربَّ امرىءٍ لم تلده البلاد نماها ونبه أنسالها
وليس اللآلىء ملك البحار ولكنها ملك من نالها

١٩٤٩/٦/٢

هوامش

■ **شدري محمد ظفر الله خان (١٨٩٣ ـ ؟)**: سياسي وقانوني ورجـل دولة بـاكستاني، تلقّى علومه في لاهور ثم في لندن، ومارس المحاماة في لاهور. وزير خارجية الباكستـان سنة ١٩٤٧، وعضو في محكمة العدل الـدولية سنـة ١٩٥٤، ورئيس الجمعية العـامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٦٢. له مؤلفات في القانون.

■ **نور الدين بن عماد الدين زنكي**: أتابك (كلمة تركية معناها الأب) حكم بعد اغتيـال أبيـه، وملك الشـام ومصر. حارب الصليبيـين وانتزع منهم الـرهـا وبـانيـاس سنـة ١١٦٤م. ضمّ الموصل إلى ممتلكاته بعد حصار شاقّ. شيّد الحصون والمساجـد. توفّي في دمشق سنة ١١٧٤م، ودُفن في المدرسة النورية.

الجنرال غورو
ذكريات مريرة
تتلاشى في رمس

نعت أنباء باريس الجنرال غورو بطل الحرب العالمية الأولى. ويعرف السوريون جيداً هذا الجنرال الذي خاض الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وقاد معارك النصر في الميدان الغربي، كما اشترك في معارك الدردنيل ففقد ذراعه وساقه، ثم عيّن بعد الحرب «مندوباً سامياً» لسورية ولبنان، فاستسنح الفرص حتى لاحت له فرصة الانقضاض على سورية عام ١٩٢٠، فأعلن الحرب عليها بلا مناسبة، واحتل دمشق بعد معركة ميسلون.

وظلت سورية تعاني الآلام والعذاب، وأشنع ما توحيه النفوس المريضة بحب الانتقام والتنكيل والاضطهاد، ظلت تعاني ما جرّه هذا القائد العاتي عليها خمسة وعشرين عاماً كاملة حتى قيض لها أن تتحرر، وأن تنطلق نحو النور عام ١٩٤٥، وفي عهد شكري القوتلي، فتستعيد مكانتها، وتخطوها خطوة موفقة سديدة، وتسجل فوزاً في ميادين الحرية بعد جهاد دام طوال هذه السنوات الكثيرة.

أما الفاتح الظالم فقد ذهب بعد «الفتح» بأعوام قليلة إلى فرنسا حيث عين حاكماً عسكرياً لباريس، وظل في باريس طوال أعوام الاحتلال الألماني لها، يشاهد الويلات، ويرى بأم عينه مصائب الاحتلال ومصاعبه وذلّ العيش تحت وطأة الغريب الدخيل إلى أن وافاه أجله.

اللهم لا شماتة في الموت، ولكن حكمك العادل، لم يمهل أسّ البلوى في سورية أكثر من سنة بعد استقلالها وتحررها. ثم قضى وقضت معه أشأم ذكرى عرفتها هذه البلاد. واندكت خيالات بغيضة، كانت تراود بين الفينة والفينة الرؤوس، وتلاشت صور بشعة ما زال الكثيرون يتخيلونها لمعركة غير متكافئة، وقعت في ميسلون، فذهبت بعرش ٍ أقامته القلوب، وجاءت بأبغض أهل الأرض إلى سكان هذه البلاد.

واللهم لا شماتة في الموت مرة أخرى، ولكن حكمك الحق لم يشأ أن تتلاشى من أذهاننا الصور القبيحة فتجلو الجيوش الأجنبية عن أراضينا فقط بل أضاف إلى تلاشي الصور ذهاب الرمز البغيض إلى الرمس!

وبذلك انهار التراب، لا على جثة، بل على تاريخ وذكريات، لم يعرف السوريون في حياتهم أبغض منها ومنه، ولا أكره وأشقى. ولقد ذهب الرمز غارقاً في الندم، متحملاً من الآلام النفسية بالقدر الذي حمله لسورية عند «الفتح» وبعد الفتح وإبان الاحتلال، ووقت الانتداب، ورأى بعينه سيطرة الجندي الجائع الجشع المتعطش للانتقام في باريس مثلما شاهدت دمشق، وكل المدن السورية إبان قدومه ووجوده وإقامته فيها.

وأمس انهال تراب الرمس على الرمز، وطويت صفحة من الظلم هناك، طويناها قبل سنة هنا، ونرجو أن تطوى في كل بلد عربي، أنهكته القوة، وعذبه الاضطهاد، وآلمه التنكيل.

١٩٤٦/٩/١٩

هوامش

- **هنري غورو (١٨٦٧ ـ ١٩٤٦)**: جنرال فرنسي، شارك في الحرب العالمية الأولى، وأول مفوّض سامٍ فرنسي في سورية ولبنان (١٩١٩ ـ ١٩٢٣). هو صاحب الإنذار المشهور والمعروف بإنذار غورو.
- **الدردنيل**: مضيق في تركيا يصل بين بحري إيجه ومرمرة، ويشكّل مع البوسفور فاصلاً بين البلقان والأناضول. عرضه بين ١،٢٧ كم و٧ كم وطوله ٧٠ كم. مركز ستراتيجي والمنفذ الوحيد بين البحرين المتوسط والأسود. وقعت فيه معركة ضارية بين تركيا والحلفاء سنة ١٩١٥.
- **«مندوباً سامياً»**: الصواب أنه مفوّض سامٍ.

٧٥

عبد الحميد كرامي
الزعيم المعارض
والحاكم النزيه

لم يمت عبدالحميد كرامي على حساب لبنان وحده، ولكنه مات على حساب سورية وعلى حساب البلاد العربية كلها، فموته فاجعة قومية تضاف إلى تلك الفاجعات التي نزلت بالأمة العربية يوم خسرت مصر سعد زغلول، وفقدت سورية إبراهيم هنانو وسعدالله الجابري وغيرهما من أفذاذ الرجال.

لقد كان عبدالحميد كرامي من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٣٧ ملء السمع والبصر في سورية وفي لبنان. وكان يحتل في البلاد العربية المكان المرموق بصفته زعيماً من أقوى الزعماء، وظل كذلك حتى عقدت المعاهدة بين سورية وفرنسا.. وبين فرنسا ولبنان، ولكنه لم يعترف بكل ما جرى، ولم يخرج من سياسته السلبية، حتى إذا قامت الحرب الأخيرة، ووعدت سورية ولبنان بالاستقلال التام الناجز، رشح نفسه للنيابة عن طرابلس، ثم نفي مع رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري إلى راشيا، حيث كان معهما رياض الصلح وسليم تقلا وكميل شمعون، ثم ترأس الوزارة اللبنانية، ووقّع باسم لبنان على ميثاق الجامعة العربية في الاسكندرية.

والذين عاصروا نهضة سورية في الثلاثين سنة الأخيرة، يعرفون

عبدالحميد كرامي زعيماً معارضاً، عفّ اللسـان، مهذب الأسلـوب، ويعرفونه حاكماً نزيهـاً شجاعـاً، لم يتزلف إلى الشـارع، ولم يطلب الشعبية عن طريق الرعاع والغوغاء. وقد كان في حكمه مضرب المثل بهذه المزايا العظيمة، باعتباره رجلاً قامت زعامته على الشارع طوال خمس وعشرين سنة، ولكنه حـين تسلم مقاليـد الحكم كرجـل دولة، عـرف كيف يبدل أسلـوبه، بـين المعـارض المهـاجم، وبـين الحـاكم المسؤول. فذهب من الحكم محبوباً مأسوفاً عليه.

واليوم تطوى صفحة مشرقة ملأها عبدالحميد كـرامي طوال ثـلاثين سنة شجاعة ونبلاً وتهذيباً ونـزاهة. وكـان رجلاً فيـه أفضل مـزايا الـرجال، وكـان مخلصاً لبـلاده وخصوصـاً لوحـدة لبنان وسـورية السياسية والاقتصادية حتى لقي وجه ربه يحمل كتابه بيمينه، وإنه لكتاب كل صفحاته كريم وشريف.

١٩٥٠/١١/٢٦

هوامش

■ **عبد الحميد بن رشيد كرامي** (١٨٨٨ ـ ١٩٥٠): مفتي طرابلس وزعيم وطني لبناني. ولد وتوفي في طرابلس. قاوم الفرنسيين في عهد الانتداب، ورأس الحكومة اللبنانية سنة ١٩٤٥.

■ **رياض بن رضا الصلح** (١٨٩٣ ـ ١٩٥١): سياسي لبناني، ولد في صيدا، ودرس الحقوق في الآستانة. مارس المحاماة وانتخب نائباً، ثم رأس الحكومة اللبنانية في عهد الاستقلال. اغتيل في عمان بالأردن ودفن في بيروت.

■ **سليم تقلا**: سياسيّ لبناني، وعضو في المجلس النيابي في عهد الانتداب. وزير الأشغال في حكومة خير الدين الأحدب سنة ١٩٣٧، ووزير الخارجية في حكومتي رياض الصلح وعبد الحميد كرامي في عهد الاستقلال.

■ **كميل نمر شمعون** (١٩٠٠ ـ ١٩٨٧): سياسي لبناني، ولد في دير القمر، وتقلّب في مناصب، فكان سفيراً ونائباً ووزيراً. رئيس جمهورية لبنان من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٨. توفي في بيروت.

٧٦

عطا الأيوبي
نال تقدير الوطن
مرتين

إذا ذكر رجال السياسة والحكم في هذه البلاد خلال ثلاثين سنة بالثناء العاطر والاحترام والتقدير، فإن الرجل الذي توارى أمس يجيء في الطليعة. فلقد كان عطا الأيوبي المثل الأعلى لأولئك الرجال الذين تفزع إليهم بلادهم في الملمّات من أمورها، فيلبي رجاءها ويطمئن خوفها وهو العليم بأنه ليس المرشح لمناصبها العليا ورئاساتها الأولى، وإنما هو أداة كريمة لحكم صالح أو حكم أمين لدعوة معقدة اختلف الناس من حولها وتنازعوا على ثمراتها، فيقدم على حمل العبء الثقيل متعباً نفسه ليريح الذين من بعده، ويدخل يديه في النار في سبيل غيره، لا يبالي بالاحتراق لأنه زاهد بما يطبخ على النار، فيخرج كالذهب المصهور، نظيف اليد والذمة والغرض.

هكذا كان تاريخ عطا الأيوبي في السنين الأخيرة من تاريخ هذه البلاد: عهد زوال الانتداب في عام ١٩٣٦ ثم الجلاء في عام ١٩٤٣ فنال تقدير الوطن مرتين على يدي رئيسي جمهوريتين عظيمين سجلا له هذا التقدير مقروناً بالشكر والإعجاب. حتى إذا نالت بلاده استقلالها، وقف يرقب خطواتها من بعيد، فخوراً بها تارة وقلقاً عليها تارة أخرى ومشفقاً من أن لا تقدر هذه النعمة العظيمة التي كان حكمه الأخير فاتحة مباركة لها، إذ توارى الانتداب فيه فلم يعد ونسأل الله أن لن يعود.

لم يذهب عطا الأيوبي من هذه الدنيا كما يذهب الكثيرون من رجال السياسة والحكم بين حزن الأصدقاء وفرح الأعداء، بل ذهب مأسوفاً عليه من شعب أجمع على احترامه وتقديره، لأنه كان السياسي الوحيد الذي ولي الوزارة والرئاسة مرات متعددة في أسوأ أيام الاحتلال والانتداب والطغيان الأجنبي، فكان أمناً للخائفين وملاذاً للمظلومين، وعوناً للمستضعفين من أهل البلاد، وفيًّا إذا وعد، وصادقاً إذا تحدث، ومهذباً إذا ناقش. كان يحمل مسؤولية الحكم بنفسه، ويضطلع بجميع أعباء الدولة مع وجود فرنسا وانتدابها والمفوض السامي ومستشاريه من فوقه ومن حوله لأنه كان رجلاً يحترم نفسه وقوله ووعده. كان يقال عنه تجنياً أن فيه ضعفاً. والحقيقة أن ما يبدو فيه إنما كان تهذيباً ورفقاً. فقد كان قوياً من غير عنف، لبقاً من غير ضعف.

ولعل بعض الناس لا يعرفون أن عطا الأيوبي كان الرئيس الوحيد الذي لم يُهتف ضده في مظاهرة، ولم يطعن في صحيفة، ولم يتجرأ أحد على امتهان حكومته لأنه كان يضع هيبة الحكم فوق كل شيء. كان لا يقبل أن يرفع أحد صوته في حضرته أو يستملي عليه إنسان بإشارة أو كلمة فيها عدم احترام للمقام الذي يمثله. وقد حدث أنه كان يستقبل وفداً من كبار أهل المدينة جاء يطلب منه طلباً، فقال أحد رجال هذا الوفد في معرض الحديث: يجب على الحكومة أن تفعل كذا... فضرب رحمه الله المنضدة بيده وانتفض واقفاً يقول بحزم وأنفة: لا أقبل هنا أن يقول لي أحد «يجب»! إنني وحدي رئيس الحكومة، فبادر ذلك الرجل وأصحابه إلى الاعتذار فوراً، ذلك لأن عطا الأيوبي كان لا يتصرف تصرفاً يحمل الناس فيه شبهة أو مظنة، فقد كانت نزاهته وعفته فوق الشبهات. ولم تكن هذه النزاهة في يده وحدها بل كانت في جميع أعماله وزيراً ورئيساً وسياسياً.

هذه بعض صفاته في الحكم، أما مزاياه خارج الحكم فقد كان أبرز ما فيها أنه كان حريصاً على وجاهته الموروثة والمكتسبة معاً، في بيت كريم مفتوح ووجه طلق مضياف. كان متديناً غير متعصب، ومحافظاً غير جامد، ومتطوراً غير مفرط مع أنه من أقدم بيت محافظ، ومن تلاميذ المدرسة القديمة، مدرسة السلطان عبدالحميد في استانبول.

وإذا كان أقصى ما يتمناه رجل سياسي شارف الثمانين من حياته هو

أن يلقى وجه الله غير مفرط في حقوق ربه ووطنه، فـإن عطا الأيـوبي هو ذلك الرجل، وإذا كانت خاتمة الحياة هي أمنيـة الذين يخـرجون من هذه الدنيـا حاكمـين ومحكومـين، فإن عطـا الأيوبي قـد نال في سياسته وحكمه ووجاهته أحسن خاتمة لهذه الحياة.

هوامش

■ **عطا الأيّوبي**: سياسي سوري من الرعيل الأول. وزير الداخلية في حكومة علاء الدروبي التي أُلّفت بعد رحيل الملك فيصل سنة ١٩٢٠، ووزير العدل في حكومة الشيخ تاج الدين الحسني سنة ١٩٣٤، ورئيس الحكومة في أوائل سنة ١٩٣٦، ثم رئيس الحكومة الموقتة سنة ١٩٤٣.

■ جلا آخر جندي فرنسي عن سورية في ١٧ نيسان /ابريل ١٩٤٦.

■ **السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ـ ١٩١٨)**: من سلالة آل عثمان، وسلطان العثمانيين سنة ١٨٧٦. عُرف باستبداده، ولقّب بالسلطان الأحمر. ضعفت سلطته بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨، وخلع سنة ١٩٠٩ فحلّ محلّه محمد رشاد المعروف بمحمد الخامس.

■ **مدرسة السلطان عبد الحميد في استانبول**: هي في عرف المؤرخين مدرسة الجاسوسية.

عبدالقادر الحسيني
فارس فلسطين
يموت شجاعا

خسر عرب فلسطين أول أمس فارسهم المغوار وقائدهم الشجاع، عبدالقادر الحسيني. فمات كما يموت الأبطال، ودفع دمه الزكي ثمناً لأغلى انتصار سجلته قيادة المجاهدين في منطقة القدس، التي كان يقودها ويحمل رايتها هذا الشاب الباسل، فلم يمت إلّا بعد أن طرد اليهود من «القسطل» وانهزم رجال «الهاغانا» منها وسجل المجاهدون نصراً مبيناً في أعنف هجوم، جابهوا فيه جميع أنواع الأسلحة الصهيونية من رصاص البنادق إلى قنابل الطائرات.

وإذا كان عبدالقادر الحسيني قتل في معركة القسطل ومات شهيداً على أبوابها وسال دمه فوق تراب فلسطين المقدسة، فلم يكن هذا الحادث مفاجأة للعرب أو لأهل فلسطين ذلك لأن الفارس الذي يقود معركة الموت والحياة رجل مقدر عليه القتل أكثر من البقاء. ولئن كان القواد الشجعان الذين يحاربون في خطوط النار لا يقتلون فهل يقتل إذن الذي يتوارون عن الواجب ويفرون من معركة الشرف والكرامة؟

وإذا كان مصرع عبدالقادر الحسيني خسارة على فلسطين وعلى المجاهدين العرب، الذين يتوافدون من كل البلاد العربية لنجدتها وإنقاذها من احتلال اليهود وأنصارهم فإنه في الوقت نفسه شرف

لأهل فلسطين، وتزكية كريمة لجهادهم وشجاعتهم في سبيل وطنهم، بل ان استشهاد عبدالقادر الحسيني أكبر ترضية لروح والده الجليل المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني، زعيم فلسطين الأول، وشيخها المناضل الذي قاد معركتها السياسية والوطنية حتى لقي وجه ربه رافع الرأس، موفور الكرامة.

وهكذا، يبرهن عبدالقادر الحسيني على أنه فارس عرب فلسطين الشجاع كما برهن أبوه من قبله على أنه زعيمهم المؤمن وشيخهم العظيم. وإذا كانت الزعامة والقيادة لا تكلف أصحابها حياتهم على أقل تقدير، فما هو المجد الذي يكلف صاحبه الحياة إذن؟!

رحم الله عبدالقادر الحسيني الفارس ورحم موسى كاظم الحسيني الزعيم ورضي عن خالد بن الوليد القائل: لا نامت أعين الجبناء!

١٩٤٨/٤/١١

هوامش

■ **عبد القادر بن موسى كاظم الحسيني (١٩٠٨ ـ ١٩٤٨)**: مناضل فلسطيني، ولد في القدس وتعلّم في مدارسها، ثم أتمّ دراسته في القاهرة. عاد إلى القدس سنة ١٩٣٢، فتولّى أمانة جمعية الشباب المسلم، ثم إدارة مكتب «الحزب العربي الفلسطيني» في القدس. أسّس منظّمات سرّية شاركت في الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦. شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق سنة ١٩٤١، ثم في حرب الإنقاذ سنة ١٩٤٨، واستشهد في معركة القسطل الشهيرة.

■ **القسطل**: قرية فلسطينية تقع إلى الغرب من القدس، وتشكّل مفتاح الطريق بين القدس وتل أبيب. وقد شهدت هذه القرية في نيسان /ابريل ١٩٤٨ معركة ضارية بين العرب والصهاينة عرفت بمعركة القسطل.

■ **الهاغانا أو الهاغاناه (Haganah)**: منظّمة سرّية تعني «الدفاع»، أنشأها الصهاينة زمن الانتداب الإنكليزي للدفاع عن المستوطنات اليهودية. قامت بأعمال إرهابية ضد العرب، وهي العمود الفقري للجيش الإسرائيلي.

■ **موسى كاظم باشا الحسيني (١٨٥٣ ـ ١٩٣٤)**: سياسي وزعيم وطني فلسطينيّ، ولد في القدس، وتعلّم في مدارسها ثم في معاهد الآستانة. التحق بالإدارة العثمانية وتقلّب في مناصب مختلفة. قاد تظاهرات الفلسطينيين سنة ١٩٢٠، ورأس اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني من سنة ١٩٢٠ حتى وفاته. عُدّ الأب الروحي للحركة الوطنية الفلسطينية في أوائل القرن العشرين.

■ **خالد بن الوليد (ت ٢١ هـ/ ٦٤٢ م)**: صحابي مخزومي من قادة العرب. قاد الجيوش الاسلامية في فتوح فارس والشام. هزم الروم في أجنادين واليرموك. توفي في حمص، وقيل في المدينة.

صالح العلي
المجاهد الذي لم
يتاجر بجهاده

﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا. وكلاً وعد الله الحسنى. والله بما تعملون خبير﴾

«سورة الحديد»

من حقّ الذين يكتبون تاريخ القضية السورية في الثلاثين سنة الأخيرة أن يجعلوا للرجال الذين كوّنوا هذه القضية ومشوا بها إلى نهايتها السعيدة أمجد الصفحات وأكرم العبارات في التاريخ الذي يكتبون. ومن واجب الذين عاصرواهذا التاريخ وهؤلاء الرجال أن يسجلوا ما عرفوه منهم، وأن يحفظوه لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم لأنه ميراث ثمين ودرس عظيم.

ولعلنا نحن الذين عاصرنا القضية ورجالها نحو ثلاثين سنة، نعلم من الثائر الأول الشيخ صالح العلي، ما يجعلنا فخورين بأن ننصفه بعد موته إذا كنا قد أهملنا حقه على الوطن في حياته، فلقد كان فذاً في ثورته ونضاله ضد فرنسا في إبان سطوتها وطغيان جبروتها. قاتلها دفاعاً عن استقلال سوريا وانتصاراً لوحدتها، فما تاجر بجهاده ولا ساوم على إلقاء السلاح بل ظل يقاتل طوال قيام الحكومة السورية الفيصلية، وبعدها، حتى فلّ سلاحه، ونفدت قوته،

واستسلم رجاله، فكان الشيخ صالح أول من قاتل وآخر من هادن. بل لعله الثائر الوحيد الذي كان صوفياً في حربه وفي سلمه. لم يتكسب بجهاده بمال ولا وزارة ولا نيابة ولا مرتب، ولا منّ على الوطن الذي أحنت معاركه ظهره وبيضت شعره بمنة واحدة عن تنويه بجهاده أو إدلال بثورته. فلقد صمت واعتزل في قريته يعيش عيشة النساك ويحيا حياة الزهاد.

واليوم بموت الثائر الأول والمجاهد الأمين والبطل الصامت، فيذكر الأحياء من أبناء اللاذقية وجبل العلويين وحماه «ثورة الشيخ صالح»، فيذكرون فيصل الكبير وعهده، والدولة السورية وأيامها، ثم يذكرون انهيارها في «ميسلون» واستسلامها في دمشق، ويستعرضون في ذاكرتهم ما مرّ أمام عيونهم من مآسي الغزو وفظائع الفتح، ويشهدون الرجال بين فارٍ بدينه وكرامته، مهدور دمه، ومشرد عن وطنه، وبين مستسلم ضعيف عفر وجهه على أعتاب الفاتح الجديد، وجلّل رأسه براية الغازي العنيد، ولكنهم يذكرون رجلاً واحداً عصمه دينه وتقواه عن الردة الوطنية، وصانته أخلاقه وزهده عن التردي في الحمأة السياسية، فعاش ثلاثين سنة من بعد ثورته وجهاده صامتاً، فقيراً، عزيزاً، منسياً حتى من الذين تولوا الحكم في عهود الاستقلال، من رؤساء ووزراء ومحافظين، ما عدا رجلاً واحداً عرف قدره وبلاءه، فأكرم مثواه ورفع من ذكره، فبرّ به، وأحسن وفادته وشكر له جهاده وإمامته، ذلك الرجل هو كبير المجاهدين الرئيس شكري القوتلي ردّ الله غربته وجزاه عن عمله لخير الوطن بما يستحقه المحررون الشرفاء والرؤساء النبلاء.

لقد مات أمس الشيخ صالح العلي بعد مرض طويل موجع حمل آلامه وتكاليفه المرهقة بصبر ملؤه الإيمان، وبفقر قوامه الأنفة والكبرياء، فما برت به حكومة في محنته، ولا عطف عليه رئيس في مرضه لأن الذين يقدرون رجلاً مثل الشيخ صالح العلي قد رحلوا إما إلى القبور وإما إلى ما وراء الحدود.

فإلى الثائر الأول في قبره، وإلى المجاهد الصوفي في نهايته، تحية باكية حزينة من الذين يعترفون بحقّ الشهداء والمجاهدين على أوطانهم ولو بعد موتهم على الأقل!

ألا رحم الله الشيخ صالح ورحم أمير الشعراء الذي قال في رجال من طراز الشيخ صالح:

خُيِّرت فاخترت المبيت على الطوى لم تبن ملكاً أو تلم ثراء
إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعُبّ الماء

١٩٥٠/٤/١٧

هوامش

■ **الشيخ صالح العلي (١٨٨٣ ـ ١٩٥٠)**: مجاهد قاد الثورة في جبال العلويين سنة ١٩١٩ على الاحتلال الفرنسي، وظفر به في معارك متتالية، ولما نفذ سلاحه وذخيرته قضى الفرنسيون على ثورته.

■ **قرية الشيخ صالح العلي هي المرقب**، وتقع الى الشرق من مدينة بانياس على الساحل السوري.

بدوي الجبل لماذا لا تنصفك دمشق؟!

«والله ما غنّى شاعر عربي دمشق في محنتها كما غنيتها، ولا جابه عنها قوة المستعمر كما جابهتها. وهذا ديواني المطبوع سنة ١٩٢٤ في أشد الأيام حلكة وسواداً، وهذه منابر دمشق في تلك الأيام السود شاهد على ما أقول. وإذا لم تنصفني دمشق، فسينصفني التاريخ القومي يوم تخلو القلوب من الأحقاد والضغائن».

اللاذقية: «بدوي الجبل»

بهذه الجملة الشعرية الحلوة المملوءة بالألم والعتب ختم «بدوي الجبل» برقيته إلى الزميلة «الفيحاء» إيضاحاً لتاريخ قصيدة نشرتها إحدى الزميلات وزعمت أن البدوي ألقاها بين يدي الجنرال غورو في عام ١٩٢٠. والحقيقة أن القصيدة لم تلق بين يدي الجنرال ولا أرسلت إليه ولا نظمت من أجله، ولكنها وصفت احتلال دمشق يوم الفاجعة، وسكبت دمعتها غداة النكبة. وقد عرف بأمرها أصدقاء البدوي وفي مقدمتهم يوسف العيسى فاقترحوا عليه نشرها في «ألف باء» فدفعها إلى النشر، ولكن المراقبة يومئذ حذفت منها الأبيات الوطنية التي تصور الفاجعة وتصف النكبة وتمجد «ميسلون» وأبطالها، غير أنها رغم ما حذف منها بقيت فيها روح الشاعر المتفجع على وطنه والمتهكم على القوة والساخر بها، فأعلن زهده بالسياسة بعد النائبات التي ساقها الاحتلال بواكر غوادي

على هذا الوطن. ولقد قرأنا القصيدة يوم نشرت رغم ما حذف منها فلم نستنكرها، لأننا نعرف تاريخ صاحبها ونعرف ملابساتها في ذلك الحين، ونقدر قيمة الكلمة أو الإشارة أو الدمعة التي كانت تراق في تلك الأيام المرعبة حول نكبة الوطن، وما تلا الاحتلال من فواجع ومخاز تمثلت في أخلاق بعض السياسيين يومئذ الذين غدا بعضهم في هذه الأيام «وطنيين» يحاسبون أمثال بدوي الجبل على قصيدة كان قولها ونشرها في ذلك الحين شجاعة بل مغامرة!

إن بدوي الجبل لم تنته وطنيته في تلك القصيدة بل بدأت وأشرقت، فصقلت الفاجعة باحتلال وطنه قريحته، فمكث في دمشق يغني المفجوعين باستقلال بلادهم أطايب الشعر حتى صارت قصائده بين ١٩٢٠ وعام ١٩٢٥ أناشيد ذلك الجيل من الشباب الوطني يغنونها وينشدونها في المدارس والحفلات والمظاهرات، ولقد سجن بدوي الجبل في حماه واللاذقية نحواً من سنة ونصف فما لان. وعذب فما ذلّ، وجاع فما استسلم. وهذا ديوانه المطبوع عام ١٩٢٤ وما فيه من قصائد هزت الشام في محنتها وواستها في نكبتها، أنصع شاهد يرفع رأسه ويبيض وجهه. ودمشق التي كان بدوي الجبل صوتها العالي الوحيد في أحلك أيامها وأسود لياليها، لن تنكره أو تعقه أو تنساه، بل ستنصفه اليوم وغداً وفي المستقبل، وقد كان أبرّ بها من بعض أبنائها الذين ولدوا فيها وعاشوا في كنفها وظلها، فما وفوا لها وفاءه ولا بكوا عليها بكاءه، ولا أحبوها حبه، ولا افتخروا بها فخره. ولكن الحملة لم تكن في الحقيقة على بدوي الجبل بذاته، وموجة التهديم والتشويه ليست موجهة إليه وحده، ولكنها خطة مدبرة تستهدف شيوخ القضية الوطنية وكهولها الأولين وأصحاب السابقة في الجهاد والنضال والاستقلال والجلاء من زعماء ورؤساء وكتّاب وشعراء، لأن الطبقة الحاكمة والفئة المتربعة على الوزارة والنيابة تحاول أن تسلخ عن هذه البلاد ماضيها المشرق الناصع في الجهاد، وتجرب أن تغرق الذين صنعوا لها ذلك الماضي الضخم بالتهم والتجريح والتشويه، لأن معظم حكام اليوم ونوابه جماعة بلا ماضٍ ولا سابقة ولا جهاد. بل إن الذين لهم منهم ماض يحبون أن ينساهً الناس حتى لا يذكروهم بجرائمهم التي اقترفوها في ظله بحق هذا الوطن، فهم متهالكون على تجريد الأمة من ماضيها وجهادها ونضالها بهذه الحملة الجديدة التي ركزوها على أشخاص معروفين

وفي جرائد معينة معروفة! ولكن الماضي لم يقفر من أبطاله ولا شعرائه ولا كتابه، فما زالوا أحياء يعرفون التاريخ والوقائع والأشخاص، وسيكيلون الكيل كيلين، ويردون الصاع صاعات لا صاعين!

هل إن بدوي الجبل كانَ من التواضع والصراحة في الدفاع عن نفسه بحيث اعترف بهنات ارتكبها في ساعة من ساعات الضعف والضيق، وفي محيط كان القابض على وحدة البلاد واستقلالها كالقابض على الجمر. فقال إنه أساء قليلاً وأحسن كثيراً. ولكن من هو الذي كانت له حسنات البدوي وشجاعته وزهده وصبره في أيام المحن والشدائد ممن يهاجمونه اليوم ويدلون عليه؟!

لقد وجد بدوي الجبل في منطقة خارت فيها عزائم الأغنياء والزعماء والأقوياء، منطقة كانت تحكم حكماً خاصاً من دمشق وحلب، فكان طالب الوحدة والاستقلال فيها يحارب على جبهتين: الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية، فكان البدوي أول من تمرد على الجبهتين، وضحى بنيابته عن منطقته الانتخابية وعضويته في مجلس إدارة اللاذقية، وكلتاهما في ذلك الوقت شيء ثمين كبير، فكان القدوة الصالحة والأمثولة الكريمة للخائفين والمترددين، فدوّى صوت الوحدة والاستقلال في جبال العلويين وساحلهم، وما برح بدوي منذ عام ١٩٣٦ حتى اليوم بينما معظم الذين يتربعون اليوم في دست الوزارة وكراسي النيابة كانوا بين جبان لا يحمي وطنياً في محنته ونضاله، وبين غارق في نعمة الانتداب وخير الوظيفة، يعاون الغاصب المحتل على تمزيق الوحدة وطعن الاستقلال.

هذا بعض تاريخ بدوي الجبل الذي هزّ الشام بشعره يوم لم يكن أحد يجرُؤ على رفع صوته في وجه المحتل الغاصب. فمن الظلم للأخلاق ومن الإهانة لتاريخ هذه البلاد أن يشوّه وجه كان وسيظل وسيلقى وجه ربه أبيض ناصعاً، ولكن دمشق يا صديقي بدوي الجبل ما برحت والحمدلله تزخر بالمنصفين الشرفاء الذين ينصفونك ويعرفون قدرك ويذكرون بلاءك.

أما الذين يحاولون أن يهدموك فإن مصيرهم سيكون مثل الذين حاولوا أن يهدموا أمير الشعراء شوقي حين اتهموه بأنه كان يساير

المحتلين أيام الخديوي، فإذا بهم يتهدمـون وإذا بشوقي يـرتفع إلى المجد والعلاء.

اسمع يا صديقي القديم ويا أخي الوفي الكريم! ألا تحـب أن نتأسى بشوقي؟! وألا تحب أن أنشدك قول حافظ فيه:

مـا حطموك وإنمـا بك حطمـوا.. من ذا بحمـام رفـرف الجـوزاء؟!

١٩٥٠/٥/٢٠

هوامش

■ **بدوي الجبل، محمد سليمان الأحمد الملقب ببدوي الجبل**: شاعر وسياسي سوري، ولد في اللاذقية سنة ١٩٠٨، وتعلّم في مدارسها. انتمى إلى الكتلة الوطنية، ثم إلى الحزب الوطني في عهد الاستقلال. انتخب نائباً عن اللاذقية سنة ١٩٤٣ و ١٩٤٧. له ديوان شعر.

■ **الفيحاء**: جريدة يومية سياسية أصدرها سعيد التلّاوي في دمشق سنة ١٩٤٧.

■ **يوسف العيسى (١٨٧٠ ـ ١٩٤٨)**: صحافي فلسطيني الأصل والمولد، دمشقيّ الإقامة. ولد في يافا، وتعلّم في المدرسة الأرثوذكسية، أصدر أولاً جريدة «الأصمعي» في يافا، ثم جريدة «فلسطين» بالاشتراك مع ابنْ عمّه عيسى العيسى، وأتبعها جريدة «ألف باء» في دمشق سنة ١٩٢٠، واستمرّ على رأسها إدارةً وتحريراً حتى وفاته.

■ **ألف باء**: جريدة يومية سياسية أصدرها بدمشق في ١/٩/١٩٢٠ كل من يوسف العيسى وعيسى العيسى وأمين سعيد.

■ **الخديوي عبّاس**، هو عباسي حلمي الثاني (١٨٧٤ ـ ١٩٤٤): ابن الخديوي اسماعيل، وخديوي مصر سنة ١٨٩٢ ـ ١٩١٤. دشّن سدّ أسوان، واستردّ السودان. عزله الإنكليز، فخلفه السلطان حسين كامل. توفّي في جنيف بسويسرا.

■ **حافظ ابراهيم (١٨٧٢ ـ ١٩٣٢)**: شاعر مصري من مشاهير الشعراء العرب في القرن العشرين. لقّب بشاعر النيل. من آثاره «ديوان» و«ليالي سطيح».

رياض الصلح
العائد من الاسر
والذاهب الى المنفى

لولا التقاليد الصحفية التي توجب على صاحب الجريدة أن يكون أول ما يكتبه عند عودة جريدته من التعطيل هو في موضوع التعطيل نفسه فقط، لكان عليّ أن أجعل أول مقالة من مقالاتي في رياض الصلح وحده. ولست أدري هذا السر العجيب في تشابه الحوادث، فلقد أفرج عن «القبس» بعد تعطيلها السابق في تموز الماضي، وسعدالله الجابري والدكتور حسن فؤاد وفريق من شباب حلب الوطني في السجن، فكانت المقالة الأولى بعد مقالة التعطيل «التقليدية» في العدد الثاني بعد الصدور هي في تحية أولئك المعتقلين الأباة. واليوم يفرج عن «القبس» أيضاً ورياض الصلح في منفاه النائي قرب الخابور في أقصى الجزيرة والفرات في قلب الصحراء، فكأنه مقدر علينا أن لا تعود هذه الجريده من أسر طويل إلا لتتلفت إلى منفى قصي، أو سجن عميق تحيي المعتقلين، وتواسي المأسورين، تحية الموجع للموجع، ومواساة المرهق للمرهق، فالألم في سبيل هذا الوطن المحطم هو الذي يجمعنا وأشجان جراحه هي التي تؤلفنا.

لا بأس على رياض الصلح إذا سيق للقامشلي منفياً يقضي أيام نفيه المكتوبة عليه، فلقد قضى في حياته أياماً أشد ألماً من أيام القامشلي، وسهر ليالي أعظم هولاً ورعباً من ليالي الصحراء في الجزيرة، فليالي

«عاليه» في الحرب العامة، ليالي الرعب والموت، ليالي «الديوان حرب» في ظل الحكم التركي وتحت وطأة جمال باشا السفاح ونهارات المنفى في قلب الأناضول، هذه كلها قضاها رياض الصلح، وهاتيك جميعها سهرها.

أجل! لا بأس على رياض الصلح إذا نفي، ولا تثريب على «القبس» إذا حيته بعد عودتها من الأسر أو من المنفى أيضاً، فلقد يكون المنفى القاحل الجاف قرب الخابور والفرات أحب إلى النفوس المتألمة الموجعة من شاطىء بيروت المرح وهضاب الجبل الخضراء، وما يجمع الساحل والجبل في غمارها من أخلاق انحطت إلى الوشاية وضمائر أسفّت إلى الوقيعة، وذمم اتسعت للنميمة، تكيد للمخلصين، وتنقم على اللامعين من مفاخر وطنها، وكلها تصيح بلا حياء ولا خجل: كلنا للوطن!

نعم، قد يكون العيش في المنفى وفي هذه الأيام دواء للأعصاب المتعبة، وراحة للأفكار القلقة، وبعداً عن هذه المشاهد اليومية: مشاهد الشكوى والذل والفقر، في وطن مزقت وحدته، وبارت تجارته، واضمحلت ثروته، فهو يستيقظ على الشكوى دائماً، وينام على البلوى أبداً. أما المخلصون الذين يدفعون ثمن إخلاصهم وحدهم ويصابون في أرزاقهم وموارد حياتهم، فلست أدري متى تكف الأقدار عن مطاردتهم وتنام المصائب بعيدة عن فراشهم.

أما أولئك «الوجهاء» والأعيان والنواب أيضاً في لبنان، أولئك المتبجحون بزعاماتهم والمرحون في أعراسهم، والفرحون بثرواتهم القديمة و«الحديثة»، فيقرأون خبر نفي رياض الصلح في الصحف، ويهزون رؤوسهم، ولست أدري ما يقولونه في نفوسهم.

رياض الصلح في المنفى، سعدالله الجابري في السجن، إبراهيم هنانو مريض، الدكتور شهبندر محكوم بالإعدام، نبيه العظمة ممنوع من دخول سورية، هذه هي وحدها أصبحت عناوين الوطنية في هذه البلاد، وهذه العبارات غدت للدلالة على المخلصين. أما الوطنية في فلسطين والعراق ولبنان مثلاً... وأما الوطنيون في بغداد والقدس وغير القدس، فلا مرض ولا سجن، ولا نفي ولا إبعاد، ولا فقر ولا تعب، بل أراضٍ ومزارع، ووزارات ووظائف!

اللهم إننا لا ندري إلى متى تستطيع هذه الفئة من الناس أن تدفع

وحدها ثمن طلب الحرية والكرامة من صحتها وحريتها ومالها بينما الآخرون لا يفهمون من هذه الدنيا إلا أن يعيشوا لأنفسهم، وإلا أن يطلبوا من تلك الفئة نفسها الحرية والوحدة، وتخفيض الضرائب وهطول المطر في أراضيهم ومزارعهم أيضاً!

هذه هي حال الوطنيين في سورية، فإذا نفي رياض الصلح إلى القامشلي أو إلى أبعد من القامشلي، فليس رياض الصلح جديداً في «كار» النفي ولا حديثاً في مهنة المصائب.

فإلى منفى القامشلي اليوم وأسير الخابور والفرات، إلى العبقرية الفذة والوطني الصبور والمخلص الشجاع والصديق الوفي، تحية «القبس» العائد من الأسر إلى الرجل الذاهب إلى النفي.

بلل الله ثرى شوقي، فقد كان شعره الهناء في فرح الفرحين، والعزاء في حزن المحزونين الذين يحملون أعباء الوطن على مناكبهم، وتطاردهم الأقدار وحدهم. رحم الله أمير الشعراء فلقد ترك لنا بعد موته شعراً نواسي بترديده أنفسنا الملتاعة وقلوبنا الموجعة. وما أجدرنا في مثل هذا الموقف أن ننشد قوله:

طريد المقادير لا تستقر ألا تستريح.. ألا تهجع؟!

١٩٣٥/٤/٢٣

هوامش

- **الخابور الأكبر**: من روافد الفرات، وطوله ٣٢٠ كلم. تغذيه روافد صغيرة منها ينابيع رأس العين. يروي الحسكة ويلتقي الفرات عند قرقيسّية.
- **القامشلي**: مدينة نائية في شمال شرق سورية، ومركز قضاء في محافظة الجزيرة.
- **«الديوان حرب»**: هو الديوان العرفي الذي أنشأه جمال باشا في عاليه سنة ١٩١٥ لمحاكمة الوطنيين السوريين واللبنانيين.
- **نبيه العظمة**: سياسي سوري، ولد في دمشق، وتعلّم في مدارسها، ثم في الكلية العسكرية بالآستانة حيث تخرّج ضابطاً في الجيش العثماني. تعاون مع العهد الفيصلي، وشارك في الثورة السورية سنة ١٩٢٥، ثم غادر البلاد، فلم يعد إليها إلّا عام ١٩٣٧. وزير الدفاع ثم أمين العاصمة سنة ١٩٤٦، وأبرز مؤسّسي الحزب الوطني سنة ١٩٤٧. استقرّ في بيروت بعد سنة ١٩٤٩.

٨١

رياض الصلح
الرجل الذي لا ييأس

منذ نيف وسبعين ليلة باتت مدينة بيروت على حديث واحد، تذكر رجلاً واحداً بلهجة واحدة. أما الحديث فحديث النفي، وأما الرجل فرياض الصلح، وأما اللهجة فلهجة الألم والإكبار معاً: ألم الحب الذي كان كامناً في قلوب الناس لرياض الصلح، ففاض في تلك الليلة على ألسنتهم، ونطقت به وجوههم وعيونهم ساعة قيل لهم: إن رياض الصلح قد نفي. ثم إكبار هذا المصير الذي صار إليه ذلك المنفي في سياسته المحلية اللبنانية المسيحية الإسلامية.

هذه ليلة لا أنساها لبيروت ولا لرياض الصلح ولا لنفسي. فلقد قضيتها مع أولئك الناس في تلك المدينة، وعددتها فتحاً جديداً في تاريخ السياسة اللبنانية المثمرة التي نشهد نجاحها في هذه الأيام بفضل إخلاص رياض الصلح لها واندفاعه في غمارها حتى قيل عنه إنه ترك القضية العامة وانصرف إلى قضية محلية صغيرة.

وعدت إلى دمشق، وكانت «القبس» على وشك الصدور بعد تعطيلها الطويل، فلما صدرت كانت مقالة العدد الثاني منها «من القبس» العائد من الأسر، «إلى رياض الصلح الذاهب إلى المنفى»، وها أنا اليوم أقف الموقف نفسه، أقفه في اليوم الثاني من عودته كما وقفته في اليوم الثاني من «اختطافه». أحاول معرفة وجه الشبه بين

الموقفين واليـومين، فـلا أدري أين هو؟ أفي بـيروت التي باتت الليلـة الأولى عـلى الألم والإكبار، ثم بـاتت أمس عـلى السرور والحمـاسـة، سرور لقاء رياض وحماسة استقباله، أم في دمشق وفي «القبس» وفي هذه المقالة التي أكتبها بعـد عودة الأسيـر من أسره ورجوع المنفي إلى داره؟

هـذه وقفة حـائرة تتنـازعني فيها عاطفة التحية والتهنئـة لريـاض الصلح الصديق الشخصي وعاطفة الحماس لرياض الصلح الـوطني السيـاسي. أما الأولى فليس من حقي أن أشغـل النـاس بهـا. وأمـا الثانية فمن واجبي الصحفي والـوطني أن أسجلها في هـذه المقالـة اعترافاً بالحقيقة وإرضاءً للضمير.

قد يكون أصدقاء رياض الصلح وأهله وبيته أكثر سروراً بعودته من منفاه، منه هو نفسه، هـذا إذا كان مجـرد الإفراج عن رجـل منفي مـدعاة للمسرة والابتهـاج. أما ريـاض فإذا كـان مسروراً فليس من خلاصه من حـرّ القامشـلي واجتماعـه بأهلـه وأولاده، ولكنه سعيـد بالنفي وبالخلاص معاً بمقياس واحد. فقد كان عـزاؤه في الأول أنه نفي في سبيل سياسة بدأها وحده وحمل مسؤوليتها وحـده، ثم دفع ثمنها وحده أيضاً. واليوم يعود فإذا بهذه السياسة الكريمـة الطيبة تغمر الناس جميعـاً في الجبل والسـاحل: تلـك هي سياسـة توحيـد القلوب قبل توحيد الأراضي.

أجل، لقد نجحت سيـاسة ريـاض الصلح في لبنـان، وأخفق كل مـا عداها. وتمت وحدة القلوب قبل وحدة الأرض. وهـا هي بيروت التي باتت منذ سبعين يوماً على الحماسة والهناء لصاحب هذه السياسـة وحامل رايتها، وها هم اللبنـانيون المفـرقون في لبنـانيتهم يستقبلون رياض الصلح استقبالاً لم تقض به وحدة الأرض ووحدة البلد التي تجمـع بينـه وبينهم فحسب، بـل وحـدة القلـوب التي اتفقت عـلى الشعور واليقيـن والإيمان بالشر والخير وبـالاستياء وبـالشكوى، ثم في طلب الخلاص من هذه السياسة التي أرهقت البلاد وهدّت قواها.

والآن وقد عاد ريـاض الصلح إلى منـزله، أتـرى يختلف شأنـه عما كان في منفاه؟

ها هو حديثه في «القبس» وقد أدلى به إلى مندوبها في القامشلي قبـل

أن يعلم بأنه عائد إلى بيته، فأية نفس هذه النفس التي لا تتبدل ولا تتغير في السراء والضراء وفي ساعة الشدة وفي ساعة الرخاء؟! وأيّ رجل هذا الذي لا يذل أمام الحوادث مهما عظمت ولا ييأس أمام الأخطار مهما ادلهمت؟

رياض الصلح في عاليه وفي سجن الديوان العرفي وأمام شبح الموت الراعب، وتحت كابوس جمال باشا السفاح، أترى صغرت نفسه وذلت من أجل الحياة يوم كانت هذه الحياة الرخيصة أمنية الناس الغالية؟ ورياض في دمشق وفي غمرة السياسة الفيصلية الفرنسوية الوطنية الرجعية، وفي قلب هاتيك الفوضى التي ضاعت فيها المسؤوليات وفقدت المروءات من رؤوس بعض الرجال كما عصفت في رؤوس البعض الآخر، فهل ذل رياض واستسلم؟

وهل تبدل رأيه من الفرنسويين ومن سياستهم بعد أن قضى في أوروبا وفي سورية ومصر وفلسطين وجرب جميع أنواع الاضطهاد والطمأنينة؟ وها هو في القامشلي ثم في بيروت تراه غداً في دمشق وفي باريس الرجل الذي لا ييأس ولا يذل.

واليوم يعود إلى لبنان، إلى تلك السياسة الإسلامية المسيحية السورية اللبنانية، إلى سياسة وحدة القلوب، ووحدة الاستياء ووحدة الشكوى ووحدة الصراخ. يعود إلى مقربة من المطارين والكنائس، ومن النواب والمشايخ، والزعماء والعامة، فعند هؤلاء جميعاً وفي أيديهم وفي تضامنهم خلاص هذا الوطن وإنقاذه.

أيها الصديق الوفي والوطني الشجاع:

هذه تحية «القبس» إليك، وهذه عاطفة أهله وأصحابه ومحرريه وعماله، فتقبلها منهم جميعاً مخلصة لوجه الإخلاص وفية لوجه الوفاء، فلقد حيوك في منفاك وفي بعدك، وها هم يحيونك في منزلك وفي قربك، ويرددون من خلال هذه التحية قول الشاعر الذي تحبه:

وأقتل ما يكون الشوق عندي إذا دنت الخيام من الخيام

١٩٣٥/٧/٣

٨٢

رياض الصلح مصرع الرجل الذي صارع الاستعمار

«خذها من يد سعادة! ويطلق شابان قوميان اجتماعيان النار، فيرديان رياض الصلح قتيلاً!

وعمّ خبر وفاة رياض الصلح دمشق قبل أن يصل إلى بيروت فتناقلته الألسنة دون أن يظهر على الوجوه أي أثر من آثار الأسف. وأصدرت بعض الصحف ملاحق روت فيها النبأ دون أي كلمة أو تعليق، وانتشر باعة الصحف يذيعون على الناس النبأ بشكل لا يدل على حزن أو تأثر..»

«الجيل الجديد» ـ ١٨/٧/١٩٥١

بهذه العناوين صدرت صباح أمس جريدة «الجيل الجديد» لصاحبها السيد عصام المحايري «نائب» دمشق! وبمثل هذه العبارات الملوءة شماتة وحقداً وتشفياً تذيع جريدة «الحزب القومي» مصرع الرجل الذي صارع الاستعمار أربعين سنة ثم انتصر عليه وشهد جلاءه عن وطنه، وفي دمشق عاصمة سورية والعرب، ولؤلؤة الإسلام، وأنشودة رياض الصلح، ومرتع شبابه ومهوى فؤاده، وموضع اعتزازه وفخره، وفخر أبيه وجدّه من قبله ـ أفي دمشق هذه تمجد الجريمة ويشاد بالقتلة ويهتف لهم، وفي جريدة، صاحبها نائب من نواب دمشق، يصدر مثل هذا السفه والفجر واللؤم؟!

ولكن أليس من سورية انطلق المجـرمون إلى عمـان ليغتالـوا رياض الصلح؟! وأليس الذين آوتهم سـورية بـالذات، هم الـذين فجعوهـا بالرجل الذي خسرته سورية مثلما خسره لبنان وبلاد العـرب؟! وهل رياض الصلح فقيد لبناني أو سوري أم هو فقيـد عربي يمـوت على حساب الأمة العربية كلهـا وعلى حسـاب سوء حظهـا؟! ولكن الذين أصبحت عقيدتهم أن لا تتحد البلاد العربية ولا تلتقي ولا تتصادق، ولا تجتمع سورية مع أي قطر عربي آخر، قد فجعوا هذه الأمة بأبرّ أبنائها وأكفأ فتيانها وأقدر رجالها.

أصحيح أن دمشق لم تحزن على رياض الصلح كما يقـول بلسانهـا زوراً نائبها الجديد عصـام المحايـري في جريـدة الحزب القـومي؟! ومتى كانت دمشق تكره ريـاض الصلح وهي التي ألهمتـه الرجـولة والكفاح وبوأتـه الزعـامة والقيـادة مع إخـوانه الأقـدمين الأوائـل: شكـري القوتـلي وإبراهيم هنـانو وسعـدالله الجابـري وعبدالحميـد كـرامي وجميل مـردم وبقية الـرجال الـذين كانت سـوريـة ولبنـان والعراق والأردن ميادين زعاماتهم ومطالع آفاقهم؟!

إن دمشق لا تشمت بـرياض الصلـح لأنها تحبـه وتحترمـه وتقـدر تاريخه أكثر من بعض الذين صـاروا نوابهـا في غفلة الـزمن، وعند خلو الحلبة من فرسانها الأصائل! ولكن عندما تهون مـدينة عظيمـة مثـل دمشق على نفسهـا، وتعطي نيابتهـا لمثل هؤلاء الـذين مسخوا تاريخها وشوهوا وجهها وحولـوها من عـاصمة العـروبة والإسـلام ليجعلوها عاصمة الآرامييـن والسريان.. عنـدئذ يـوجد من يقـول في جـريدة علنيـة تحت سمائهـا: إن دمشق قليلة ذوق وعـاطفة وأدب، تشمت برجل عظيم مثل رياض الصلـح فلا يظهـر على أي وجـه من وجـوه أبنـائهـا وأهلهـا أثـر للحـزن أو الأسف. أمـا حـزن رئيس الجمهورية وتعـزيته البـاكية وأسف رئيس الـوزارة والوزراء وقـرار مجلسهم وبرقيتهم المؤثرة التي تفيض حزناً وأسفاً ولوعة، فإن هذا كله لا يمثل دمشق في سمو عاطفتها ونبل خلقهـا، وكريم تقـاليدهـا، ولكن الذي يمثلها قاسية شامتة لئيمـة، هم الذين يفـاخرون بـأنهم قتلوا رياض الصلح غدراً ولؤمـاً وعقوقـاً! ولكن دمشق تعرف كيف تكـذب الذين يفتـرون عليها وكيف تحـاسب الذين يجحـدون فضل نيابتها وتمثيلها في الوقت المناسب.

إن رياض الصلح وقد شارف على الستين، رجل أدّى رسالتـه، وملأ

تاريخ أمته وبلاده عطراً ونوراً. وحسبه فخراً أن يقتل غدراً بأيدي الذين يكرهون هذه الأمة العربية، ولكن الذين قتلوه وحرضوا على قتله، ثم شمتوا بمصرعه، سيكون لهم مع هذه البلاد ومع أهلها شأن وحساب، وسينظر الكهول والشيوخ من الآباء والأساتذة والمربين في أمر هؤلاء الشباب، يغرر بهم ليفتنوا عن مبادئهم ومبادىء آبائهم، وليحملوا على كره العرب وإيذائهم، وقد قال النبي عليه السلام: «من آذى العرب فقد آذاني».

إن رياض الصلح الذي لقي وجه ربه أول أمس، رجل في طليعة الرجال القلائل الذين حرروا سورية ولبنان، وصنعوا استقلالهما، فإذا مات أو قتل فإن له تاريخاً ملؤه المجد والفخار سيظل فخراً لأولاده وأحفاده من بعده. وحسبه أنه الرجل السياسي الوحيد الذي جمع شطري لبنان على استقلال لبنان وعروبته، أما الذين شمتوا بمصرعه وانقلبوا من شهداء إلى قتلة فسيعرفون قريباً أية جناية ارتكبوها ضد أنفسهم وضد بلادهم، وسيأتي يوم يبكون فيه على رياض الصلح، يوم يبلون غيره في الحكم والسياسة في لبنان!

وبعد فلا أقدر والله أن أفيك حقك من الرثاء أيها الزعيم العظيم، وأنت الذي أتعبت الكتّاب والشعراء لما فيك من خصب وإنتاج وصفات، فلا يعرفون أية ناحية إليك يتجهون وأي قول فيك يقولون؟! ففي رحمة الله ورضوانه وجناته، أيها المجاهد المضنى، والجندي المثخن بالجراح، فقد آن لك أن تهدأ وأن تغفو فلطالما ركضت ولطالما سهرت ولطالما طاردت وطوردت، ورحم الله معك أمير الشعراء القائل:

طريد السياسة منذ الشباب   لقد آن أن يستريح الطريد
لقيت الدواهي من كيدها   وما كالسياسة داء يكيد

١٩٥١/٧/١٩

هوامش

■ **أنطون بن خليل سعادة**: ولد في الشوير (لبنـان) سنة ١٩٠٤، وهـاجر مـع أبيه إلى البرازيل، ثم عاد إلى بيروت سنة ١٩٢٩. أسّس حزبه سنة ١٩٣٢، واعتقـل أكثر من مرّة. أعدم رمياً بالرصاص سنة ١٩٤٩. له مؤلفات أبرزها «نشوء الأمم».

■ **الجيل الجديد**: جريدة يومية سياسيـة أصدرهـا عصام المحـايري في دمشق في ٢١ أيلول /سبتمبر ١٩٥٠.

■ **عصام المحايري**: سياسي سوري ولد في دمشق سنة ١٩١٨، وتلقى علومه في مدارس القاهرة حيث كـانت تجارة أبيـه، ثم في مدارس دمشق وجـامعتها. انتمى الى الحـزب «السـوري القومي الاجتمـاعي» سنة ١٩٤٤، وانتخب نـائباً عن دمشق في الجمعيـة التأسيسيّة سنة ١٩٤٩. لعب دوراً مهماً في عهد أديب الشيشكلي.

■ **الحزب «السوري القومي الاجتماعي»**: أسّسه أنطون سعادة سنة ١٩٣٢، وشعاره «سورية للسوريين والسوريون أمّة تامّة»، وهدفـه وحدة سـورية الكبـرى التي تشمل الهلال الخصيب ونجمته قبرص.

المارشال بيتان أنقذ وطنه مرتين فعقّوه مرتين!

أثـارت المعاملـة السيئة التي عـاملت بها الحكـومة الإفـرنسيـة في الأسبوع الماضي المـارشال بيتـان بعد مـوته، في نفـوس الناس هنـا عاصفة من الاشمئزاز والألم على مصير الرجل الذي أنقذ فرنسـا في حياته مرتين: مرة محارباً ومرة مسالماً، فكـوفيء بعد المـوت بأن دفن في جـزيرة نـائية صغـيرة من غـير احتفـال أو تشييـع أو جنـاز أو قداس... وكتب على قبره: فيليب بيتان ـ لا مهنة له! أي أن الحكومة الإفرنسية رفضت أن تمنحه العفو كما رفض البرلـان أن يبرئـه من وصمـة الخيانـة الوطنيـة! بل إن بـلاده جـردتـه حتى من الـرتبـة العسكرية التي نالها بشجاعته وكفايته وحدّ سيفه في معـركة المـارن وهي رتبة المارشالية، وسلبته حق التمتع بلقبها بعد موته، واعتبـرته رجلاً متشرداً بلا مهنة!

هكذا كانت عاقبة الرجل العظيم المارشال بيتـان الذي أنقـذ فرنسـا مرتين: مـرة محاربـاً ومرة مسـالماً. أنقـذها محـارباً من الاحتـلال الألماني في معركة المارن عـام ١٩١٨ فجعلها قـائدة جيـوش الحلفاء وجعل جيشها سيـد جيوش أوروبـا، وجعل كلمتهـا العليا في مؤتمـر السلم ثم أنقذها مسالماً في عام ١٩٤٠ يوم عقـد الهدنـة مع ألمـانيا فكـانت أشرف هدنـة عقدت بـين غالب ومغلـوب، فصان عـاصمتها

ومدنها من الخـراب، ومتاحفهـا وآثارهـا وكنوزهـا الغنية من النهب والسلب، وجنّب شعبها الفقر والجوع والإهانـة، وحمى نساءهـا من السبي بحيث خرجت فرنسا من الحرب ومن الاحتلال ومن الهزيمـة إلى صفوف الظافرين المنتصرين مباشرة. فـإذا بها في طليعـة الدول الأربع الكبرى، تشترك في احتلال المـانيا، وتـأخذ نصيبـاً كبيراً من غرامة المعامل والفحم، وتبقي لها مستعمراتها وامبراطوريتها، بينمـا جـردت إيطاليـا مثلاً من جميـع مستعمراتهـا... لا بل إن فـرنسـا المنهزمة المستسلمة خرجت بفضل المارشال بيتان من الحرب الثانية أكثر نفعاً وأعظم ثراءً وغنائم من بريطانيـا المحاربـة المنتصرة، فقد بقيت فرنسا في تونس والجزائر ومراكش بينما خرجت بريطانيـا من الهند وبورما وسيلان!

أجـل! هكذا كـانت عاقبـة الـرجـل الـذي وقف شبـابـه وكهـولتـه وشيخوخته على تحريـر فرنسـا ومجدهـا وعظمتها: حـرَّرها مـرتين، فعقّته مرتين: مرة في حياته حيث اتهمتـه بالخيـانة الـوطنية وحكمت عليه بالسجن المؤبد... ومرة بعد موته حيث رفضت أن تمنحه العفو وتعيد إليه شرفه واعتباره ولقبه ورتبته. فيا للشعوب الظالمة ما أفظع عقوقها للذين حرروها ونقلوها من الذل إلى العـز ومن الاستعمار إلى الاستقلال!

وليس المارشال بيتان وحده هـو الذي لقي هـذا الجزاء القـاسي من فـرنسا مثـلاً، بل إن الـذين لقـوا مثـل هـذا المصـير من شعـوبهم وبلادهم كثيرون وخصوصاً في بلاد العرب والشرق. ذلـك لأن خاتمـة هؤلاء تكـاد تكون متشـابهة، إمـا القتل والسجن أو النفي والطـرد، وإما التهمة بالخيانة! أفلم يقتل غاندي نبي الهنـد ومحررهـا في يوم تحرير الهند؟ وألم يصرع جعفر باشا العسكري وزير الـدفاع وأبـو الجيش العراقي ومؤسسه بيد بعض الضباط العراقيين؟! وألم يطرد ياسين باشا الهـاشمي رجل الـدولة الفـذ، ويموت منفيّاً بعيداً عن وطنـه وهو الـذي نقله بـرجولتـه وكفايتـه في ظل فيصـل الأول، من مستعمرة بريطانية تابعة للهند إلى دولة نالت استقلالها قبل كل دولة عربية وشرقية بعد الحرب الأولى؟!

وفي سورية؟! أفلم يقتـل العالم والسيـاسي والوطني الكبـير الدكتـور عبدالرحمن شهبندر صاحب الصرخة الأولى بعد الاحتـلال الإفرنسي

بأيدي بعض أبناء وطنه؟! وشكري القوتلي الذي صمد ببطولة خارقة للعدوان الإفرنسي، ثم قاد بلاده إلى الجلاء بإخلاص منقطع النظير، والذي امتلأت بلاده في حكمه بالمعابد والكليات والمستشفيات والمدارس والطرق والريّ وأبنية الدولة، وعشرات المعامل والمصانع، بعد أن كانت حين تولى أمرها بلاداً تدار على طريقة المستعمرات ويشكو أهلها الفقر والضيق، فنقلها في عهده وحكمه من مستعمرة فقيرة ذليلة إلى دولة عزيزة غنية؟ إن شكري القوتلي هذا نفسه ألم يطرد من البلاد التي حررها ووقف شبابه وكهولته وصحته وماله على سعادتها وهنائها؟!

ورياض الصلح؟! الذي حرّر لبنان من الاستعمار وقاده إلى الاستقلال وسلكه في دول الجامعة العربية بعد أن حملها على الاعتراف باستقلاله وكيانه وحدوده... أفلم يصرع بيد لبنانية وعلى أرض عربية ومن قبل أشخاص التجأوا إلى سورية؟!

وهل نسينا أحمد ماهر والنقراشي، وكلاهما قد عمل لاستقلال مصر وكرامة مصر، ووطدا النظام والحكم الوطني في مصر... أفلم يصرعا هما الاثنان بأيد مصرية خالصة؟!

يا للشعوب ما أفظع عقوقها! ويا للأبطال الذين يحررونها ما أفجع مصيرهم وأحزن خاتمتهم! إنها القتل أو السجن أو الطرد أو التهمة بالخيانة الوطنية!

١٩٥١/٧/٣٠

هوامش

■ **فيليب بيتان** Pétain (١٨٥٦ ـ ١٩٥١): مارشال فرنسي، وأحد كبار القادة في الحرب العالمية الأولى، اشتهر في معركة فردان سنة ١٩١٦. رئيس الحكومة في ظل الاحتلال الألماني (١٩٤٠ ـ ١٩٤٤). حكم عليه بالإعدام سنة ١٩٤٥، وتوفي في المنفى.

■ **معركة المارن** (Marne): نهر في فرنسا من روافد السين. قربه هزم الفرنسيون الألمان في الحرب العالمية الأولى.

■ **مؤتمر السلم**: عقد في فرساي سنة ١٩١٩.

■ **جعفر العسكري** (١٨٨٥ ـ ١٩٣٦): عسكري وسياسي عراقي. ولد في بغداد وتخرّج في المدرسة الحربية بالآستانة. ثم تخصّص في برلين. حارب في الثورة العربية الكبرى إلى جانب الأمير فيصل بن الحسين. شغل مناصب إدارية وسياسية في العراق، أبرزها وزارة الخارجية ووزارة الدفاع. قضى غيلة بيد عربية.

٨٤

جميل الالشي
السياسي النزيه
الواقعي

شيعت دمشق ظهـر أمس رجلاً كبـيراً، وسياسيـاً نزيهـاً واقعيـاً، ورجل دولة من الطراز الأول، وهو المرحوم جميل الألشي أحد رؤساء الوزارات السابقين.

ولقد عددت الصحف الصادرة أمس ألقابه ورتبه العسكرية والمدنية، ولكن «القبس» تريد أن تعدد مزاياه ومناقبه وصفاته وأخلاقـه، فقد كان أول سياسي تمرد على الشارع منذ نيف وثلاثين سنة، فلم يرهب المظاهرات ولا الاتهامات. وقال رأيه لمليكه وحكومته وزملائه بصراحة وشجاعة.. قـال هذا الـرأي بصفته عسكـرياً فنيـاً كبيراً، وبصفتـه سيـاسياً مسؤولاً واقعيـاً، ولكنهم لم يسمعوا نصحـه، ولم يعملـوا برأيه بل اتهموه بوطنيته! ولكنه أثبت في أول موقف مـع فرنسـا وفي أسرع وقت أنـه ليس عبداً للمنصب ولا عميـلاً لفرنسـا، فقـد رفس كرسي رياسة الوزارة حين فصل الجنرال غورو الأقضية الأربعة عن سورية بقرار منه ثم فصل حلب عن دمشق وجعل من سورية أربـع دول، ولم يعـد إلى الحكم إلا بعـد أن عـادت حلب إلى دمشق وبعـد ثماني سنين أو تزيد، فقد عاد وزيراً عدة مرات فكان مثـال الوزيـر الكفؤ النزيه المنتج.

ولقد عرف عن جميل الألشي أنه ما تولى عملاً إلاّ وأتقنه سـواء أكان

إدارياً أم اقتصادياً أم علمياً. وقد اشتغل في زراعة الفاكهة، فأنشأ بستاناً في الزبداني كان وما برح على صغر مساحته النموذج الناجح لجميع بساتين الفاكهة في سورية ولبنان.

وأمس غادر جميل الألشي هذه الدنيا بعد أن تولى رياسة الوزارة عدة مرات، ومن قبل ذلك تولى المناصب العسكرية عدة سنين، غادرها فقيراً، لم يخلف سوى هذا البستان الصغير الذي كان يعيش من وارداته ومن راتب تقاعده معظم حياته مع عائلته. ولكنه خلف لأولاده من بعده سمعة عطرة يفتخرون بها على أولاد الكثيرين من الرؤساء والوزراء، وهي سمعة النزاهة وعفة اليد واللسان، وأنه كان السياسي الواقعي الوحيد الذي تمرد على سياسة الشارع، ولم يرهب غضب العامة ولا تزلف لرضاها.

١٩٥١/١٢/٩

هوامش

- **جميل الألشي**: عسكري وسياسي سوريّ. ولد في دمشق سنة ١٨٨٢، وتعلَّم في مدارسها، ثم في الآستانة، فتخرج ضابطاً في الجيش العثماني، وتقلّب في مناصب عسكرية. اتهم بالتآمر واقتيد الى الديوان العرفي في عاليه، فلم تثبت إدانته. معتمد الأمير فيصل لدى القائد العام البريطاني (اللنبي)، ثم مرافقه. وزير الحربية في حكومة علاء الدروبي. تقلّب في مناصب وزارية غير مرّة، وكُلّف برئاسة الحكومة سنة ١٩٤٣ لبضعة أشهر.
- **الأقضية الأربعة**: هي حاصبيّا وراشيّا وبعلبك والبقاع أو المعلّقة.

فهرس أعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

التاريخ

■ لقد كان نجيب الريّس القوة التي نهضت بنصف استقلال هذا الوطن، وبانتزاع حريته وسيادته من يد الأجنبي الغاصب(...) إنه فصل من تاريخنا الحديث.□

محمد روحي فيصل

أديب من سورية
دمشق - ١٩٥٥

الشجاع

■ لن يفوتني أن أشكر الله ان خلقك في هذا الوطن، وجعلك تشهد المستعمر يدخل من ميسلون لتصبح لسان صدق عن بني قومك خلال خمسة وعشرين عاماً، تحديت خلالها قوة الغاصب وأسلحته وفتكه، وأعلنتها في «القبس» ثورة قلب شجاع لا يعرف التهاون في حق وطنه السليب، ولا يهاب الدولة التي كانت تخيف العالم يومذاك.□

صباح قباني

ديلوماسي وأديب من سورية
دمشق - ١٩٥٢

الحلبة

■ فريق من الكتّاب الأحرار جعلوا من «القبس» حلبة لأقلامهم وآلوا على أنفسهم الدفاع عن هذه البلاد واستنفار المواطنين وتثبيت عزائمهم، للاستمرار في مقارعة المحتل ولو لقوا في سبيل غايتهم الوطنية النبيلة أشد أنواع الظلم والكيد والتنكيل، فكانت هذه الجرأة السافرة والشجاعة النادرة من جريدة «القبس» وكتّاب «القبس» ونجيب الريّس صاحب «القبس» تفعل في أفئدة الرجال فعل النار في الهشيم.□

أديب الداوودي

ديلوماسي من سورية
دمشق - ١٩٥٠/١١/١٤

نجيب الريّس

(١٨٩٨ - ١٩٥٢)

الذكرى المئوية



الأعمال المختارة

أهل السياسة وأهل القلم

(١٩٢٩ - ١٩٥١)

هذا جزء آخر من أعمال نجيب الريّس، وهو جزء لا يقلّ غنى أو أهمية تاريخية، ولا رهافة وشفافية عما عداه من أجزاء.

لقد تناول عدداً غير قليل من القادة ورجالات السياسة، الذين باتوا جميعاً في ذمة الله وفي ذاكرة التاريخ، كما تناول نفراً من الأدباء والصحافيين والعسكريين والمجاهدين القدامى، فضلاً عن أشخاص لم يكن لهم شأن يُذكر في السياسة. ومعظم هؤلاء الأعلام من السوريين، وأقلهم من العرب، وأندرهم من الأجانب.

ويقع هذا الجزء في أربع وثمانين مقالة افتتاحية، كتبها نجيب الريّس بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٥١، وتناول فيها ستّين شخصية وهي مقالات غنيّة بمادتها ومعلوماتها التاريخية، شائقة بأسلوبها الصحافي الرشيق. وكما هي عادة نجيب الريّس في معظم مقالاته، تراه يستشهد بالشعر أحياناً كثيرة، ويختم العديد من افتتاحياته ببيت شعري غالباً ما كان لأمير الشعراء أحمد شوقي.

ربما لا تكون مع نجيب الريّس في كل ما كتب وقال في شخصياته هذه، لكن ليس لك إلاّ ان تعجب بما قال وكتب. فالطابع الغالب عليها يبقى الصدق والأصالة والوفاء للصحب ورفقاء درب النضال.



1855131919